

يوسف السور

تاريخ لبنان الحضاري



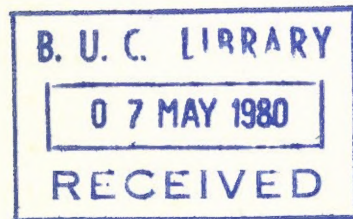
دار النهار للنشر

956.92
S2716

يوسف السور

تاريخ لبنان الحضاري

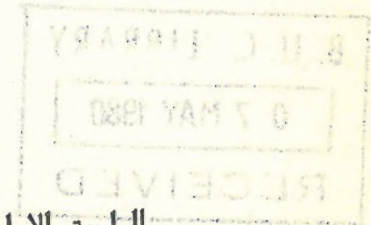
الطبعة الثانية



دار النهار للنشر

المحتويات

١١	تمهيد
١٣	لبنان وفينيقيا
١٧	من اين جاء الفينيقيون
١٩	لبنان والتسمية في التوراة
٢٣	لبنان والارز
٢٧	صعوبة تاريخ لبنان
٣٣	الجغرافيا والتاريخ
٣٥	المدن الفينيقية
٣٩	الحضارة في ما بين النهرين ووادي النيل وجيبيل
٤١	عصر صور
٤٧	عصر صيدا او صيدون
٥١	بيروت
٥٣	طرابلس
٥٥	الديانات القديمة
٥٩	الديانات القديمة في لبنان
٦٥	الادب الفينيقي
٦٩	قدموس وفتح اوروبا
٧٥	الهجرة الفينيقية الاولى : اتروريا ومدنها
٨١	قرطاجة
٨٩	الفرس والاسكندر
٩٣	لبنان واليونان



الطبعة الاولى ١٩٧٢

جميع الحقوق محفوظة

دار النهار للنشر

بيروت ١٩٧٩

٩٩	فينيقيا تسهم في حضارة الانسان
١٠١	البناني والبحر
١٠٧	التجارة
١١٩	اساطير لبنانية
١٢١	اسطورة ادونيس وعشروت
١٢٩	في عهدي الرومان والبيزنطيين
١٣٥	لبنان في عهدي روما وبيزنطية
١٥٧	الفتح العربي والصليبيون
١٥٩	لبنان والفتح العربي
١٧٥	الصليبيون في لبنان
١٧٩	المماليك
١٨٣	لبنان الحديث
١٨٩	فخر الدين الثاني الكبير
١٩٩	انتقال الامارة الى الشهابيين
٢٠٧	عهد القائميتين
٢١٣	تطور الاحداث في لبنان
٢١٩	نظام لبنان الاساسي وقرارات الدول
٢٢٥	الاقطاعات في العهد العثماني وقبله
٢٢٧	لبنان الاداري
٢٣٣	بروتوكول ١٩١٢
٢٣٥	الوضع الدولي قبل الحرب
٢٣٩	لبنان في القانون الدولي العام
٢٤٥	من الانتداب الفرنسي الى الاستقلال
٢٤٧	اتفاقية سايكس بيكو
٢٤٩	الجيش التركي يحتل لبنان
٢٥٣	التصريح الانكليزي الفرنسي ١٩١٨
٢٥٩	لبنان الاداري

توطئة

لا ينشأ وطن يعجزه الرجوع الى تراث .
على التراث بني اغريق الهلادة ووراث روما الوطن والدولة .
استلهموا احداث التاريخ فصاغوها اساطير وانشدوها ملاحم .
ايبسيلتي وكاناريس وفنزيلوس الى باباندريو صعدوا بانسابهم الى
هوميروس وبريكاريس وسقراط وافلاطون وليونيداس .
وارجع دانتة وغاريبالدي وموسوليني وساراغات احسابهم الى
رومولوس وذئبته والى شيشرون وفرجيل .
تاريخ البقعتين كتبه الاغريق والرومان كما زين لهم الخيال ، فما
كان من الاحفاد الا ان عملوا على تجديد مآثر اثينا ورومة .
للبقعة المنبسطة من الناقورة الى النهر الكبير تاريخ عميق الجذور ،
مشرق المعالم .
بلد يتعرفه ابناءؤه فيعزّهم انهم لبنانيون .
وطن يوحى تراثه بحبه وتوطيد اركانه .
منارة عرفان
حصن حرية
واحة امان واطمئنان في المشرق .

يوسف السودا

تقديم

يقسم التاريخ عهوداً اربعة :
الاول - التاريخ القديم وهو يمتد من ٤٠٠٠ سنة ق.م. الى
٣٩٥ ب.م.

الثاني - العصر الوسطى - من ٣٩٥ الى فتح القسطنطينية ١٤٥٣.
الثالث - التاريخ الحديث - من فتح القسطنطينية الى الثورة الفرنسية
سنة ١٧٨٩ .

الرابع - التاريخ المعاصر - من الثورة الفرنسية الى ايامنا .
على العهود الاولى للتاريخ القديم سجوف متلبدة تضل فيها المسالك.
ويسمى هيرودوتس الاغريقي ابا التاريخ وهو ما عاش الا في
الجيل الخامس قبل الميلاد .

ومعظم ما يرويه في مؤلفه الضخم عن القرون السابقة له يرجع فيه
الى ما كان يتداوله الناس من حكايات ويتناقلون من اساطير .
وتفقي آثاره من جاء بعده من مؤرخي الاغريق والرومان وغيرهم.
على ان الحفريات التي جرت في المشرق في الازمنة المعاصرة كشفت
عن آثار القت الاضواء فيه على دياجير تلك العهود .

ويستوقف المطلعين ان في ما دون عن تاريخ لبنان القديم التباساً
ونواقص وغوامض تسيء الى حقيقته ، منها :

- ١ - عن كلمة فينيقي فينيقيا .
 - ٢ - عن الجالية اللبنانية بقيادة قدموس الى جزر الاغريق وبلادهم .
 - ٣ - عن الجالية اللبنانية الى اتروريا في توسكانا ايطاليا .
 - ٤ - عن الجالية اللبنانية الى قرطاجه .
- في الصفحات التالية محاولة لجلاء ما غمض على اعتقاد ان في جلائه
خدمة للبنان .

ويساعد على بلوغ الغاية القاء نظرة على الوضع في المشرق ، وفي
جزر البحر المتوسط ، وفي اوروبا ، وفي افريقيا ، في التاريخ
القديم .

لبنان وفينيقيا

كلمة « فينيقيا » ومنها « فينيقي » اقحمت في تاريخ لبنان القديم
فاحدثت التباساً ادى الى الاعتقاد ان فينيقيا وفينيقي شيء ولبنان او
لبناني شيء آخر . والواقع ان هذه الكلمة ليست اسم مدينة او بلاد ولا
هي اسم قبيلة او شعب لكي تصلح اساساً للانتساب ، انما هي صفة في
اللغة الاغريقية تعني « احمر » وقد اطلق قدامى الاغريق (في الغرب)
هذه الصفة على السفن والملاحين والتجار القادمين اليهم من لبنان .
لبضعة آلاف من السنين قبل الميلاد ، كان سكان الجزر والبلاد
المعروفة اليوم باليونان جماعات بدائية تسيطر على عقولها الاساطير ومنها
اسطورة الاله « فينيق » ، المتجسد في قالب طائر يشبه النسر شكلاً
وحجماً ، يكسو عنقه وصدرة ورأسه ريش احمر . وكان هذا الطائر
الاله يحرق نفسه ثم يبعث حياً من رماده . وكانت له عبادة خاصة عند
الاغريق يمارسونها باحتفال سنوي عند موته وعند قيامته .
في ذلك العهد اينعت الحضارة في المدن اللبنانية ، لا سيما في جبيل
وصيدا وصور وبسطة ظلها على الجوار .
وكان اللبنانيون اسياء البحر المتوسط تطوف سفنهم فيه وتحقق على
صواربها اشرعة صبغ قماشها باللون الارجواني . وكانوا اذا اطلوا
باحدى سفنهم على الشواطىء الاغريقية وشرائعها ، من اللون الذي اصفته
الاسطورة على الطائر الاله ، تراكض الناس هاتفين « فينيكس »
« فينيكس » . اي احمر ! احمر !
وشاعت الكلمة في تلك المنطقة حتى عادت لا تعرف السفن اللبنانية
ومن فيها الا بكلمة « فينيقيا » .
وجاء هوميروس في القرن التاسع فكرس الكلمة في ملحمتيه

الشهرتين الالياذة والاولديسة حول حرب طروادة .
لم يكن هوميروس ليجهل ان كلمة «فينيقي» لقب اطلق على اهل
المدن اللبنانية ، فكان يستعمل على حد سواء الاسم او اللقب ، فيقول :
«فينيقيون او صيدونيون ، وفينيقيا او صيدا» .

هكذا وردت في الملحمتين كلمة (فينيقيين) ٧ مرات وكلمة
(صيدونيين) ٥ مرات وكلمة (صيدون) ٣ مرات وكلمة (فينيقيا)
مرتين ، كقوله في الاولديسة في النشيد الرابع : «ان منيلاس يتحدث
عن سفره الى فينيقيا ومصر ويقول لتليماك انه يهدي اليه اجمل ما عنده
من تحف واعزها ، وذلك حق من فضة ذو شفاه حمراء ، قدمه الي
ملك صيدا عندما ازمعت الرجوع» . (شعر ٨٣ و ٨٤) .

وفي النشيد الثالث عشر يقول عوليس : «انه التجأ الى (فينيقيين)
نبلأ راجياً منهم تغيير طريقهم ... ورغم الجهود التي بذلوها ابتعدوا
عن بيلوس - ولم يخدعوني - وانزلوني على شاطئ ايتاك (في الجزر
الاغريقية) فارتميت على الرمل ونمت نوماً عميقاً .

ثم اهتموا بنقل حوائجي من سفينتهم ووضعوها الى جانبي على
الرمل ورجعوا الى مركبهم وواصلوا السفر الى مدينتهم صيدا ذات
البيوت الجميلة» . (من شعر ٢٧٢ الى ٢٨٦) .

وفي الالياذة - في النشيد السادس : «نزلت (هوكوب) الى الغرفة
- حيث تحفظ البراقع الموشاة بايدي الصيدونيات ، وهي البراقع التي
جلبها معه من صيدا في البحر ، الكسندروس البطل» (٢٨٩-٢٩١) .
وفي النشيد الثالث والعشرين : «قدم اخيل جائزة السبق حقاً
جميلاً من الفضة المشغولة لا يضاهيه جمال لان صيدونيين ماهرين
كانوا قد اتقنوا صنعه . وقد نقله في البحر رجال فينيقيون . وبعد ان
عرضوه في الموانئ قدموه هدية الى الملك تواس» (شعر ٧٤٠-٧٤٥) .
وتناقل الناطقون باللغة الاغريقية في الجزر والمدن ملحمتي هوميروس
ينشد ابائهما المنشودون ويتغنى بروائعها المغنون ويحفظها ويرددها المثقفون .
واصبح كل من جاء بعد الاولديسة والالياذة من كتاب وشعراء

في الغرب لا يستعملون الا كلمة «فينيقي وفينيقيا» في تعريف لبنان وبنه امثال
صوفوكل في مسرحية «اوديب الملك» وأوريبيد في مسرحية «الفينيقيات» .
وحذا حذوهم الشعراء الرومان كهوراس في قصائده وفرجيل
في الالياذة . واطلقت الكلمة من ثم في الغرب على كل ما له علاقة
بلبنان ومدنه ومهجره فقليل : «الحروف الفينيقية» اي احرف الهجاء
التي وضعتها جيل . وقليل «النجمة الفينيقية» وهم يقصدون نجمة
القطب التي اكتشفها الملاح اللبناني .

وقيل (الحرب البونية) اي (الفينيقية) اشارة الى الحروب التي
وقعت بين روما وبين مهاجري لبنان القرطاجيين (١) .

وفي تلك الازمنة لم يكن للقومية او للعنصرية او للطائفية اي ذكر .
كان ينسب السكان الى مدينة ، بل كانت البلاد كلها تنسب الى مدينة .
فقليل البابليون والامبراطورية البابلية نسبة الى مدينة بابل . وقليل
الاشوريون والامبراطورية الاشورية نسبة الى مدينة اشور .

هكذا كان استعمال هوميروس ومن جاء بعده كلمة صيدونيين
يشمل في عرفهم ولغتهم الفينيقيين جميعاً او فينيقيا (٢) .

حصر الكلمة في الغرب دون الشرق

حين كان شعراء «فينيقيين وفينيقيا» وهم يقصدون «لبنانيين
ولبنان» لم يكن احد في المشرق يستعمل هذه الكلمة ، بل كان الجميع
في مصر وسوريا وما بين النهرين يقولون - على ما تثبته الحفريات -
«لبنان» اذا كانوا يعنون البلاد ، ويقولون جليل ، صيدا ، صور او
«جبيليون» و «صيدونيون» و «صوريون» اذا قصدوا الاشارة
بال تخصيص الى مدن جليل وصيدا وصور او الى سكانها .

والمصريون كانوا يسمون السفن «مراكب جبلة» اي جليل . ولم

(١) فيكتور بيرار ، «الفينيقيون والاولديسة جزء ٢ .

(٢) كونتنو ، الحضارة الفينيقية ص ٦٥ .

ترد عندهم يوماً كلمة فينيقيا وفينيقيين .

والتوراة التي ترجع مع موسى الى ١٢٠٠ ق.م. وتصل مع النبي حزقيال الى القرن السادس ق.م. ورد فيها عشرات المرات ذكر لبنان وجبيل وصيدا وصور والارز . ولم تعرف طوال تلك المدة في اسفارها كلمة « فينيقيا وفينيقيين » .

جاء في اشعيا قوله : « قد أوتيت مجد لبنان » (ف ٣٥ - عد ٢) . وجاء فيه : « قد قرعت الرب على لسان عبيدك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال واواخر لبنان » (ف ٣٧ - عد ٢٤) . وفي حزقيال « شيوخ جبلة » (جبيل) وحكامها كانوا فيك جلافة لخصامك (ف ٢٧ عد ٩) .

وجاء في سفر يشوع : « فلما سمع جميع الملوك الذين في عبر الاردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير الى مقابل لبنان ... اعتصبوا معاً لقتال يشوع واسرائيل » (ف ٩ عد ١) . وفيه « ارض الجبلين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس » (ف ١٣ عد ٥) . وفي سفر القضاة : « ... جميع الكنعانيين والصيدونيين المقيمين بجبل لبنان » (ف ٣ عد ٣) .

وفي نشيد الاناشيد : « شفتاك تقطران شهداً ايتها العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف ثيابك كعرف لبنان » (ف ٤ عد ١١) . الى آخر ما ورد في كتاب التوراة وانبيائها مما يثبت ان كلمة « فينيقيين فينيقيا » لقب رددته الغرب بعد هوميروس عن لبنان واللبنانيين والمدن اللبنانية .

واقصر استعمال اللقب على الغرب والغربيين .

وفي بيروت اليوم حي جديد اطلق عليه كلمة الحمرا . فيقال اليوم « سكان الحمرا » ومن هم الا سكان حي من احياء بيروت وما بيروت الا مدينة من لبنان . فسكان الحمرا لبنانيون مقيمون في لبنان .

هكذا قال الاغريق : فينيقيون فينيقيا (حمر حمراء) وما فينيقيا الحمراء الا لبنان وما الفيينيقيون الحمر الا اللبنانيون سكان المدن اللبنانية .

من اين جاء الفيينيقيون

سؤال استوقف المؤرخين القدامى ولا يزال يطرحه المؤرخون وقد اختلفوا في تحديد منشأ الفيينيقيين ولا يزالون مختلفين .

ولكن بعد ان تبين ان كلمة « فينيقي » ليست اسماً بل صفة تعني « احمر » وان هوميروس استعملها بعد شيوعها لقباً يقصد فيه بالتخصيص ابناء المدن اللبنانية دون سواهم .

لكن بعد هذه الايضاحات لم يبق معنى للتساؤل « من اين جاء الفيينيقيون » . فهم جاؤوا من لبنان ، من صيدا ، من صور ، من جبيل . ولم يرد في اية بقعة من بقاع الارض ولا في اي تاريخ ذكر لبلاد اسمها فينيقيا او لقوم اسمهم فينيقيون قبل ان يطلق الاغريق الكلمة ويكرسها هوميروس .

وفي الاساطير التي تداولها الاغريق من قديم الزمان وجعلها شعراؤهم فيما بعد مواضيع لمسرحياتهم اوضح لما كان يفهمه الاغريق بكلمة (فينيقيا فينيقيين) وهم اولى من غيرهم باعطاء الجواب عما كانوا يعتقدون هم انفسهم بشأن البلاد التي منها جاء الفيينيقيون .

فقد وضع شاعرهم اوريبيد مسرحية بعنوان « الفيينيقيات » ورد فيها ما كان متعارفاً عندهم على كر العصور ان من يسميهم الاغريق فينيقيين قد جاؤوا من صور او صيدا من لبنان .

فقد وجه احد ابطال المسرحية الى الجوقة القادمة الى بلاده من صور هذا السؤال : ايتها الغريبات من انتن ؟ ومن اي وطن جئتن الى منزل اغريقي ؟

فأجابت رئيسة الجوقة قائلة : ان فينيقيا هي الوطن الذي غذاني ... تركت مياه (صور) وغادرت الجزيرة الفيينية في تقدمه الى الاله فوابوس .

اما اذا كان السؤال يعني : من اين جاء اهل لبنان الذين الصقت بهم صفة « الحمر او الحمراء » ، فالجواب ان لبنان كان أهلاً بالسكان منذ عشرات الالوف من السنين كما اثبتت الحفريات اخصها حفريات جبيل القائمة على اثني عشرة طبقة متراكمة وحفريات انطلياس التي كشفت عن هيكل الصبي الذي يرجع تاريخه الى خمسة وثلاثين الف سنة ق.م.

اما قضية العنصر فليس في العالم بلد واحد صفا عنصره من اي مزيج او اختلاط . والوطن يشمل مع التاريخ والتقاليد العنصر واللغة ، التربة والسماء والماء والهواء ، اي العوامل الطبيعية التي تؤثر على تطور الشعوب .

هذه البقعة ، التي اسمها لبنان ومعناه البياض المستوحى من الثلج المكمل هامته ، قامت قبل التاريخ المدون ولا تزال . ولها تراث مستمر لم تستطع طمسه عاديّات الزمن .

لبنان والتسمية في التوراة

في الوقت الذي طفا في الغرب اللقب « احمر » على الاسم « لبنان » ظل الشرق يستعمل الاسم الاصلي ، على ما نرى في التوراة ، وهي اقدم تاريخ مكتوب يرقى مع موسى الى سنة ١٢٠٠ ق.م. ويستمر مع الانبياء الى القرن الخامس .

فقد ورد في سفر الملوك الثالث ذكر غابة لبنان بقوله : « ويحمل الملك سليمان ايضاً ثلاث مئة مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ثلاث مئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان » (ف ١٠ عد ١٧) .

وجاء في حزقيال : « هوذا اشور ارزة بلبنان ، بهيجة الافنان » (ف ٣١ عد ٣) .

وجاء في نشيد الاناشيد : « شفتاك تقطران شهداً ايته العروس وتحت لسانك عسل ولبن وعرف ثيابك كعرف لبنان » (ف ٤ عد ١١) . وجاء في هوشع : « وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون وراثته كلبنان » (ف ١٤ عد ٧) .

سفر تثنية الاشتراع : « فتحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الاموريين وكل ما يليه من القفر والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر ارض الكنعانيين ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات » (ف ١ عد ٧) . « كل موضع تطأه اخامص اقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الاقصى يكون تخمكم » (ف ١١ عد ٢٤) . يشوع : « من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين والى البحر الكبير الذي في وجهة مغارب الشمس تكون تخومكم » (ف ١ عد ٤) .

« وارض الجليلين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعد جاء
تحت جبل حرمون الى مدخل حماة » (ف ١٣ عد ٥-٦) .
« من الجبل الاملس الممتد جهة سعيير الى بعل جاد في بقعة لبنان
تحت جبل حرمون واخذ جميع ملوكها وضربهم وقتلهم » (ف ١١
عد ١٧) .

سفر الملوك الثالث: « وجميع مدن الخزن التي كانت لسليمان ومدن
المركبات ومدن الفرسان وكل ما احب سليمان ان يبني في اورشليم
ولبنان وكل ارض سلطانه » (ف ٩ عد ١٩) .
« وكانت جميع آتية شرب الملك سليمان ذهباً وجميع آتية بيت
غابة لبنان كانت من ذهب خالص لم يكن فيها فضة اذ لم تكن تحسب
شيئاً في ايام سليمان » (ف ١٠ عد ٢١) .

سفر الملوك الرابع: « قد قرعت الرب على لبنان رسلك وقلت بكثرة
مراكبي صعدت الى قمم الجبال واواخر لبنان قطعاً ارفع ارزة وخيار
سروه وداخلاً المنزل الذي في اقصاه وغابة كرمه » .
سفر اخبار الايام الثاني: « فبعث يواش ملك اسرائيل الى امضيا
ملك يهوذا قائلاً ان العوسج الذي بلبنان ارسل الى الارز الذي بلبنان
وقال زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء التي بلبنان ووطئت
العوسج » (ف ٢٥ عد ١٨) .

حزقيال: « هوذا اشور ارزة بلبنان بهيجة الافنان غيباء الظل شاحخة
القوام وقد كانت ناصيتها بارزة بين اغصان ملتفة » (ف ٣١ عد ٣) .
زكريا: « افتح يا لبنان ابوابك ولتأكل النار اركك » (ف ١١ عد ١) .
نجوم: « يزجر البحر فيجففه وينضب جميع الانهار. قد ذوى
باتان والكرمل وذبل زهر لبنان » (ف ١ عد ٤) .

هوشع: « وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون وراثته كلبنان.
فيرجع الساكنون في ظله ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم فيكون
ذكره المخمر لبنان » (ف ١٤ عد ٧-٨) .
ارميا: « هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان ام تنضب المياه

المتفجرة الباردة الجارية » (ف ١٨ عد ١٤) .
سفر الملوك الثالث: « ففتحها بنّاؤو سليمان وبنّاؤو حيرام والجليليون
وهيأوا الاخشاب والحجارة لبنان البيت » (ف ٥ عد ١٨) .
حزقيال: « شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك جلافة لخصاصك
وجميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك لترويج موسمك » (ف ٢٧
عد ٩) .

يشوع: « فاسلمهم الرب الى ايدي اسرائيل فضربوهم وتعقبوهم
الى صيدون الكبيرة ومياه مرفوت وبقعة المصفاة شرقاً وضربوهم حتى
لم يبق منهم باق » (ف ١١ عد ٨) .
ارميا: « وكل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي
في عبر البحر » (ف ٢٥ عد ٢٢) .

« وارسل بها الى ملك آدوم وملك موآب وملك بني عمّون وملك
صور وملك صيدون بأيدي الرسل القادمين الى اورشليم الى صدقيا
ملك يهوذا » (ف ٢٧ عد ٣) .

حزقيال: « سكان صيدون وارواد كانوا قذافين لك وحكماؤك
يا صور الذين فيك هم مدبروك » (ف ٢٧ عد ٨) .
« يا ابن البشر اجعل وجهك نحو صيدون وتنبأ عليها » (ف ٢٨
عد ٢١) .

« وقل هكذا قال السيد الرب هاءنذا عليك يا صيدون فسأتمجد
في وسطك فيعلمون اني انا الرب حين اجري فيها احكاماً واتقدس
فيها » (عد ٢٢) .

اعمال الرسل: « وفي اليوم الآخر وصلنا الى صيدا فعامل يوليوس
بولس برفق وأذن له ان يذهب الى اصدقائه ليحصل على عناية منهم »
(ف ٢٧ عد ٣) .

سفر الملوك الثالث: « ولم يكفه ان يسير في خطايا ياربعام بن نباط
فتزوج ايزابل بنت اتبعل ملك الصيونييين ومضى وعبد البعل وسجد
له » (ف ١٦ عد ٣١) .

في القرن الثالث عشر الى زكريا في القرن السادس ق.م.
فقد ورد في سفر يشوع قوله : فلما سمع جميع الملوك الذين في
عبر الاردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير الى مقابل
لبنان اعتصموا معاً لقتال يشوع واسرائيل (ف ٩ عد ١) .
خمسة اقطاب الفلسطينيين وجميع الكنعانيين والصيدونيين المقيمين
بجبل لبنان من جبل بعل حرمون الى مدخل حماة (سفر القضاة ف ٣
عد ٣) .

لبنان والارز

كانت غابات الارز تغطي قمم لبنان وتمتد على مساحات شاسعة
فلا تكاد تقطع اشجار في منطقة ما حتى ينبت جديد في منطقة اخرى .
وادرك الاقدمون ان لحشب الارز ميزات خاصة لا يضاهيه فيها اي
خشب آخر من متانة وليونة ولون ورائحة الى صلابة لا تؤثر فيها عوامل
الطبيعة ، الى حيوية لا تجف .
وقد مكن خشب الارز اللبنانيين من بناء السفن فكانت لهم الاساطيل
التي اثارت اعجاب الامم حتى طلب المصريون والاشوريون والفرس
اليهم ان يبنوا لهم امثالها ويعلموهم قيادتها .
وتغنت التوراة مرات بارز لبنان :
على قيثارة داود ، في اناشيد سليمان ، على اوتار ارميا واشعيا
وحزقيال ، كانت عروس الشعر لبنان وارز لبنان .
بلغ لبنان في عهده القديم من المجد ما انطق اشعيا في نبوءته بالآية
القائلة : « قد أوتيت مجد لبنان » (اشعيا ف ٣٥ عد ٢) .
وتغنى الانبياء بجمال لبنان ، فقال سليمان في « نشيد الاناشيد » :
« هلمّي معي من لبنان ايتها العروس ، معي من لبنان انظري من
رأس أمانة من رأس سنبر وحرمون من مرايض الاسود من جبال النمر »
(ف ٤ عد ٨) .
« ساقاه عمودا رخام موضوعان على قاعدتين من ابريز وطلعتاه
كلبنان هو مختار كالأرز » (ف ٥ عد ١٥) .
« عنقك كبرج من العاج وعينك كبركتي حشيون عند باب بنت
الجماعة وانفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق » (ف ٧ عدد ٤) .
« عين جنّات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان » (ف ٤ عد ١٥) .

وقال داود في مزاميره : « الصديق كالنخل يزهر ومثل أرز لبنان ينمو » (ف ٩١ عد ١٣) .

وقيل عن عظمة لبنان والارز :

« هكذا قال السيد الرب ان النسرة العظيم ذا الجناحين العظيمين الطويل القوادم الممتلئ ريشاً الكثير الالوان قد اتى لبنان وأخذ ناصية الارز » . (حزقيال ف ١٧ عد ٣) .

« في الجبل العالي اغرسه فينشئ افناناً ويثمر ثمراً ويصير ارزاً جليلاً فيأوي تحته كل طائر . كل ذي جناح يأوي في ظل اغصانه » (حزقيال ف ١٧ عد ٢٢) .

« صوت الرب يحطم الأرض يحطم الرب أرز لبنان » (المزامير ف ٢٨ عد ٥) .

« تروي اشجار الرب أرز لبنان التي غرسها » (المزامير ف ١٠٣ عد ١٦) .

« وعلى كل أرز لبنان العالي المرتفع » (اشعيا ف ٢ عد ١٣) . « واني دمرت من وجوههم الاموريين الذين مثل قامات الارز قاماتهم وصلابتهم كالبلوط ودمرت ثمارهم من فوق عروقهم من تحت » (عاموص ف ٢ عد ٩) .

« بسرو من سنير بنوا لك كل طباقك وأخذوا أرز لبنان ليصنعوا سواري عليك » (حزقيال ف ٢٧ عد ٥) .

« قد قرعت الرب على لسان عبيدك وقلت بكثرة مراكي صعدت الى قمم الجبال وأواخر لبنان قاطعاً أرزه وخيار سروه وبالغاً الى الاقصى والى غابة كرمه » . (اشعيا ف ٣٧ عد ٢٤) .

وكانت مفخرة الملوك في بناء القصور والهياكل ان يكون البناء والزينة والزخارف من خشب الارز ذي الصلابة المتينة والرائحة الزكية . واشتهر بصناعة الارز الفنانون من لبنان ، فطلب داود من ملك صور ان يرسل له الارز والصناع لبنوا له بيتاً :

« ووجه حيرام ملك صور رسلاً الى داود واخشاب أرز وبنائين

ونجارين لبنوا له بيتاً » . (اخبار الايام الاول ف ١٤ عد ١) وخشي داود ان يكون اخطأ امام الله في ابتناؤه بيتاً من أرز قبل ان يبني مثله لتابوت العهد فقال :

« ولما سكن داود في بيته قال داود لنتان النبي ها أنا مقيم في بيت من أرز وتابوت عهد الرب تحت الشقق » (ف ١٧ عد ١) .

ولم يتسنّ لداود ان يبني بيت الرب فقام ابنه سليمان ببناؤه هيكلًا عظيمًا فروى سفر الملوك الثالث بناء ذلك البيت ، قال :

« أرسل سليمان الى حيرام يقول : قد علمت ان داود أبي لم يقدر ان يبني بيتاً لاسم الرب الهه بسبب الحروب التي احاطت به . والآن فقد اراحني الرب الهه من كل الجهات . وها أنذا قد نويت ان ابني بيتاً لاسم الرب الهه كما كلم الرب داود ابي : ان ابنك الذي اقيمه مكانك على عرشك هو يبني بيتاً لاسمي .

والآن فمر بان يقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أؤديها اليك بحسب جميع ما ترسم لأنك تعلم ان ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيغونيين .

وأرسل حيرام الى سليمان وقال قد فهمت ما أرسلت به اليّ وأنا أتم مرضاتك في خشب الارز وخشب السرو .

فكان حيرام يبعث الى سليمان بخشب الارز وخشب السرو على حسب ما أراد .

فبنى البيت وأكمله وسقفه بجذوع ألواح من الارز . وبني الطباق على جوانب البيت كله سمك كل منها خمس أذرع وفرش طباق البيت بخشب أرز .

وبنى على جدران البيت من داخل ألواح أرز وصفح داخله من أرض البيت الى جوائز السقف بالخشب وفرش أرض البيت بألواح سرو . وبني في مؤخرة البيت على مسافة عشرين ذراعاً ألواح أرز من الارض الى الجوائز بناها في داخله محراباً قدس الاقداس .

وكان على البيت من داخل أرز منقوش على شكل قثاء وزهور متفتحة

كان الجميع أرزاً فلم يكن يرى حجر .
فبنى بيت غابة لبنان مئة ذراع طولاً وخمسين ذراعاً عرضاً وثلاثين
ذراعاً سمكاً بناه على أربعة صفوف من عمد الأرز وكان على العمدة جوائز
من الأرز .

وسقفه بالأرز من فوق على الغرفات الخمس والأربعين التي على
العمدة كل صف خمس عشرة غرفة .
وصنع رواق العرش حيث كان يقضي وهو رواق القضاء وصنّفه
بالأرز من الأرض إلى السقف .
ففتحها بئاًؤو سليمان وبئاًؤو حيرام والجليليون وهياًؤوا الأخشاب
والحجارة .

وكان طول المحراب عشرين ذراعاً وعرضه عشرين ذراعاً وسمكه
عشرين ذراعاً وغشاه بذهب خالص . وصنع مذبحاً من الأرز تجاه
المحراب وغشاه بذهب .
وبنى الدار الداخلية ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة وصفا من
جوائز الأرز .

ومن فوق حجارة ثمينة على قياس الحجارة المنحوتة وأرز .
وللدار الكبيرة على محيطها ثلاثة صفوف من الحجارة المنحوتة وصف
من جوائز الأرز مثل ما لدار بيت الرب الداخلية ولرواق البيت .

صعوبة تاريخ لبنان

ليس من السهل وضع تاريخ لبنان القديم ، لأنه يرجع إلى خمسة
آلاف سنة قبل الميلاد ويتصل بتاريخ الدول التي قامت في تلك الأزمنة .
لم يصل الينا عن تلك العهود تاريخ وضعه لبناني من الأقدمين . وفي ما
دونه مؤرخو اليونان والرومان التباس وغموض ، بل تحامل بصدد لبنان .
في هذا التمهيد نظرة عامة على الوضع في الشرق ثم محاولة لازالة
الالتباس وجلاء الغموض ورفع التحامل .

الوضع في الشرق

الزمان : منذ البدء حتى فتح الفرس .
النطاق : من جبال طوروس شمالاً إلى إيران مروراً بلبنان وسوريا
ومصر وبلاد ما بين النهرين إلى إيران .
المشرق المنبسط من جبال طوروس إلى وادي النيل يشمل سوريا
ولبنان وينعكف شرقاً إلى بلاد ما بين النهرين فايران . هذا المشرق كان
منذ بدء التاريخ ، لسبعة آلاف سنة خلت ، محط رحال ومطمح انظار .
النهر المتدفقة فيه — واغزرها بردى دمشق ، نيل مصر ، دجلة
والفرات — افسح طميتها على الضفتين المجال للسهول الحصبة فلجأ إليها
الانسان الاول واتيح العيش لمجموعات من قبائل وشعوب .
كان المشرق في ذلك النطاق مركزاً استراتيجياً وصلة تربط بين
آسيا وافريقيا واوربا ، فما استقوى شعب ولا قامت دولة في العالم
القديم الا وكانت السيطرة على المشرق غاية للفاتحين .
وكان اهم ما يصبو اليه الفاتح ان جاء من بين النهرين ان يصل إلى
شاطيء البحر المتوسط .

في البدء كانت القوة اساس الحكم . فاذا قويت شوكة احدهم في بلده سيطر عليها وأسس فيها ملكاً يتوارثه ابناءؤه . هكذا قامت جنوبي ما بين النهرين المدنية المملكة (سومر) ودارت في فلكها مدن اور واوروك ولاجاش .

وقامت في الشمال المدينة المملكة (اكاد) تتبعها مدن كبش واجاده وميرى .

وجاء سرجون ، وهو من سومر ، حوالي ٢٧٥٠ فاخضع المدينتين واسس امبراطورية امتدت حتى الخليج الى البحر المتوسط . وما جرى في بلاد ما بين النهرين جرى مثله في وادي النيل . وكان الناس فيه يعيشون جماعات منتشرة على ضفتي النهر ، فجاء ماناس ووحد الضفتين تحت سلطانه . واتخذ لنفسه لقب فرعون فتناقله من بعده من ولي الأمر في مصر ، واسس العائلة المالكة في الامبراطورية الاولى حوالي سنة ٣٣٥٠ ، وتوالى بعدها الامبراطورية القديمة ، فالامبراطورية الوسطى فالامبراطورية الجديدة فالامبراطورية السفلى حتى الاسكندر الكبير سنة ٣٣٣ .

لا نقصد في هذه النظرة العابرة على تلك المنطقة ان نتخبط بحوادثها الجسام طوال آلاف السنين بل نكتفي بالإشارة الى اهم ما جرى فيها . في منتصف الالف الثالث هبطت قبيلة (الغوتي) من جبال الشرق واستولت على اشور ودمرتها ، الى ان قام رجل من مدينة اوروك واثار الشعب عليها فحالفه النصر . ولم يدم ملك الغوتي اكثر من خمسين سنة . ثم جاء « الاموريون » من الغرب فاحتلوا البلاد واقاموا « بابل » عاصمة لهم (٢٢٣٧) وبعد ان انتصروا على قبائل (الايلاميين) الذين نزلوا عليهم من الشرق زحف الاموريون واحتلوا مصر وسوريا ولبنان . وظلت بلاد ما بين النهرين مسرحاً للحروب زمناً طويلاً الى ان قام رجل من اشور تصدى للاموريين وفتح بابل ثم واصل الفتوح حتى آسيا الصغرى .

ولما ظهر حمورابي (وهو من الاموريين) اصلى الاشوريين حرباً

ضروساً وانتصر عليهم . وكان له شأن عظيم في تنظيم الملك وسن الشرائع (٢٠٠٠) .

على ان اشور لم تنم على الضيم فاتيح لثاثر منها ، سميزاداد ، ان يجدد مجدها ويقتدي بالفاحين قبله حتى مد رواق سلطانه الى كابادوس وسوريا (١٩٥٠) .

في تلك الاثناء هاجر ابراهيم من مدينة اور التابعة لسومر ولجأ بقبيلته العبرانيين الى بلاد كنعان (سوريا) (٢٠٠٠) (١) .

وظهر في شمالي سوريا شعب هندو اوروبي استولى على بلاد طوروس واسس ملكاً . وجعل عاصمته هاتو (الاسكندرونة) وزحف الى ما بين النهرين واستولى على بابل ووقفت صيدا في وجهه فدمرها . اولئك الحثيون الذين كان لهم شأن كبير في المشرق (١٩٠٠) .

وفي عهد الامبراطورية المصرية الوسطى زحف من سوريا قوم من مختلف الجنسيات فاحتلوا برية سيناء وفتحوا مصر وجعلوا عاصمتهم مدينة افاريس . وقد اطلق عليهم اسم (الملوك الرعاة) (١٧٠٠ - ١٥٧٠) . وفي ايامهم كانت قصة يوسف الذي استوزره الفرعون وسهل وجوده تدفق العبرانيين على وادي النيل فظلوا فيه الى ان تمكن المصريون سنة ١٥٧٠ من اجلاء الملوك الرعاة عن بلادهم فلحق بهم العبرانيون بقيادة موسى وكان تيههم في برية سيناء اربعين سنة . ولما بلغوا سوريا تصدى لهم الفلسطينيون وحاربوهم واستولوا على تابوت العهد الذي كان يحمله العبرانيون .

بعد ان غزا الملوك الرعاة مصر ، وقد قدموا اليها من سوريا عبر برية

(١) طريق الفاتحين :

جنوباً - الى سيناء فمصر

شرقاً - جبال طوروس - قيليقيا الى البوسفور

شرقاً - الى دمشق - ما بين النهرين - الخليج - العجم - الهند

شمالاً - جبال طوروس - قيليقيا الى البوسفور

غرباً - البحر

سنة، أصبح همّ الفراعنة الأقصى ان يحولوا دون تجدد مثل ذلك الفتح فخططوا ليكون الغزو من مصر الى سوريا على الطريق عينها .
هكذا ملأت الحروب بين دول المشرق صفحات التاريخ خلال الف سنة . فزحف تحوطموس الاول على بلاد كنعان (سوريا) واحتلها . وكان اول فرعون بلغت جيوشه الفرات (١٥٥٧-١٥٠٨) .
حوالي سنة ١٤٨٠ كان الميتانيون - وهم شعب آري جاء من الشرق - قد احتل شمالي سوريا وانشأ امبراطورية امتدت حتى جبل الكرمل .
وفي موقعة مجدو ، انتصر تحوطموس الثالث على (الميتانيين) وحلفائهم فوقع الفريقان معاهدة بينهما (١٤٢٤-١٤٠٥) وتوثيقاً للروابط بين الشعبين تزوج تحوطموس الرابع اميرة ميتانية . وبلغت الامبراطورية الفرعونية ذروتها بين سنة ١٤٦٠ و ١٣٨٠ . ثم اخذت بالهبوط فتمكن (اشور بليت) للمرة الاولى من ايصال ملكه حتى الفرات (١٣٨٠ - ١٣٤١) .

وفي آسيا الصغرى استعاد الحثيون قوتهم في اواخر عهد امنيونفيس الثالث فاسترجعوا بلاد كنعان ومدوا سيطرتهم على آسيا الغربية ووقع الميتانيون تحت حكمهم (١٣٦٥) .

بين الاشوريين والحثيين وقف المصريون موقف الدفاع ، فثار عليهم الاموريون والاراميون ووقعت المعركة الكبرى بينهم في مجدو فانصر المصريون وزحف الفرعون ستي الاول الى الشمال فالتقى الحثيين للمرة الاولى وجرت بينهم مواقع كان النصر فيها للفرعون وعقب الحرب معاهدة مع الحثيين ضد اشور سنة ١٢٧٨ .

شعوب البحر

ولم تنته الحروب بين دول المشرق البرية حتى طلعت من البحر شعوب آرية جاءت من البلقان ومن شمالي البحر الاسود سنة ١٢٢٧ فانزل اسطولهم جيشاً غربي مصر ، ودامت الحرب سجالاتاً بينهم وبين الفراعنة حتى اتيج لرعمسيس الثالث ان يفوز بالنهاية على شعوب البحر

في موقعة على حدود ليبيا فاغرق اسطولهم شرقي الهرلث في بلوز ١١٩٢ . وكانت شعوب البحر قد انتصروا - خلال حروبهم - على الحثيين الذين انقطع ذكرهم حوالي سنة ١١٨٠ .
وبدأ انحطاط في مصر تحت خلفاء رعمسيس الثالث (١١٢٢ - ١٠٨٥) فعادت بلاد ما بين النهرين الى الظهور والسيطرة على يد تفلانقلاص اروي وخلفائه (١١١٥-١٠٩٣) .

وفي فلسطين اسس العبرانيون ملكاً تعاقب عليه كل من :

شاوول ١٠٢٥ - ١٩٠

داود ١٠١٠ - ٩٥٥

سليمان ٩٥٥ - ٩٣٥

ربوعان ٩٣٥

الى ان سطع نجم الامبراطورية البابلية الجديدة وعلى عرشها نبوخذنصر الاول الذي انتصر على المصريين في موقعة قرقيش (٦٠٥) واحتل اورشليم .

الجغرافيا والتاريخ

لبنان في موقعه ومناخه وتركيبه الطبيعي ميزة خاصة . فكأنه خلق لكي يكون قلعة حصينة على المتوسط . لقد هيأته العوامل الجيولوجية الفريدة لان يكون مركز التقاء الشعوب المظلومة المتعطشة الى الحرية بعيداً عن مرمى سهام البطش والاستبداد . فكم من الفرق والشيوع المسيحية والاسلامية المضطهدة وجدت فيه مقرها الآمن . وكم من ناسك نصراني او ولي مسلم ، على حد قول المقدسي ، وجد في مغاوره وكهوفه ملاذاً . وهذا ما يفسر تمازج الشعوب فيه وانصهارها ، على الزمن ، في بوتقة الولاء للارض الرحوم .

ان تسمية المنطقة التي يتوسطها لبنان عهد الانسان العاقل ليست تورية بل واقعا . فالانسان منذ ان وعى ذاته عاش في هذا الاقليم الخصب ومارس فيه تجاربه الاولى في استثمار خيرات الطبيعة ، بناء وزراعة وصناعة ومقايضة . فالادوات الحجرية التي ترقى الى جميع عصور ما قبل التاريخ والتي تظهر بوفرة في المتاحف وفي الحفريات المستمرة وخصوصاً بين ارواد جنوباً ورأس شمرا شمالاً اي على طول الساحل اللبناني القديم شواهد حيّة على ماضي هذا البلد العريق .

وقد اكتشف مؤخراً قرب نهر ادونيس آلاف الادوات التي ترجع الى حوالي مئة الف سنة ما قبل التاريخ المكتوب منها قطعتان عجيبتان هما ضرسان احدهما للانسان النيتدرتال أي قبل ٧٠٠٠٠ سنة ، والآخر الى نوع من وحيد القرن انقرض من لبنان منذ ذلك التاريخ ، وثمة ٨٠٠٠٠ قطعة منها فؤوس وادوات لتنظيف وحلج جلود الحيوان . لقد تطور الانسان العاقل في هذه المنطقة من الشرق تطوراً يكاد يكون ثورياً في انتقاله من العصر الحجري الاول الى المتوسط فالحديث

وفي قفزه من مرحلة العيش على الصيد الى مرحلة الزراعة وتربية المواشي .
وقد يكون لعامل المناخ شأنه الفاعل في هذا المجال .

لقد انتقل الانسان في تطوره في منتصف الالف الرابع ق.م. من
مرحلة التنظيم العائلي او القبلي الى مرحلة التنظيم السياسي في المدن والممالك .
وترقى أولى الحضارات في التاريخ الى عصر الكتابة (حوالي ٣٣٠٠)

وكان مركزها الاولان مصر وما بين النهرين ، بل ثمة عناصر حضارية
سومرية سبقت اكتشاف الكتابة كان مقرها تل عبيد قرب اور في جنوبي
« ما بين النهرين » وهي ترقى الى ما قبل الطوفان (٣٦٠٠) حتى (٣٤٠٠) وقد
تميزت بالادوات العظمية والحجرية واكواخ الغزار المطين والسيراميك
الملون المتقدم الصنع . وقد نقل الساميون عناصر الحضارة السومرية الى مصر .
والارجح ان نقل هذه الحضارة لم يتم عن طريق الغزو بل عن طريق
التجارة بواسطة مدينة جبيل . وبدأت الكتابة في تدوين اسماء الملوك .
لقد توحدت مصر في قطاعيها الشمالي والجنوبي درءاً لخطر المد

الاسيوي ، وكذلك تركزت شعوب ما بين النهرين بعد اقتتال عنيف فيما
بينها في بعض الحواضر واهمها سومر واكاد . وعرف هذان البلدان
مجداً كبيراً حتى كادا يكونان المجتمعين البشريين المنظمين الوحيدين
حتى فجر الالف الثالث ق.م. حتى برزت فينيقيا كمركز حضاري ثالث
حسب التسلسل التاريخي ثم فلسطين وكانت تتميز حضارة هذه
المجتمعات في بدء انطلاقها بالاستثمار الزراعي الذي كان يشد الانسان
الى الارض فتجاوز مرحلة البداوة والاكتفاء بالصيد الى مرحلة التوطن
والاستقرار فالمقايضة والتجارة ثم البناء . وكان من نتيجة ذلك انتقال
الانسان من طور العيش في المغاور الى الخيام ثم الاكواخ المبنية من الطين
ثم في البيوت المبنية من الحجر . وقد لعب مجتمع مصر وما بين النهرين
(مهد الحضارتين البابلية والاشورية) دوراً كبيراً في هذا التطور ومهدا
السبيل امام انطلاقه لبنان وفلسطين ثم سوريا . وكانت جبيل اول مدينة
فينيقية واري اول مدينة فلسطينية وقد اكتشفت فيهما اثار بيوت حجرية
واعمدة مصقولة ترجع الى حوالي الالف السابع ق.م.

المدن الفينيقية

تاريخ فينيقيا ليس في الواقع الا حصيلة تاريخ مدنها الرئيسية لان
لبنان القديم ما كان دولة موحدة بالمعنى الحديث بل مجموعة ممالك متحدة
تتعاون حيناً وتتصارع حيناً آخر . وكانت المملكة تقوم على المدينة
وضواحيها .

وفي الفصول الآتية ملخص عن تاريخ هذه المدن ابتداء باقدمها
جبيل .

عصر جبيل

جبيل او جبال ، كما ورد في الكتاب المقدس ، او كبنه كما سماها
المصريون او بيلوس كما دعاها الاغريق ، تعتبر اعرق المدن اللبنانية
تاريخاً . ذكرها معظم الانبياء وخصها سفر الملوك الاول بتنويه فريد .
ولعلها بعد اريحا اقدم مدينة في العالم . ويعتقد علماء الآثار ان تاريخ
البنيات الحجرية الضخمة التي اكتشفت في جبيل يرجع الى ٤٥٠٠ سنة
قبل المسيح . كانت جبيل صلة الوصل بين فينيقيا ومصر . وكانت التجارة
من اهم اسباب هذا الاتصال . هذه المدينة التي اعطت اسمها لأول
كتاب « بيبيل » وخلقت فيها الابجدية ، نشأت قرية صغيرة متواضعة
ثم مرت باطوار عدة ، كما يشهد تراكم الطبقات الترابية الاثنتي عشرة
من خلال الحفريات ، حتي اصبحت واحدة من ابرز مدن لبنان القديم .
تدل الأواني التي عثر عليها في جبيل على ان هذه المدينة تميزت
بصناعة معدنية خاصة انتشرت فيما بعد في حوض البحر المتوسط
كله . ومن ابرز نتاج هذه الصناعة الاسلحة النحاسية والادوات الفضية
للزينة .

ويبدو من الاكتشافات الحديثة ، ولا سيما من الهيكل الذي احتوى قرابين وتقدمات من الفراعنة ، ان علاقة جبيل الرابعة بمصر ترقى الى اسرة الملوك المصريين الثانية أي الى الالف الثالث قبل المسيح ، وربما قبل هذا التاريخ (١) . وقد ورد في آثار الاسرتين الخامسة والسادسة ذكر البواخر .

وانطلاقاً من جبيل بسطت مصر سيادتها على الشاطئ اللبناني حوالي الالف الثاني قبل المسيح ثم على فلسطين وسوريا . ونعمت هذه الشواطئ باستقلالها الذاتي تحت رعاية الفراعنة الى ان تبدلت الاحوال في اواخر عهد هؤلاء فحاولوا بسط نفوذهم بالبطش فكانت ثورات التمرد الشعبية المستمرة حتى تحقق الاستقلال التام (١١٥٠ ق.م) .

بين مصر وجبيل

اكتشف مونتي في جبيل القديمة مجموعة ادوات واشياء ثمينة ترجع الى حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وفي تلك المجموعة آنية وتمائيل بعضها مرسل من مصر تقدمت الى بعله جبيل والبعض الآخر مصنوع في جبيل كتمائيل للبقرة والدب والغزال (٢) .

وكانت التجارة نامية بين البلدين فترسل جبيل الى مصر اخشاب الأرز والسرو والصمغ والزيت والحمور وتستورد الذهب والحجارة الكريمة والنحاس والبردي للكتابة .

وكانت الصمغ تستعمل في التحنيط . واخشاب الأرز لتزيين الهياكل والمنازل .

واكتشف سنة ١٩٥٤ زورق للفرعون خوفو خليفة الفرعون سنفر ، وكان الزورق مدفوناً قرب هرم الجيزة ومصنعاً من خشب الأرز ومحفوظاً

حتى اليوم برأئته الطيبة (١) . وكانت بعله جبيل موضوع عبادة عند المصريين يرسلون اليها الهدايا والنذور حتى انهم بنوا لها هيكلًا في جبيل (٢) . وظلت العلاقات على اطيها على عهد العائلة الثانية عشرة في الالف الثاني ق.م. وكان الفراعنة يتبادلون الهدايا مع ملوك جبيل ويلقبونهم بلقب الامراء الشرفاء (٣) .

وفي حملة على بلاد ما بين النهرين طلب تحوطموس الثالث من جبيل فبنت له اسطولا نقلته الى الفرات مركبات تجرها الثيران (٤) . ومر رعمسيس الثاني في حملته على الحثيين في جبيل وقدم هدية استمالة الى ملكها .

ولم يكن المصريون يعرفون بناء السفن فسألوا جبيل ان تبني لهم اسطولا . فبنته جبيل واطلقت مصر على الاسطول اسم جبليت ، نسبة الى جبيل .

وكان في جبيل احواض لصنع السفن . وكانت غابات الأرز تغطي القمم فوق جبيل على مسافات شاسعة فيقطع الجبيليون الاشجار وينقلونها الى احواض المدينة وينون الاساطيل . كان ملاّحو جبيل اول من طاف على البحر في الشواطئ ، وقد احتلت جبيل قبرص وبنت فيها على الجهة الغربية هيكلًا للاله باخوس .

(١) حي - لبنان في التاريخ - ص ٧٩ .

(٢) جورج كونتنو ص ٣٦ .

(٣) جورج كونتنو ص ٣٦ .

(٤) فيليب حي - لبنان في التاريخ ، ص ٩٦ .

(١) في انقاص جبيل هيكل يعاصر اقدم الهياكل المصرية .

(٢) جورج كنتو ، الحضارة الفينيقية ص ١٢٠ و ١٢١ - وليون هومو ص ١٤٩ .

الحضارة في ما بين النهرين ووادي النيل وجبيل

دلت الحفريات في مصر على شبه اكيد بين آثارها القديمة وبين آثار سومر .

وقد تساءل علماء الآثار والتاريخ عن الصلة بين هذه الآثار وتلك فهل كان ذلك التشابه صدفة ام وقع في تلك العهود غزو من آسيا على مصر . ظن بعضهم انه لا يمكن التعليل بالصدفة ، وانه لا بد ان يكون وقع في ازمة لم يجهلها التاريخ غزو تدفق من آسيا على وادي النيل ونقل تلك الحضارة من سومر الى مصر .

وعالج مورر هذا الموضوع فأثبت انه لا دليل يحجز التسليم بفكرة الغزو ، بل يرى ان العلاقات التجارية كانت كافية لتفسير الشبه بين الحضارتين .

وقد جاءت الحفريات الاخيرة في جبيل تؤيد نظرية مورر باعتبار ان العلاقات التي كانت بين جبيل ووادي النيل منذ فجر التاريخ تثبت ان جبيل هي التي نقلت حضارة سومر الى مصر (١) .

ولم تقتصر تلك العلاقات على ما تقدم بل تجاوزتها الى الشؤون الدينية ، فأخذت مصر عن جبيل معتقداتها وتبنت آلهتها (٢) .
وانشأ الصوريون في منفيس هيكلًا وبنى المصريون في جبيل هيكلًا .
وكانت جبيل مدينة مقدسة يحج اليها اللبنانيون من كل صوب ،
بل كانت بوتقة تنصهر فيها الاساطير والشعائر الدينية المصرية والآسيوية كما يبدو من اسطورة ادونيس .

(١) كوتتنو ، ص ٣٨ و ٤٣ .

(٢) كوتتنو ، ص ٣٦ .

عصر صور

صيدا هي التي بنت صور حوالي ٢٧٥٠ ق.م. حسبما يقول
هيرودوتس . فأقامتها مدينتين : مدينة في البر وجزيرة في البحر يربط
بينهما رصيف انشأه احيرام في القرن العاشر ق.م. حين طمر الفوهات
بين الجزر ووسع نطاق المدينة . ولا تزال اسس الرصيف في البحر
ثابتة حتى اليوم ، وقد بلغت صور من العز ما عبر عنه النبي حزقيال
اذ مثلها وقد زاحمت الاله في جبروتها وتخيل ان الاله اراد تنكيسها ،
عبرة للبشر فقال :

« وكانت اليّ كلمة الرب قائلاً : يا ابن البشر قل لرئيس صور
هكذا قال السيد الرب ان قلبك قد طمع فقلت اني اله . وعلى عرش
اله جلست في قلب البحار . وانت بشر لا اله . ولكن جعلت قلبك
كقلب اله . فلذلك ، هكذا قال السيد الرب ، بما انك جعلت قلبك
كقلب اله لذلك ها انا اذا اجلت عليك الغرباء فيجردون سيوفهم على
بهجة حكمتك ويدنسون بهاءك وينزلونك في الهوة . فتموت موت
القتلى في قلب البحار . افقول اني اله امام الذي يذبحك وانت بشر لا
اله في يد قاتلك » .

ثارت صور على الحكم الاشوري في القرن الثامن قبل المسيح
ورغم الاسطول الضخم الذي تمكن الاشوريون من حشده لحصارها
فانها لم تستسلم ، بل قاومت خمس سنوات حتى مات الملك الاشوري
شلمنصر وفرض الملك الصوري ايلوتايلى معاهدة تحفظ سيادة المدينة
غير منقوصة .

زحف نبوخذنصر الثاني ، ملك الكلدان ، على سوريا فاكسحها
مدناً وسهولاً حتى بلغ لبنان فوقفت اسوار صور المنيعة بوجهه لا تؤخذ .

فحرب عليها حصاراً دام ثلاثة عشر عاماً اظهر اثناءها الصوريون من البسالة والاقدام والتضحية ما لا يخطر ببال . وبعد سلسلة طويلة من الاله والالتصحيات ، وبعد ان نفذت الذخائر والمؤن اضطرت المدينة العظيمة « الوقحة بمناعتها » (١) الى التسليم (٥٧٧-٥٦٤ ق.م.) (٢). وفي تلك الفاجعة يقول النبي حزقيال :

« بما ان صور قالت على اورشليم نعماً قد انكسرت مصاريع الشعوب وتحولت اليّ هانا امتلىء اما هي فقد خربت . لذلك هكذا قال السيد الرب هأنذا عليك يا صور فاصعد عليك امماً كثيرة كيما يصعد البحر امواجه فيدمرون اسوار صور ويهدمون بروجها وامحي غبارها عنها واجعلها صخراً عارياً فتصير مبسطة للشباك في وسط البحر لاني انا تكلمت ، يقول السيد الرب ، وتكون نهياً للامم . وبناتها اللاتي في الصحراء يقتلن بالسيف فيعلمون اني انا الرب لانه هكذا قال السيد الرب هأنذا اجلب على صور نبوخذنصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير فيقتل نباتك في الصحراء بالسيف ويجعل عليك مترسة ويركم عليك تلا ويرفع عليك المجنب ويلقي على اسوارك صدمات منجنيقه ويهدم بروجك بادوات حربه . ولكثرة خيله يغطي غبارها ومن صوت الفرسان والعجلات والمراكب ترتعش اسوارك اذ يدخل ابوابك دخول مدينة قد ثغرت . وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وانصاب عزتك تهبط الى الارض ويسلبون ثروتك وينهبون تجارتك وينقضون اسوارك ويهدمون بيوتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه . وابطل زجل اغانيك ، وصوت كناراتك لا يسمع من بعد . واجعلك صخراً عالياً فتكونين مبسطة شباك ولا تبين من بعد لاني انا الرب تكلمت يقول السيد الرب » .

(١) هكذا كانت تسمى

(٢) مات من أهلها ٨٠٠٠ دبيع ٣٠٠٠٠ منهم عبيداً .

« هكذا قال السيد الرب لصور اليس من صوت سقوطك اذا أنت الجرحى ووقع القتل في وسطك ترتعش الجزائر وينزل جميع رؤساء البحر عن عروشهم ويحملون ارديتهم وثياب وشيهم ويلبسون الرعدة ويجلسون على الارض ويرتعدون كل لحظة ويدهشون عليك . ويشيدون عليك بالرثاء ويقولون لك كيف هلكت ايتها المعمورة من البحار المدينة الموصوفة التي كانت ذات قوة في البحر هي وسكانها الذين القوا رعبهم على جميع ساكنيها . والآن فالجزائر ترتعد يوم سقوطك وتفزع جزائر البحر من نفيك » .

وبلغت صور ، واصلها السامي « ترور » ، ذروة مجدها بين القرنين العاشر والسابع ق.م. فكانت على حق ملكة البحار تبسط سيطرتها على امبراطورية شاسعة الاطراف تمتد من شرقي البحر المتوسط ، جنوبي جزيرة رودس ، الى البحر الايوني الى المتوسط الغربي حتى اعمدة هرقل . وقد بلغ اهلها المغرب والجزر البريطانية . واستعان الفرعون نحو الثاني باسطولها كما استعان به الفرس على اليونان .

وانطلقت من شواطئ صور جالية تقودها اليسا الى الساحل التونسي سنة ٨١٤ فبنت مدينة قرطاجة التي تحدت فيما بعد الامبراطورية الرومانية وهي في اوجها . وظلت قرطاجة قروناً طويلة تعتبر نفسها تابعة لصور فكانت كل سنة ترسل بعثة اليها حاملة الى هيكل ملقرت مقدمة توازي عشر مدخولها .

زار المؤرخ اليوناني الشهير ، هيرودوتس المعروف بأبي التاريخ ، مدينة صور في منتصف القرن السادس ق.م. وزار هيكل ملقرت ، فوجد فيه عمودين احدهما من ذهب صاف والآخر من زمرد يلعب في الظلام فينير اكدياس الهدايا والتقدمات .

عندما فتح الاسكندر المقدوني سوريا ووصل الى ابواب صور وقفت المدينة بوجهه واوفدت اليه بعض مندوبيها ليقدموا له تاجاً من ذهب ويسألوه عن حقيقة نيته تجاه صور . اجاب الاسكندر انه لا يقصد الا زيارة هيكل ملقرت ، صنو الاله هرقل الذي منه يتحدر . فرفض

جلس اعيان المدينة استقباله داخل اسوارهم . ولم يكن الاسكندر في الواقع يرمي الى زيارة معبد فحسب ، بل كان يروم السيطرة على المدينة البحرية الجبارة التي تمكنه من بسط نفوذه على البحر الابيض المتوسط كله ومن حماية ظهره من ردة اعدائه الفرس . ولما عجز الاسكندر عن دخول المدينة امر بردم البحر لانشاء طريق عريضة اليها لكن الصوريين ارسلوا غواصيهم ليعرقلوا اعمال البناء وانشأوا مراكب صغيرة محملة بالزفت والكبريت لقتلها على العمال وادواتهم .

ذات صباح اقلعت السفن من صيدون نحو صور والاسكندر كبير الأمل بتحقيق حلمه خلال ايام . لقد قاد بنفسه جناح اليمين وكلف ملك سلامين القبرصية بقيادة جناح اليسار . وكان الجيش المقدوني قد ازداد عدداً بعد انضمام اربعة آلاف مقاتل من جزر البيلوبينيز . ما كان الصوريون يتوقعون هذا الحشد البشري الرهيب ولا عدد السفن الهائل المتجه نحو مدينتهم بعزم . لكنهم لم يتخاذلوا بل ابعدوا النساء والاطفال الى قرطاجة ابنة صور وجمعوا سفنهم لكي تسد مدخل المرفأ بعد ان ضربت السفن القبرصية حوله الحصار . اما الاسكندر وقواده فتمركزوا على الشاطئ ازاء الجزيرة يرقبون المعركة الفاصلة بكل اهتمام وكان الجسر الذي اقاموه قد وصل الى الجزيرة وبلغ ارتفاع الجدار الوافي الذي رفعه المحاصرون منتي قدم .

واستبسل الصوريون في الدفاع عن ارضهم حتى ان الاسكندر كاد ييأس وراودته فكرة الرجوع عن الحصار . لكنه ادرك ان فشله يعني موته لان انتصار صور معناه الاشراف على المتوسط وابعاده عنه . فرمى بثقله في المعركة النهائية وكان الجوع قد بدأ يفعل فعله في صفوف المحاربين الصوريين . وكانت الخطة الجديدة التي عمد اليها محاصرة الجزيرة من جميع نواحيها . فقسم الاسطول الى اربع فرق تولت فرقان منها مهاجمة المرفأ وقامت الثالثة بالدوران حول الجزيرة . اما الرابعة فكانت بقيادة الاسكندر نفسه . وكانت مهمتها فتح ثغرة واسعة في السور قرب القصر الملكي . وانهارت خطوط الدفاع بعد تكرار الهجوم

واستطاع الاسكندر فتح الثغرة في السور . وانطلق منها مع رجاله الى القصر الملكي . وكانت اساطيل قبرص والمدن الحليفة تلاقي فرقة الاسكندر وتصب نيرانها على الثغرة . فانحصرت مقاومة الصوريين في بناء هيكل ملقارت ، وقد لجأ اليه عز الملك واعيان المدينة ومندوبو قرطاجة .

وحقق الاسكندر نصره . لكن هذا النصر كلفه زهرة جيشه واهم عتاده . وحقت صور ، في استسلامها ، معجزة الصمود الذي اضحى مثلاً في التاريخ القديم .

وكما نفقت صور عنها غبار الهزيمة ، بعد غزوة الاشوريين ، فاستطاع حيرام الثاني ان يدمر بعشر سفن اسطول شلمنصر البالغ ستين سفينة . وكما استطاعت ، بواسطة حلفها مع مصر ، ان تتخلص من نير اسرحلون فمنعته من دخول هيكلها ، استقوت كذلك على النكسة واستعادت في العهد الروماني شأنها وفي عهد الصليبيين مجدها الاثيل .

من اشهر ملوك صور حيرام الاول ، صديق سليمان (٩٦٩-٩٢٦) بنى اسوارها الحصينة وجعل منها ميناء في شرقي المتوسط . وايتوبعل الاول (٨٨٧-٨٥٦) الذي امتد ملكه الى بيروت .

ومن اشهر علماء مارينوس الصوري الذي اكتشف خطوط العرض والطول وخط مواقع المسافات التجارية على الخريطة وضبطها ضبطاً علمياً رياضياً في القرن الميلادي الاول . ومكسيموس معلم الامبراطور ماركوس اورليوس . ويؤكد المؤرخ سترابون ان الصوريين هم اساتذة الاغريق في علم الفلك والهندسة والحساب والملاحة .

النقد

كانت قرطاجة اول من اصدر عملة وكانت نقوداً جلدية تحمل خاتم الدولة ، ثم كان صك النقود ، فحسته صور وضبطت وزنه فصار نموذجاً يتبع وشاع في المعاملات بين الشعوب . واستمر في

فارس الدفع ، بالنقد السوري ، حتى القرن الثاني الميلادي . وكانت النقود السورية تحمل عنوان « ام قرطاجة » .

وكانت قرطاجة كذلك تؤدي العبادة لبعل صور ملقرت . اما تجارة صور فقامت على تبادل المواد الاولية ، واهمها العنبر والقصدير والمعادن والرخام والعاج ، مقابل مصنوعات مصر وما بين النهرين ، ولا سيما الانسجة الصوفية والحجارة المنحوتة والمجوهرات والاواني المزخرفة .

واهم ما اشتهرت به صناعتها الزجاجيات والمجوهرات والارجوان. وانتشرت جاليات تجارية سورية في سواحل المتوسط وانشأت لها رابطات قوية للدفاع عن حقوقها (١).

عصر صيدا او صيدون

بنيت صيدا حوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م. وكانت في الاصل مدينتين احدهما على الشاطئ والاخرى على تل يشرف على البحر . وكان لها ميناء داخلي وميناء خارجي . وكانت مساحتها تزيد قليلاً عن مساحتها اليوم .

بلغت صيدون أوجها في السيطرة على البحر في منتصف الالف الثاني (ق.م.) ، فقامت لها قواعد في جزيرتي رودس واكرت وجسراً لبحر ايجه . وكانت هذه المدينة مركزاً صناعياً عالمياً يضرب المثل بجودة مصنوعات ولا سيما بحذق الصيدونيات في تطريز القماش . وقد اشاد هوميروس بذلك الفن في ملحمتيه الالياذة والاوديسية . واشتهرت كذلك بتجارة النحاس والقصدير والزجاج الشفاف المزخرف والارجوان كما اشتهرت بمزج المعادن وصب البرونز .

عرفت صيدا بحرصها الشديد على استقلالها . كانت تقف بوجه الفاتحين وتقاومهم حتى الاستشهاد . وقد توالى الغزاة عليها من الحثيين سنة ١٨٠٦ ق.م. الى شعوب البحر الى الفلسطينيين الى الاشوريين ، الى الفرس . وقد دمر الفلسطينيون اسطول صيدا واحرقوا المدينة حوالي ١١٧٠ ق.م.

وكانت صور ، قد بدأت تلعب دورها ، فاستسلمت صيدا للاشوريين بعد مقاومة عنيدة . لكنها ثارت عليهم بعد حين فخرّبها اسرحلون سنة ٦٨١ وهدم سورها فاضطر ملكها عبد ملقرت الى الهرب . لكن الغازي الاشوري لحق به وقضى عليه واقام على المدينة حاكماً اشورياً ترويعاً لسكانها . واستطاع بعضهم النجاة من الدمار فاقاموا في المناطق المجاورة بانتظار الفرج والرجوع .

(١) ثمة وثيقة تاريخية وجهتها الرابطة السورية في بوزول سنة ١٧٤ (مرفاً قرب نابولي) الى مجلس اعيان صور تطلب تدخله لحماية حقوقها .

ثم احتل قورش الفارسي الكبير لبنان وجعل صيدا قاعدة لولايته ضمت قبرص (١) وسوريا ولبنان وجعل ملكها قائداً لاسطوله . ولما حاول الفرس ان يقيدوا حرية الصيغونين ويثقلوهم بالضرائب ثار هؤلاء عليهم وارغموهم على اعادة النظر في تصرفاتهم . في سنة ٤٩٨ ساعد الاسطول الفينيقي ، والصيغوني بنوع خاص ، الفرس على الاغريق . وكان لهم اليد الطولى في النصر . وقد نزلت حملة فينيقية في قبرص بعد ان ثارت وانحازت الى الاغريق . وبعد حرب بحرية دامت اربع سنوات انتصر الاسطول اللبناني على الاسطول الاغريقي .

في موقعة سلامين سنة ٤٨٠ قام الاسطول الفينيقي بدور بارز اذ افتتح المعركة وظل يحارب حتى النهاية . وتمكن ، رغم انهزام الاسطول الفارسي حليفه ، من عقد معاهدة صلح مع الاغريق ضمنت امتناعهم عن التعرض للبلاد الآسيوية . وما كادت صيدا تستقر بعض الوقت حتى غزاها الاسكندر من جديد .

كانت صيدا ، الى هذا ، مركزاً دينياً . وكان بعلمها الخاص اشمون ، اله الشفاء (٢) . وكانت كذلك مركزاً ثقافياً مرموقاً . ذكر المؤرخ سترابو ، وكان معاصراً للمسيح ، ان الصيغاونيين فلاسفة في علمي الفلك والحساب . وقال ان المدن اللبنانية اعظم مواطن للمعرفة . ويضرب على ذلك مثلاً بوتس الصيغاوي الذي درس معه فلسفة ارسطو وديودوتس الذي كان ، على حد قوله ، فيلسوفاً شهيراً . ثم ان زينون الصيغاوي كان على رأس المدرسة الابيقورية في اثينا وكان شيشرون نفسه يحضر مجالس تعليمه . جاء يسوع الى نواحي صيدا فاقبل اليه جمع ليسمعوا تعاليمه

وليشفوا من امراضهم . وهناك اتته امرأة تسأله ان يشفي ابنتها المجنونة ففعل على حسب ما تذكر الاناجيل . وقد بني على الموقع الذي جرت فيه هذه المعجزة كنيسة تذكارية ظلت قائمة حتى منتصف القرن الرابع عشر . وعلى بعد ميلين جنوبي صيدا ، كهف قديم ، ربما كان معهداً لعشروت يقال ان العذراء مريم اقامت تنتظر فيه قدوم ابنها الى صيدا .

(١) كانت قبرص من قبل تابعة للجيل .
(٢) عثر على هيكله سنة ١٩٠٠ خارج المدينة جنوبي النهر الاولي .

بيروت

يقول المؤرخون ان الاله الذي بنى جبيل بنى بيروت كذلك . وقد نقل عن سنكتين ان الاله ايل او عليون ، اول ملوك جبيل ، تزوج الالهة بيروت وبنى مدينة اطلق عليها اسمها .

اختلفت الآراء بصدد اسمها . ف قيل انه مشتق من شجر السرو الذي كان وافرأ فيها وحولها . وقيل انه مشتق من لفظة « ابير » الفينيقية التي تعني الشجاع . وقيل بل هو جمع كلمة بثر « بثروت » (بالعبرانية) نظراً لكثرة الآبار فيها .

نشأت بيروت مرفأً يقل شأنأً عن صور وصيدون وجبيل يوم كانت هذه المدن المرافئ في اوج شهرتها . الا انها ما لبثت ان احتلت مركزاً مرموقاً بلغ ذروته في العهد الروماني وبروز مدرسة الحقوق .

يروي كريب ، وهو احد عمال الفرعونيين على فينيقية ، ، اشياء كثيرة عن بيروت ومناخها واهمية فرضتها البحرية ولا سيما عن سفنها التي انتصرت على اسطول الاموريين ، وبنوه عامل آخر بازدهار التجارة في المدينة .

وقد تكون الثقافة ابرز ما عرفت به بيروت في جميع عهودها . حتى قبل ان تصبح «أم الشرائع» بفضل معهداتها للحقوق . وتؤكد احدى الرسائل الموجهة من ملك بيروت الى ابنه حاكم اوغاريت ان هذا المركز الشهير بأثاره الادبية والدينية ، وان لم يكن داخلاً في حدود لبنان القديم ، كان تابعاً لمدينة بيروت عينها .

طرابلس

نشأت طرابلس على شبه جزيرة فيها قسم بري وقسم بحري، وقد سكنتها في اول الامر جاليات ثلاث قدمت من صيدا وصور وارواد، وكانت المدينة تعرف في القرن الرابع باسم « اثر » كما تدل النقود القديمة في العهد الثاني قبل الميلاد. ثم اطلق عليها الاغريق فيما بعد اسم طرابلس الذي يعني المدن الثلاث باعتبار المجموعة التي تألفت منها. وترجع بقايا الحيوانات التي اكتشفت عند مدخل طرابلس في البحصاص الى العصر الحجري المتأخر، وهذا يدل على ان طرابلس من اقدم المدن اللبنانية وان وجود الانسان فيها يرقى الى أكثر من ستة آلاف سنة. وقد كان لها شأنها بحيث ان المدن اللبنانية المستقلة، كانت تعقد مؤتمرها السنوي فيها وكان يحضر هذا المؤتمر ثلاثمائة مفوض يتدارسون فيه قضايا البلاد.

وفي سنة ٣٥١ ق.م. انعقد مؤتمر عام ابدى فيه المفوضون استعدادهم لاعلان الاستقلال التام عن السلطة الفارسية. وكان لهذا المؤتمر تأثيره الايجابي، اذ بدأت الثورة اللبنانية على ارتحششتا الفارسي في الحي الصيداوي في طرابلس ومنه انتشرت في جميع السواحل بمساعدة مصر. وقد بنيت طرابلس اول ما بنيت على شبه جزيرة وقد بدأت تلعب دوراً مرموقاً منذ القرن الرابع قبل المسيح. الا ان الآثار الباقية من ذلك العهد قليلة لان الغزوات التي توالى على المدينة قضت على آثارها. فالصروح التي لا تزال قائمة ترجع الى القرون الوسطى ولكن اذا كانت آثار المدينة القديمة قد توارت فالمنطقة المحيطة بها حافلة بالآثار العريقة في القدم ومنها المعابد الثلاثة في بزيرو والسفره وناووس. (١)

(١) جورج كونتنو

في العهد الاغريقي الروماني بدأت طرابلس في التقهقر ، لكنها استمرت تتمتع بحقوقها وامتيازاتها السابقة . وقد كان لها الحق بصك نقودها الخاصة بها . وكانت هذه النقود في المدن المستقلة تحمل على احد وجهيها رمزاً لبنانياً وعلى الوجه الآخر رمزاً اسطورياً اغريقياً . الرمز اللبناني دلالة على الاستقلال الذاتي والرمز الاغريقي دلالة على وجه من وجوه الاعتراف بالحكم المقدوني . وكانت طرابلس مركزاً تجارياً صناعياً وزراعياً بارزاً .

عصر الديانات القديمة

سومر واكاد - كانت المدينتان في فجر التاريخ على بسطة من العيش وتنظيم في الحكم وممارسة الديانة . وكانتا تتناوبان ، حسب الظروف ، الاولوية .

سومر - كانت كل مدينة تعتمد لها : نيبور الهها (انليل) . لاجاش الهها (تيلو) ابن انليل . أور لها الاله القمر (ننا) - لارسا الهها اوتو الاله الشمس ابن الاله القمر . اوروك - تعبد فانوس باسم انيتا . ايريدو لها الهها انكي او ايتا . بابل الهها مردوك ابن انكي . اكاد - غيرت اكاد اسماء آلهة سومر :

اله لارسا اوتو صار اسمه (شمس) .

فينوس اوروك صار اسمها عشتار (عشتروت) حمورابي الآموري حافظ على آلهة سومر وأكاد ، على ان مردوك اله بابل اخذ الاولوية مع اعتباره ادنى من ابيه انكي . والاله الشمس املى على حمورابي القوانين .

الكسيت - لما احتل الكسيت بابل احتفظوا بآلهتها .

اشور - الاشوريون في نينول واشور العاصمتين يحتفظون بالآلهة ولكنهم كانوا يقدمون على تلك الآلهة الههم اشور .

العائلة المالكة في البابليين المحدثين - احتفظوا بالآلهة القديمة وميزوا منها الآله « نابو » ابن مردوك .

العجم - عندما فتح قوروش بابل (سنة ٥٣٩ ق.م.) احتفظ بالآلهة القديمة . التاج بالقرون على العرش يدل على اله .

الشعائر الدينية - تخيلوا الآلهة بشراً . فجعلوا لهم زوجة واولاداً وخداماً وخدامات . وجعلوا الصلة مستديمة بين الآلهة والانسان حتى

لاجاش سومر كان هذا البناء من خشب الارز الزكي الرائحة . ويعتقدون ان هذا البناء الخاص كان لمدافن الملوك ومنها برج بابل . وقيل فيه ان الكهنة كانوا يصعدون الى اعلاه ليراقبوا سير الكواكب والنجوم . وكان على جوانب الهيكل من الداخل تماثيل تمثل الآلهة والملوك . المذبح - كان المذبح عبارة عن طاولة خاصة بالتقدمة .

جعلوا لكل انسان الهه والهة الحامية بشكل الملوك المرافق . واعتبروا ان الآلهة هم رجال متفوقون وان الآلهات هن نساء متفوقات . الملوك الآلهة - وتخلوا آلهة اولئك الذين بنوا المدن واسسوا الممالك ، امثال ايتانا الملك الذي صعد الى السماوات . ولوجلباندا وجلجامش وهما من العائلة المالكة في اوروك بعد الطوفان حصلا بعد الوفاة على الاحتفالات الخاصة بالآلهة . اله السماء - آن - انو - انون . اعطي هذا الاله صفات عديدة : عشتار بنت انو . اله الارض - انليل اله سومر . اله المياه - انكي - ايا وهو الاله الثالث من الثلاث . ايا خلق الانسان ، له امرأة نينكي . اله جهنم - نرجال .

آلهة الكواكب

الاله القمر - سين - وهو الاله ننا اله اور . الاله الشمس - شمس وهو اله لارسا في سومر . من خصائص الاله الشمس : اله العدل واله العرافة . النجمة فينوس - ايننا او عشتار . ولها عباداتها في سومر واكاد وبابل واشور وقد لحقت هذه العبادة الفاتحين في فتوحاتهم . الكهنة - كان الكاهن مخصصاً بان يكون الواسطة بين الانسان والاله فيقوم بالشعائر الدينية . وفي البدء كان الملك هو الحبر الاعظم . ثم تنازل الملك الى الكهنة . وكان من حق الكاهن ان يعيش من المذبح . وكان في خدمة المذبح مرتلون وموسيقيون . وكان من النساء كاهنات . الشعائر - قبل البدء بممارسة الشعائر كان على القائم بها ان يغسل يديه . ثم تقدم المائدة . الهياكل - الهياكل قصر الاله . والى جانب القصر بناء سرّي . وفي

الديانات القديمة في لبنان

كانت عبادة الرعاة للقمر اولى العبادات في هذا الشرق واقربها الى الحلم الشعري . فملك الليل في الصحراء يضيء على السكون خشوعاً ويبرز حارساً اميناً من الغدر في الظلام . لكن اولى العبادات المركزة بدأت بالشمس حين جعل الانسان يستثمر خيرات الطبيعة ويدرك علاقة الشمس بنمو الزرع . ثم جاءت الارض من حيث انها تكمل مهمة الشمس في اثارة الخصب . وقد جسد تموز اولا ثم ادونيس كلا من هاتين العبادتين .

يقول المؤرخ كونتينو في كتابه « الحضارة الفينيقية » ان العبادات لدى الامم العريقة كالمصريين والاشوريين والبابليين والفينيقيين كانت العمود الفقري للمجتمع . لذلك كانت الطقوس الدينية تستأثر باهتمام الناس . ولا غرو فمئذ استقر الانسان على الارض وبدأ يستثمرها مطمئناً الى غذائه راح يتطلع الى ابعد من الواقع ، الى مصادر الخصب ، الى الشمس والارض ، والماء (الى النيل ودجلة والفرات) اي الى الوجه الايجابي من القوة المسيطرة على الطبيعة . وكان من قبل لا ينظر الا الى الوجه السلبي ، الى الصاعقة التي تورث الدمار .

هذا التطلع الى ما وراء الواقع جعل الديانات اساساً في بناء المجتمع بقدر ما جعلها مصدر وحي فني .

وقد نشأت الفكرة الدينية الاسطورية لدى الكنعانيين منذ الالف الرابع (١) وهم بعد في طور بداوة . فما ان انتظم مجتمعهم في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م. حتى بدأت ديانتهم تتخذ لها طابعاً خاصاً .

(١) كانت منتشرة على شواطئ النيل والفرات .

كانت مياه النيل والفرات تؤمن الخصب لمصر وسومر . اما بلاد كنعان فكان الخصب فيها مرهوناً بالمطر . ومن هنا كان لعناصر الفلك من الشمس الى الرياح الى الماء الى القمر واثرها على الفصول مركزها في ميتولوجية الشعب . وقد تنظمت هذه الميتولوجية بشكل تسلسلي . فكان لكل اله دوره ومقامه : ايل في قمة الهرم . هو اله الآلهة وملك الملوك ومصدر السلطة والرحمة والحكمة يعاونه مجلس اختصاصيين من الآلهة كمستشارين .

بعد ان تطور المجتمع تطورت النظرة الى الآلهة وانعكست الآية . صار الانسان يتأله بعد ان كان الاله يتأنس . فالابطال ، بناء المدن والممالك ، صاروا آلهة .

رأى اللبنانيون القدامى ان افضل طريقة لكسب عطف الآلهة هي العدالة الاجتماعية . فنظموا مجتمعهم على غرار المجتمع الميتولوجي السماوي بحيث ان المدن الفينيقية اضحت نماذج مصغرة للملكيات الدستورية في مفهومنا الحديث . وفي هذه النظرة التفصيلية الى الديانة الفينيقية وطقوسها ما يلقي اضواء على تنظيم المجتمع .

الآلهة في فينيقيا

يرتكز هيكل الآلهة في فينيقيا على اساسين : مذكر ومؤنث ، كان ثمة اله كبير والهة كبيرة وحولهما آلهة دونهما مقاماً وقوة وسلطاناً .

(ايل) - وهو آب الالهة (جمعه الويم)

(بعل) - معناه السيد ، (جمعه بعلين ، ومؤنثه بعلت)

(اليان) - وهو ابن بعل ، واخته آنات .

(مت) - اخ اليان ، ولكل منهما اختصاص : « اليان » يشرف على

الينابيع وينبت الزرع .

(مت) يرعى الحصاد ويشرف على راحة الارض . « اليان ومت »

يمثلان تعاقب الفصلين في السنة : فصل الحرث والزرع ، وفصل الحصاد .

(شباش) او الشمس - الهة النور .

(اشمون) ، ادونيس ، عشتروت .

ملقرت - كلمة مركبة من (ملك وقره) اي ملك القرية .

وكان لكل مدينة الهها الخاص . ولكل اله هيكله .

ملقرت صور ، اشمون صيدون ، بعلة بيروت ، ادونيس بعل جبيل وعشتروت بعلتها .

في كل هيكل رجال الدين - واسمهم (كهانين) وعلى رأسهم كاهن يحمل لقب رب ، اي رئيس .

وكان « الكهانين » يقومون بالرتب الدينية اخصها رتبة التضحية ورتبة النضح .

رتبة النضح تقدم لانثى الآلهة ، فينضحون امامها الزيت والحليب والحرر .

رتبة الذبيحة تقدم للذكور من الآلهة ، ولكل ذبيح مقام : الفدان ، فالعجل ، فالغزال ، فالكبش ، فالخروف ، فالجدي ، فالطيور ، فالحبوب .

وكان لكل ذبيحة اجر : فعن الثور عشرة فضة وقطعة من الثور . ويتدنى الاجر حتى يصل الى ثلاثة ارباع الفضة عن الطير .

وكانوا ينيرون في الهيكل (شعلة دائمة) يوقدها الكاهن مخلوق الرأس .

وكانوا يقيمون الاعياد ويحيون الحفلات للآلهة . واشهر حفلاتهم تلك التي كانت تقام على ذكر ادونيس : كانت الحفلة تقام في افقا ، في فصل الصيف ، يأتون اليها من جبيل ومن سائر الانحاء اللبنانية فيسيرون ارتالا ارتالا بشكل زياح صاعد الى قمة الجبل ويقفون في محطات منتشرة على الطريق تمثل كل محطة منها مرحلة من مراحل الصيد التي قطعها ادونيس .

في تلك الاعياد كانوا يصنعون تماثيل صغيرة من اجر او شمع تمثل ادونيس ويصفونونها صفوفاً صفوفاً على مدخل الهيكل وعلى

سطوحهم ، فيجتمع حولها النساء مولولات ويرقصن رقصاً على وقع اغنيات محزنة .

وكانوا يضعون في الصحن قبضة من التراب يرشون فيها قليلاً من الحبوب التي تنبت خلال ايام وتذبل بعدها اشارة الى شباب ادونيس الداوي وهو في ريعان الصبا .

وكان العيد يدوم ثلاثة ايام ، ففي اليوم الاول يعيدون فرحين وتقدم المآكل الشهية والفاكهة اللذيذة . وفي اليوم الثاني حزن في جنازة ادونيس . وفي اليوم الثالث ابتهاج بقيامته .

الاعتقاد بحياة بعد الموت

كانوا يعتقدون ان بعد الموت يفتح للنفس حياة جديدة ، وتبقى على صلة بالجسد التي فارقت .

على هذا الاعتقاد كانوا يدفنون الميت ومعه اسلحته وآنية ، واطعمة ، وادوات للاستعمال . وكان هذا دافعاً لاتقان بناء المدافن .

وكانوا يسمون المدافن بيوت الاستراحة او بيوت الابدية ، وكانوا يحفرون لها في الارض عميقاً . فلا يصل اليها اللصوص .

وقد ورد في مدفن احيرام كتابة تقول :

« ايتو بعل ابن احيرام ملك جبيل بنى هذا الضريح لابيه احيرام بيتاً للابدية . كل ملك بين الملوك او حاكم بين الحكماء يزحف على جبيل يكشف هذا الضريح يكسر صولجانه ويقوض عرش ملكه ويخيم السلام على جبيل . ومن تجرأ على ازالة هذه الكتابة يكون مقره الجحيم » .

الرابطة الدينية

كانت الرابطة الدينية تربط بين اللبنانيين (الفينيقيين في لبنان) والجاليات . وكما كانوا يحجون الى جبيل وافقا ، هكذا كانوا يحجون الى صور لتقديم الذبائح الى الاله ملقرت .

وكان الملك يمثل الاله . وكان واسطة بين الاله وبين الرعية . من اهتهم « ايل » و « دوموزي »

وكان اللجوء الى الاله بواسطة الضحايا والتقدمات والصلوات . وكانت تعرف ارادة الاله بمظاهرها في الاحلام او بوحياها الى العرافة . وكان للهيكल ادارة خاصة يقوم بها كهنة الهيكل .

الحكم في المدن الفينيقية

كان القاضي الاول في المدن الفينيقية يعتبر ملكاً ، ويحكم بحق الهي فيضمن استقرار الملك وابقائه ارثاً لبنيه من بعده . ولكن حكمه لم يكن مطلقاً . عوامل كثيرة كانت تحد من سلطته . اهمها وجود ارسقراطية التجار واصحاب المال ، وفئة الملاحين الكبار وقباطنة المراكب الذين كانوا يؤلفون جماعة لها نفوذها واحترامها فضلاً عن وجود مجلس الشيوخ . وقد عرفت جبيل مثل هذا المجلس منذ اقدم العهود (١) . وكان للملك اوغاريت ٧٠ مشيراً من الاشراف . واثناء الحكم الفارسي كان مجلس الشيوخ في صيدا يتألف من ١٠٠ رجل (٢) وكان لصور مجلس مماثل . وكان على كل مدينة ملك من عائلة تنتسب الى الآلهة والى جنب الملك مجلس شيوخ مؤلف من اشراف المدينة واثريائها . وكان لكبير الكهنة مقام عال فيه . وكانت سلطته تعادل سلطة الملك . وكان عدد اعضاء المجلس في المدن الكبيرة مائة .

تداولت المرتبة الاولى بين المدن - حسب الازمنة - صور وصيدون وجبيل .

كل مدينة كانت على استقلال داخلي . الا انها كانت اذا دهم عدوا احداها اتحدت وتحالفت في الدفاع . الا اذا تعذر الامر عليها في احداث خارقة .

(١) راجع سفر حزقيال : ٩ « شيوخ جبيل » .

(٢) Diodorus Siculus History BK. XVI ch. 45, sec. I.

أنشأت صو وصيدا وجبيل وبيروت وطرابلس « مجلس اتحاد وطني »
كان يجتمع في طرابلس كلما دعت الحاجة الى اجتماعه . انشئ قبله
اتحاد ضم ارواد وصور وصيدون بقيادة هذه المدينة لمواجهة الفاتحين.

الادب الفينيقي

اذا كان الفنيقيون قد اشتهروا في انواع كثيرة من الفن ولاسيما
الفن الزخرفي والبناء وفي حقول علمية كثيرة ، فان شهرتهم لم تكن
اقل في حقل الآداب ، لا سيما وانهم اكتشفوا الابجدية . الا ان الآثار
الفنية والعلمية بقيت لها شواهد حية بينما الآثار الادبية كادت
تندرس لولا اكتشافات رأس شمرا - اوغاريت - في هذا القرن .
لقد برهنت هذه الاكتشافات على ان للفنيين شعراء وكتاباً
من الطراز الاول لا سيما في اللون الملحمي او الغناء الاسطوري
تمجيداً لآلهتهم وابطالهم وان اليونان والرومان قد اخذوا عنهم اشياء
كثيرة في آدابهم وملاحمهم . وقد بين النقاد المعاصرون ان هوميروس
امير شعراء اليونان الاقدمين صاحب الاللياذة والاوديسيه اي الملحمتين اللتين
يتغنى فيهما بمآثر آلهة الهلادة وابطالها قد تتلمذ على الشعر الملحمي
الفينيقي ونسج على منواله .

ومن ابرز ما اظهرته حفريات اوغاريت آثار الشاعر تابيون والمؤرخ
سكانياتون (عبر فيلون الجبيلي) في الالف الثاني قبل الميلاد وملحمة
البعل وعليان القائمة على الصراع بين اله الصيف واله الشتاء وملحمة
صراع كرت ملك صيدون ، وفي النثر بحوثاً علمية منها ما يتناول
امراض الحيول وطرق معالجتها . وفيما يلي فقرات من قصيدة كرت
ملك الصيدونيين :

قوض اركان الحصن الذي هو منزلك ... ان ذريته ستنقرض ...
عندئذ يدخل غرفته
وهو يبكي مردداً رسالتي ال
ويذرف الدموع

فتساقط تلك الدموع مثقلة كالأجيال

حتى الثرى

وينام ذارفاً دموعه

ان اضطراب الهجعة يقلقه

فيصعد الى السطح

وفي الحلم ينزل عليه ال خبرا سارا

— قال — « انا هو ابو البشرية »

خذ عصفور التضحية

اسكب الخمر في كأس من فضة

والعسل في كأس من ذهب

اصعد الى قمة البرج

ارفع يداك الى السماء

اسجد لبعل وقدم له ضحيتك

وابن داجون وقدم له احسن صيدك

وتيره يطلع القمر البريد

لاجل نيكار حبيته

مثل الجراد تملأون السهول.

واسهم اللبنانيون اسهاماً مرموقاً في الفلسفة اليونانية في العهد الواقع بين فتح الاسكندر وفتح الرومان فأسس زينون المدرسة الفلسفية الرواقية وقسم الفلسفة الى فروع ثلاثة متكاملة هي المنطق وعلم الطبيعة والماورائيات ومن اشهر اثاره : المبادئ الجمهورية .

وسار على تقليده بيوتس الصيدوني الى ان نشأ زينون آخر في صيدا كان له اثره الفعال في تطوير المذهب الابيقوري . وفي سنة ٢١٠ ق.م. تولى ديودورس الصوري زمام المدرسة المشائية في اثينا نفسها. واشتهر في حقل الادب الهزلي انتباتر الصيدوني وفي حقل التاريخ فيلون الجبيلي .

اما في حقل العلوم فقد نبغ عدد وافر من ابرزهم موخوس الصيدوني

الذي اكتشف قبل ديمقريط مفهوم الذرة .

وكان لهم يد كبرى في تطوير علوم علم الفلك والهندسة والحساب وفن الملاحة وفي تلقينها لليونان .

اسرة قدموس المالكة في طيبه

الجد الاعلى اشنار ملك صور .

اشنار ولد قدموس وعربا .

قدموس ولد بوليدور .

بوليدور ولد لبداكوس .

لبداكوس ولد لايوس .

لايوس اعتلى عرش طيبه واقرن بجوكاست بنت منيسيس .

اخو جوكاست كريون .

لايوس وجوكاست رزقا ولداً دعياه اوديب .

واوديب وجوكاست رزقا ولداً دعياه بولينيس وابنة دعيها

انتيفون .

الاسطورة

روت الاسطورة ان الآلهة حذروا لايوس ملك طيبه من ان ينجب بنين يخلفونه على العرش . وهددوه اذا جاءه ولد ان هذا الولد يقتل اباه ويتزوج امه .

وبالرغم من هذا التحذير انجب لايوس وامرأته جوكاست ولداً. ولما صحا لايوس وتذكر تهديد الآلهة راعه ان يبقى ابنه حياً فيتحقق تهديد الآلهة فجاء به وثقب كعبيه ليتسنى حمله كالطريدة وسلّمه الى احد عبيده ليلقيه في مضيق جبل سيترون على حدود بيوثيا والاتيكا .

على ان العبد تملكته الرأفة فبدلاً من ان يرمي الولد في سفح الجبل اعطاه راعياً من كورنتيا فحمله الراعي الى مليكها بوليب الذي لم يكن رزق ولداً . فأخذته الملك واعتنى به كما يعتني الاب بابنه محتفظاً له

باسم اوديب او « ذي الرجلين المثقوبتين » .
وبعد ان شبّ اوديب اتصل به صدى شائعة انه ليس ابن الملك
فقصده الى دلفوس ليسأل الاله ابولونيوس ان يطلعه على الحقيقة .
وفي الوقت عينه كان لا يوس قد سمع بان ابنه اوديب بقي حياً
فذهب هو ايضاً الى دلفوس ليسأل عن مصير ابنه .
وشاءت الصدفة ان يلتقي على مفرق في الطريق لا يوس واوديب
وتشاجرا على الممر وفي اثناء المشاجرة طعن اوديب لا يوس فقتله وهو
لا يعرف من قتل .

وهجر اوديب كورنتيا الى طيبه حين كان الوحش المدعو (سفنكس)
يسدّ الطريق على القادمين الى طيبه وبطرح عليهم لغزاً ويفترس كل
من لا يحلّه، وهكذا قتل الكثيرين من ابناء طيبه الى ان جاء اوديب
فاستوقفه الوحش وطرح اللغز فحلّه اوديب وقتل الوحش ونجت طيبه.
واستقبلت المدينة اوديب استقبال الفاتحين ونصّبه ملكاً عليها . واقرن
اوديب الملك بجوكاست ارملة الملك السابق لا يوس وهو لا يعرفها .
فأنجبا ولدين هما ايتيوكل وبولينيس وبتين ايسمان وانتيغون .
في تلك الاثناء نزلت المصائب بمدينة طيبه حتى ضجّ الشعب .
واستصرخ الملك اوديب لينجيه هذه المرة كما نجاه من الوحش . فارسل
اوديب كريون اخ امرأته الى دلفوس يستفتي الاله . فرجع كريون
بالجواب ان على المدينة ان تثار من قاتل ملكها السابق لا يوس .

فأخذ الملك اوديب ومعاونوه يحققون ويفتشون حتى انتهى بهم
الامر الى ان عرف اوديب ان الرجل الذي قتله على الطريق وهو لا يعرفه
كان الملك لا يوس . وعرف ان لا يوس هو ابوه وان جوكاست هي امه .
فصعق اوديب ، انه قتل اباه واقرن بوالدته رريعت جوكاست انها
تزوجت ابنها فشنت نفسها وفقاً اوديب عينيه وترك الملك وراح
يطوف البلاد فقيراً مستعطياً .

على هذه الاسطورة بنى صوفو كل مسرحيته « اوديب الملك »
ونظم اوروبيد مسرحيته « الفينيقيات » .

قدموس وفتح أوروبا

حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م. خرجت من صور الى البحر جالية بقيادة
قدموس فاحتل فريق منها جزيرة قبرص وفريق جزيرة رودوس ونزل
فريق ثالث في جزيرة كريت واستوطنها وأسس فيها ملكاً كان على رأسه
الملك مينوس .

وواصل الباقيون طوافهم حتى نزلوا على خليج كورنتيا في منطقة
بيوسيا، وهناك استقر بهم المقام فبنوا المدينة العاصمة « طيبة » ذات
الابواب السبعة وشيدوا فيها قلعة دعوها (قدما) على اسم قائدهم
قدموس .

وكانت تسكن في تلك المنطقة جماعات بدائية من الاغريق .
فأسس قدموس مملكة بيوسيا وكان اول ملك عليها . ثم توارث
الملك بعده عائلة مالكة : ابناءؤه واحفاده ومنهم (اوديب الملك) .
في تلك البلاد فتح الصوريون الطرقات وشادوا المنازل والقصور
والهيكل وبنوا المدن وفتحوا المدارس وعلموا الاهالي الزراعة والصناعة
ودربوهم في صناعة السفن .

وامتد الملك شمالاً فاحتل الصوريون البلاد حتى ايليريا (مقدونيا
والبانيا) . وممرت مئات السنين فنال خلالها الاغريق على يد الصوريين
قسماً وافراً من العلم والحضارة ونبع منهم كتّاب وشعراء - خصوصاً
في « اثينا » ومقاطعة « الاتيك » وقد امتازوا بسعة الخيال فجعلوا
للاحداث التاريخية اساطير نظموا فيها القصائد والملاحم (١)

(١) يقول الشاعر اشخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦ ق.م.) ابو فن المساة اليونانية ان
قدموس وشعبه وجهوا الاغريق شطر الثقافة .

وكان ما تناقلته السنة الليالي عن قدوم قدموس ورفاقه وفتح البلاد وتعميرها موضوع اسطورة تداولها الاغريق اجيالاً .

اسطورة عربا وقدموس

روت الاسطورة انه في قديم الزمان كان ملك في فينيقيا اسمه اجنور (اشنار) وله ابنة رائعة الجمال اسمها (عربا) وان الفتاة راحت ورفيقات لها تتنزه على شاطئ البحر ، فاذا بكبير الآلهة (زفس) تقع عينه على الاميرة الحسنة فيحبها ويمسح نفسه ثوراً ويقترب منها وفي لحظة خاطفة يحملها على ظهره ويهرول بها الى البحر . وما كادت الرفيقات يشعن بما جرى حتى كان الثور - وعربا على ظهره - قد بلغ عرض البحر وغاب عن الانظار . فرجعت الرفيقات يخبرن الملك بما حدث .

والاسطورة تقسم الرواية ستة فصول :
الفصل الاول يمثل الاله (زفس) حاملاً على ظهره عربا يقطع بها البحر .

الفصل الثاني - ينزل (زفس) في جزيرة كريت ، وهناك يظهر بشكل انسان ويستهووي عربا ويعقد زواجه عليها ويقيم على شرفها مهرجاناً ، ثم يرزق منها ثلاثة اولاد بكرهم (مينوس) الذي اصبح ملكاً على جزيرة كريت .

في الفصل الثالث : عندما علم الملك (اشنار) بخطف ابنته هاج وحزن فأمر ابنه قدموس بأن يجهز الرجال والاعوان ويذهب بهم للتفتيش عن اخته .

يبحر قدموس ورجاله في اثر عربا .

مروا في الجزر - على طريقهم - فلم يجدوها .

واصلوا السير حتى بلغوا اليابسة في (بيوسيا) الواقعة على كتف خليج كورنتيا . ويش قدموس من العثور على اخته فاقام ورجاله في تلك المنطقة واستوطنوها وبنوا فيها مدينة (طيبة) وقلعة اطلقوا عليها اسم

قدما ، المشتقة من قدموس .

وفي الفصل الرابع : تروي الاسطورة ان تيناً هاجم قدموس فقتله ونثر اسنانه على الارض فأبنت الاسنان رجالاً مسلحين عينهم قدموس نبلاء في مجلس طيبه .

وفي الفصل الخامس يدخل قدموس في عبادة الاله (اريس) ويتزوج من ابنته وتأتيه من الآلهة هدايا فاخرة . وتخلد لذكرى اخته اطلق على القارة كلها اسم عربا (ومنها اوروبا) .

في الفصل السادس - يوغل رجال قدموس في احتلال تلك البلاد حتى اقصى الشمال في ايليريا على اسم ابنه ايليروس .

قدموس

في اساطير الاغريق التي اتصلت بالقرن الخامس قبل الميلاد ان قدموس جاء الى بلادهم من شواطئ فينيقيا وبنى على مضيق كورنتيا مدينة طيبه وأسس فيها ملكاً توارثه ابناؤه جيلاً بعد جيل من بوليدور الى لبداكوس الى لايبوس .

وان الملك لايبوس اقترن بابنة ماناساس المدعوة جوكاست . وان الاله فوابوس حذر على الملك لايبوس ان ينشئ نسلًا له من امرأته جوكاست ، واذا خالف الحظر ورزق ولداً فهذا الولد يقتل اباه ويقترن بأمه . وان الملك لايبوس في ساعة سكرى استسلم لهواه فاصبحت امرأته جوكاست حبل ورزقت ولداً .

وان الملك لايبوس خشي غضب الاله وتنفيذ وعوده فثقب كعبي ابنه وعلقه بخيط كما يعلق الطائر وكلف عبداً له ان يرمي الولد في ضاحية المدينة . وان العبد رقى قلبه على الولد وبدلاً من ان يرميه فريسة للحيوانات اعطاه الى راع من رعاة ملك كورنتيا والراعي حمل الولد الى ملك كورنتيا فتبناه الملك وسماه « اوديب » ومعنى الكلمة في لغتهم مثقوب الكعبين .

مسرقيات سوفوكل وأوروييد

مسرحية سوفوكل - تشرح المسرحية كيف توصل اوديب الى اكتشاف الحقيقة وكيف انه بعد ان فقأ عينيه وترك الملك فرض على نفسه عقوبة ان يطوف في البلاد تائهاً شحاذاً يستعطي .

مسرحية أوروييد (وعنوانها الفينيقيات) - تشرح المسرحية الصلة المستديمة بين القدموسيين والوطن الام صور ، وكيف ان صور ارسلت الى احفادها في بلاد الاغريق زهرة فتياتها لمزار الالهة فوابوس (ابولون) .

في الرواية مشهد يمثل جوقة مؤلفة من خمس عشرة فتاة بلباسهن الشرقي ، وتقول الجوقة : « تركت مياه صور وغادرت الجزيرة الفينيقية في مقدمة الى الاله فوابوس (شعر ٢٠٠ - ٢٠٤) ان ابناء وطني قد اختاروني كأجمل هدية الى لوكسيساس فجئت الى بلاد القدموسيين الى اسوار مدينة لايبوس حيث شعبها ينتسب الى ابناء اثنار المشهورين ... ونحن نشارك هذه البلاد في احزانها وهي ارض فينيقية فان دمماً واحداً يجمع بيننا ، فاشنار هو الجد الجامع لاهل طيبه وللفينيقيين وهو حفيد ايبانوس ابن الاله زوش والالهة ايو » (اشعار ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٤٠) . وفي الشعر ٢٧٩ يسأل بولينيس الجوقة قائلاً : « ايتها الغريبات من انتن ؟ ومن اي وطن جئن الى منزل اغريقي » .

فتجيب رئيسة الجوقة : « ان فينيقية هي الوطن الذي غذاني . واولاد اثنار ارسلوني الى هنا مقدمة الى الاله فوابوس ... وانت من انت ؟ » .

بولينيس : « انا ابي اوديب ابن لايبوس . وامي هي جوكاست بنت منسيس والشعب في طيبه يسميني بولينيس » .

عندئذ ترقع الجوقة امام بولينيس وتقول الرئيسة : « يا قريب ابناء اثنار اسيادي الذين ارسلوني الى هنا اركع امامك ايها السيد كما تقضي به عادة بلادتي » .

وان اوديب ربي في حجر ملك كورنتيا وهو يعتبره اباه الى ان سمع يوماً في همس رفاق انه ليس ابن الملك فسار الى العرافة دلفوس يسألها ان تصدقه الخبر . وان في الوقت عينه كان الملك لايبوس في طيبه قد سمع بان ابنه حي يرزق فذهب هو ايضاً الى دلفوس .

فالتقى اوديب بالملك لايبوس على الطريق ولا يعرف احدهما الآخر فتزاحما على الممر وتشاجرا وقتل اوديب لايبوس وهو يجهل انه ابوه . وان مصائب نزلت بمدينة طيبه وان اوديب اتبع له ان يخلص المدينة ، فنادت به ملكاً عليها وتزوج بارملة لايبوس جوكاست وهو لا يعرف انها امه ورزق منها ولدين سماهما تيوكل وبولينيس ، وابنتين سماهما اسمين وانتيجون .

وان نتيجة البحث عن قاتل الملك لايبوس ثبت لاوديب انه هو القاتل فعرف انه قتل اباه وتزوج امه ، ففقأ عينيه ومضى في البلاد هائماً على وجهه ورافقه ابنته انتيجون . وانتحرت جوكاست . تلك خلاصة الاسطورة .

وعليها بنى شعراؤهم مسرحيات وضع احداها الشاعر اوروييد بعنوان « الفينيقيات » في القرن الخامس ق.م .

اخذنا هذه الرواية لما فيها من اثبات لحوادث تناقلها الاغريق اجيالا وقروناً فالقت الاضواء على تاريخ لبنان القديم في بلاد الاغريق .

وحصيلة تلك الحوادث ، ان قدموس ابن اثنار ملك صور جاء ورفاقه الى بلاد « بيوسيا » فاسسوا مدينة « طيبة » عاصمة لها ، وقام قدموس ملكاً عليها ، وبني لها قلعة حصينة دعاها باسمه « قدما » (١)

وان قدموس اسس عائلة مالكة توالى على الحكم في طيبه اجيالا حتى اتصل الحكم باوديب الملك الذي اصبح موضوع مسرحيات كثيرة بدأها الاغريق ولم تنته حتى يومنا هذا .

(١) وامتد الاحتلال الى البانيا على بحر الادرياتيك وجرى تأسيس العائلة المالكة فيها .

جوكاست تدخل الى المسرح وتقول : « عندما سمعت اللهجة
الفينيقية ايتها الفتيات حملتني اليكن رجلاي الضعيفتان » (اشعار ٦٤٠ -
٦٩٠) .

تذكر المسرحية في الشعر ٨٢٥ وما يليه : « ان الاله ايو ولد
ملوك القدموسيين . وبعد ان توالى على المدينة ايام مجد تعد بالالوف
صعدت الى ذروة التيجان الحربية » .

وفي الشعر ١٣٧٥ ذكر للابواق الصورية التي اخترعها الاتروسك
بعد حرب طرواده . وفي الحاشية تحت الشعر (١٤٩٠) ان انتيجون بنت
اوديب فكّت زر قميصها على الكتف وتركتها تهدل على خصرها
فأبرزت صدرها عارياً دليل تفجعها (١) بعد ان طرد خالها كريون
اباها اوديب فوافقت اباها (شعر ١٧٦٠) .

وبعد ان تعرف جوكاست حقيقة مقتل زوجها لايوس واقرانها
بولدها اوديب تخاطب الشمس التي انزلت بهم الفواجع بدخول قدموس
تلك البلاد فتقول : « وانت التي بين النجوم تخططين الطريق في السماء ،
انت المعتلية مركبة من ذهب ايتها الشمس التي تجعلين خيولك الراكضة
تطوف بالشفلة حول العالم ، اي شعاع تعاسة ارسلته على (طيبة)
يوم دخل قدموس هذه الارض بعد ان غادر ساحل فينيقيا البحري » .
(اشعار ٤٠٦ و ٤١١) .

الهجرة الفينيقية الاولى : اتروريا ومدنها

اتروريا هي توسكانا الحالية ، في ايطاليا الوسطى ، امتدت في
الماضي على طول شواطئ البحر السوري . وانتشرت في سهول نهر
« البو » حتى بلغت شمالا سفوح جبال الالب . وكانت جزيرة الباجية
الشرقية من جزيرة كورسيكا في نطاق الدولة الاثروورية .

وامتد الاتروسك في المتوسط الى ما وراء اعمدة هرقل ، بعد ان
احتلوا كورسيكا وسردينيا وجزر الباليار وانشأوا جاليات في سردينيا .
وقد زالت اليوم ، بفضل الآثار المكتشفة ، الشكوك التي قامت
حول امتداد ملك الاتروسك الى مقاطعة كامبانيا ، في جنوبي ايطاليا ،
بعد سيطرتهم على مقاطعة اللاسيوم سنة ٦٥٠ .

وقد بلغت اتروريا اوجها في القرن السابع والسادس ق.م. في عهد
حكم ابنائها على رومة (١) . وكانت مؤلفة من مجموعات متحدة في ما
بينها ، اهمها : كايرو المعروفة اليوم باسم سرفري ، وهي تقع على
اربعين كيلومتراً من رومة . وقد اشتهرت كمركز للصياغة . وقامت
فيها مدافن على مساحة ٣٥٠ هكتاراً . وكانت حرمة الاتروسك لامواتهم
تحملهم على نحت مدافنهم في الصخر في حين كانوا يبنون هياكلهم
وبيوتهم بالخشب والقرميد . ومن اجمل الاضرحة التي شيدت فيها
ضريح لا يزال معروضاً في متحف جوليا في رومة .

— تركونيا ، عاصمة الصوريين وموطن تركونيو القديم خامس ملوك
رومة (تولى الحكم وهو في الاربعين من سنة ٦١٦ الى ٥٧٩ ق.م.)
وهي تقع قرب مرفأ شيفيتافيكيا .

(١) اسرة تركونيو : تركونيو القديم ، وسرفيو توليو وتركونيو الراحل .

(١) عادة ما تزال عند بعض النساء اللبانيات في مناسبة فاجعة .

— فييس ، على ٢٠ كلم من رومة تمتد الى نهر التيبر وتشمل قمة الفاتيكان . وقد اشتهرت بجناحتها وقصورها واقبيتها . وقد نشأت روما في ظلها .
— مرزابتو المعروفة ببومبي الاتروسك .

البحر الصوري

اسم الاتروسك اطلقه الرومان على الشعب المقيم في المناطق المذكورة ، اما الاغريق فكانوا يسمونه « الصوري » ، واطلق اسم الصوري كذلك على البحر المجاور لبلاد الاتروسك ومستعمراتها بعد ان طرد الصوريون « السرد » من شواطئ البحر الذي كان الى ذلك العهد يُعرف باسمهم . ويعتقد بعض العلماء ان تاريخ الاتروسك يرقى الى الالف الثاني ق.م. واتسع ملكهم على الايام حتى شمل توسكانا فاصبح مركز اجماد العلوم الدينية والعسكرية وازدهار الصناعة والتجارة . ومن سلالة الاتروسك في توسكانا نبغ اعلام كثر منهم دانت وبترايك وليوناردو وميكالانجلو وغاليليو وجيوتو . وقد انتقل ارث حضارة الاتروسك الى عصر النهضة الايطالية في توسكانا .

الحكم

كان الحكم في اتوروريا على غرار الحكم في فينيقيا أي حكماً اتحادياً. لقد قام على رأس كل ١٢ مدينة من مدنها ملك ينتخبه النبلاء وكان ابرز هذه التجمعات تجمع توسكانا وعاصمتها تركونيا . وكان في اتوروريا مجلس يضم مندوبين عن التجمعات وينظر ويقرر في الشؤون التي تهم الدولة باسرها وكان هذا المجلس ينتخب الخبر الاعظم .

والديانة كذلك كانت تشبه الى حد بعيد الديانة في فينيقيا عبادة وممارسة . وكان الرؤساء الدينيون يشتركون في الحياة السياسية اشتراكاً فعلياً فكان الكاهن صاحب السلطة المدنية الاعلى .

رومة

وقد أخذ الرومان الكثير من شعائر الاتروسك الدينية (١) : تبنوا آلهتهم وثالوثهم فغيروا الاسماء وتبنوا عيد قطاف العنب واسطورة الجن والاعتقاد بالبحيم والروزنامة القمرية . حتى ان تمثال الذئبة ، رمز رومة ، هو من صنع الاتروسك في القرن السادس ق.م. ، واسم رومة نفسه من اصل اتروسكي .

ولقن الاتروسك الرومان فن الحرب واساليب التكتل واستعمال المركبات وتسليح المشاة بالرمح كما لقنوهم طرق الحياة المرفهة في الاكل والشراب واللباس وبناء المساكن والهاكل والمباريات والاحتفالات . ولما قويت رومة ثارت على الاتروسك وحاربتهم . ويعود سبب ازدهار رومة الاول الى اختفاء مدينة فييس .

الفنون والصناعات والعلوم

كان الاتروسك ماهرين في الصناعة . وقد أخذوا الحديد من جزيرة ألبا وصنعوا النحاس من مزيج الحديد ومعادن اخرى كالتوتيا والقصدير . واحتلوا جزر كاستيريد في الجنوب الغربي من بريطانيا . وصكوا العملة من النحاس وكذلك العيارات والموازين .

وكانوا ماهرين في الهندسة وتفوقوا في بناء الجسور وتشيد الهياكل العظيمة والاشغال المائية . وكذلك في شؤون الزراعة والموسيقى ، ولا سيما المزمار ، وفي التصوير .

وكانوا على علم واسع بالطب وتحضير الادوية . وكان للادب عندهم شأن كبير وقد تفننوا في الرتب الدينية .

(١) شعائر الكيروس التي كانت شائعة في جزيرة لمنوس جيء بها الى روما . ومعروف ان جالية سورية كانت تقيم في الجزيرة نقلت هذه الشعائر الى رومة .

الأتروسك أحفاد قديموس في إيطاليا

ظن هيرودوتس ان الأتروسك جاؤوا من ليديا . لكن ظنه هذا لا يستند الى اساس ، اذ الآثار المكتشفة حتى اليوم لا تدل على ان هجرة ما حصلت من ليديا . بينما تشير الدلائل ، كما اكد ارسطو وشيشرون ، الى ان الأتروسك والقرطاجيين دولة واحدة وأصل واحد . انهم أحفاد قديموس في إيطاليا .

الأدلة

اولاً - دمارات يهجر مدينة كورنثيا الاغريقية ويأتي الى مدينة تركونيا في اتروريا (توسكانا ايطاليا) .
لوكومان ابن دمارات وامراته تناكيل يهجران تركونيا ويأتیان الى رومة ولوكومان يتخذ اسم تركوينيوس .
تركوينيوس يُنتخب ملكاً على رومة . وقد انشأ فيها ميدان سباق الخيل والمصارعة . وكان يأتي بالمصارعين من اتروريا . وقد انتصر على قبائل السابين واللاتين . وهو الذي بنى اسوار رومة وبنى هيكلًا لجوبيتر .
وسلالة تركوينيوس هي العائلة المالكة .
ثانياً - ثارت رومة على تركوينيوس العظيم الذي لجأ الى الأتروسك في مدينة ستي .
ثالثاً - انتصر له بورسيتا ملك كلوزيوم ضد رومة واعاده الى الملك .

رابعاً - كان الرومان يسمونهم « أتروسك » . اما الاغريق فكانوا يسمونهم « صوريين » .

خامساً - كان البحر الصوري المنبسط بين ايطاليا وجزائر سردينيا وكورسيكا يدعى بحر السرد ، وهم قوم تجار كانوا يحتلون جزراً في ذلك البحر وقد عرف باسمهم . ثم حاربهم الأتروسك وهزمهم واطلقوا على ذلك البحر اسمهم فصار يدعى البحر الصوري ولا يزال الى اليوم .

سادساً - اظهرت الحفريات ان حروف الهجاء التي استعملها الأتروسك هي حروف الهجاء الفينيقية .

سابعاً - عندما زحف هنيبل على ايطاليا واحتلها ثارت في مدن الأتروسك العاطفة الوطنية فاستقتلوا بجمرة واضطر الرومان الى تحصين مواقعهم هناك خشية انضمام الشعب الى هنيبل .

ثامناً - عندما احتل هنيبل بلاد ايطاليا سنة ٢١٨ ق.م. وكانت رومة اصبحت دولة قوية انحاز الأتروسك الصوريون الى هنيبل حتى انهم صكوا النقود على رسم الفيلة التي جاء بها هنيبل .

تاسعاً - كان الأتروسك دولة مرهوبة الجانب قال عنها تيت ليف ان صدى هيبتها كان يملأ البر والبحر على مدى سواحل ايطاليا الى جبال الالب الى مضيق صقلية . فلم يكن ، والحالة هذه ، من يجزء على احتلال توسكانا والفينيقيون انذاك يحتلون بلاد الاغريق .

عاشراً - في الحروب بين رومة وقرطاجة كان الأتروسك حلفاء القرطاجيين .

حادي عشر - كانت المدن الأتروسكية تتحد في اطار اتحادي « كوفندراسيون » كما كانت الحال في المدن الفينيقية . وكانت الديانة فيها ديانة فينيقية .

ثاني عشر - الصناعة والتفنن في الحجارة الكريمة وفي المرايات المصقولة والمزهريات وقطع السلاح والآنية الفضية كما هي في فينيقيا وكذلك فن البناء .

ثالث عشر - اشتهر الأتروسك انهم ملاحون ماهرون كما كان ملاحو فينيقيا .

قرطاجة

سيطرت المدن الفينيقية جبيل وصيدا وصور على شرقي البحر المتوسط وجزره ، وما لبث الصوريون ان رموا بانظارهم الى القسم الغربي من المتوسط فاحتلوا بقعة فيه قرب تونس وبنوا فيها مدينة قرطاجة ولها اسطورة جميلة :

مات ملك صور وترك الملك لولديه بيغماليون واليسار وكانت اليسار زوجة رئيس الكهنة وهو ذو ثروة عظيمة . فطمع اخوها بيغماليون بالثروة من جهة وبالاستئثار بالملك من جهة ثانية فقتل صهره رئيس الكهنة وصمم على الحاق زوجته اليسار به . وقفت اليسار على ما تحببه لها نية اخيها فجمعت ما امكنها من ثروة زوجها واستخلصت من مواطنيها الصوريين انصاراً . وفي ليل مد لهم السواد اقلعت خفية بالثروة والانصار من شاطئ صور الى عرض البحر باتجاه الغرب . فوصلت الى شاطئ تونس وكان على تلك البلاد ملك جبّار فزارته اليسار وطلبت منه بقعة صغيرة تنزل فيها مع رجالها . وكانت اليسار على جانب عظيم من الجمال فلم ير الملك بداً من اجابتها الى طلبها ، ولكنه اشترط ان لا تزيد البقعة عن مفرش جلد فدان . فرضيت اليسار ثم اسرت الى انصارها ان يقطعوا جلد الثور خيوطاً رفيعة مدتها طولاً وعرضاً حتى كان لها بقعة ذات مساحة كبيرة . فغضّ الملك الطرف عن هذه الحيلة واشترط عليها ان تقبل به زوجاً فوعده بعد ان تُعنى ببناء المقام لانصارها . هكذا بنيت قرطاجة .

وكانت اليسار قد اقسمت لزوجها انها لا ترضى غيره بعلاً وتنفيذاً لقسمها وتخلصاً من وعدها للملك بالزواج اقدمت على الانتحار . تلك

هي اسطورة اليسار .
ومهما يكن من امر تلك الاسطورة فالواقع ان صور بنت قرطاجة
وذلك حوالي سنة ٨٠٠ ق.م. واثباتاً للرابطة التي كانت تربط قرطاجة
بصور حرصت قرطاجة على تمكين تلك الصلة فكانت تُعنى كل سنة
في عيد ملكارت اله صور فترسل اليها بعثة خاصة تحمل الهدايا الثمينة
الى الوطن الام وتنقل الى الآباء عواطف البنين .

قرطاجه واليونان والرومان

كما سيطر ابناء جيل وصور وصيدا على القسم الشرقي من البحر
المتوسط ، هكذا سيطرت قرطاجة على القسم الغربي ، فبنت اسطولا
حربياً الى جانب اسطولها التجاري ، وانشأت جيشاً ضخماً ، عليه
قواد بواسل ، فمدت سيطرتها على سواحل ايطاليا والجزر الى ان وقف
اليونان في وجه القرطاجيين يدافعون عن جزيرة سرقوسة (سيراكوز)
وكان الحكم في قرطاجة (١) جمهورياً على غرار فينيقيا الوطن
الام . وكان على رأس الجمهورية مجلس شيوخ من الاثرياء يتولى اثنان
منهم الحكم .

في تلك الاثناء كانت رومة ، التي بُنيت بعد قرطاجة بنحو من
نصف قرن (٧٥٤ ق.م.) قد اصبحت دولة قوية ، وتوصلت الى نشر
لوائها على ايطاليا (٢٧٠ ق.م.) .

وما اتجهت بانظارها الى التوسع حتى رأت قرطاجة واقفة قبالتها
على الشاطئ الغربي تسيطر على البحر باسطولها الضخم ، وتدل على
البر بجيش مرهوب الجوانب .

وما كانت تاتئ القطعة من البحر المتوسط وسواحلها لتتسع لدولتين
كبيرتين تطمح كل منهما الى الفتح والاستعمار فغنمت رومة فرصة
قتال بين اليونان والقرطاجيين في « سرقوسة » فدخلت الى جانب اليونان

(١) معناها قرية حديثة .

في حرب ضد قرطاجة سنة ٢٦٤ ق.م. فكان ذلك الاعتداء فاتحة
الحروب المعروفة بالحروب الفينيقية (البونية) بين رومة وقرطاجة ،
طيلة نحو من مئة سنة ، تخللتها فترات سلم ضئيلة (٢٦٤-١٤٦ ق.م.)
الحرب الاولى ابتدأت في صقلية وكان على رأس القوات القرطاجية
القائد الشهير هميلكار برقة والد هنيبل وقد دامت ثلاثاً وعشرين سنة
كان النصر فيها سجالاتاً بين الفريقين حتى كانت الغلبة في النهاية لرومة ،
فاضطر هميلكار الى اخلاء الجزيرة للرومانيين والرجوع الى قرطاجة (١)

هملكار

بعد ان اضطر هملكار الى اخلاء جزيرة صقلية للرومان ، لم يم
على الضيم فجهز حملة على اسبانيا لتستعيز قرطاجة فيها عما فقدته
في صقلية ، وليكون الجيش القرطاجي في اسبانيا على اهبة الاستعداد
لمهاجمة روما عند سنوح الفرصة .

وقبل قيامه على رأس الحملة ، ذهب هملكار الى الهيكل ليقدم
ذبيحة الى الاله ويسأله النصر ، وقد اصطحب ابنه هنيبل وهو في
التاسعة من عمره . فلما وقف هملكار يضرع الى الآلهة في طلب النصر ،
هزّ هذا المشهد هنيبل فارتدى على عنق ابيه يتوسل اليه ان يصطحبه الى
ساحة الحرب في اسبانيا .

فحمل هملكار ابنه بين ذراعيه ورفعاه الى تمثال الاله ، وفي ذلك
الموقف الرهيب اقسم الصبي هنيبل ان يحتفظ في قلبه ببغض روما ما
دام حياً وان يثار لابيه ووطنه .

(١) الحروب البونية (الفينيقية)

الاول : ٢٦٤ - ٢٤١ - انتصر الرومان في البحر وانكسروا في افريقيا .

استعادوا قوتهم في صقلية حيث تمرکزوا . قرطاجة احتلت اسبانيا .

الثانية : ٢١٩ - ٢٠٢ - هنيبل

الثالثة : ١٤٧ - ١٤٦ - سقوط قرطاجة .

لم يكن هنيبل بلغ الخامسة والعشرين حين عينته قرطاجة قائداً على جيش عهدت اليه بالسير به لمحاربة روما في عقر دارها .

مشى هنيبل على رأس الجيش تحذو به الآمال الكبار ، وتغلي في صدره مراحل البر باليمين ومطامح الاخذ بالثأر .

اتجه هنيبل الى جنوبي فرنسا وقطع نهر الرون في اواخر آب سنة ٢١٨ ، ثم قطع جبال الالب خلال خمسة عشر يوماً ومعه القيلة ، فبلغ الارض الايطالية في اواخر ايلول من السنة ذاتها على رأس جيش لا يقل عن ٢٦٠٠٠ مقاتل فيه ٢١ فيلاً .

التقى هنيبل بطلائع الجيوش الرومانية فكان بينه وبينها مناوشة اسفرت عن تراجع الجيش الروماني . واصل هنيبل زحفه حتى بلغ نهر «البو» فقطعه وقطع الرومان من جهتهم نهر «ترابي» وخاضوا الموقعة وظهرهم الى النهر المذكور . وكان ذلك في كانون الثاني سنة ٢١٦ في يوم ثلجي عاصف .

انتصاره على الرومان

وضع هنيبل خطة دلت على ببوغ قلما شهدته ساحات الحروب قبله : جعل قوة جيشه في الجناحين وترك في القلب قوة هزيلة . فما اصطلت نيران المعركة حتى تمكن الرومان من اختراق قلب الجيش القرطاجي بسهولة زينت لهم الحلم بالغلبة ، على ما تعودوا . وبينما هم يمدون اليد للقبض على النصر اذا بجناحي الجيش القرطاجي يتحركان وفي مقدمتهما القيلة فيطبقان على الكتائب الرومانية اطباق فكي الكماشة ، فيستولي الدهول على الكتائب الجبارة ، ولا يلبث الدهول ان يتحول الى دعر في صفوف الرومان وهم شرادم تنهالك في الهزيمة امام جيوش القرطاجيين .

راع روما ذلك الانكسار تصاب به للمرة الاولى فيالقتها المظفرة ،

فجهز الرومان جيشاً جديداً سلمت قيادته الى «فلامينيوس» ، فالتقى الجيشان ووقع الاصطدام بينهما في ٢٢ حزيران سنة ٢١٦ قرب بحيرة «تراميزين» ، فما انتهت المعركة الا والجيش الروماني اكدها جرحى وقتلى ، بينهم القائد «فلامينيوس» وعليها تشرق ألوية قرطاجة الظافرة . وادهش الرومان ان القائد المنتصر اطلق سراح الاسرى الرومان ، وما استبقاهم رهائن ولا طلب عنهم دية ، كما جرت به عادات ذلك الزمان ، بل اعلن انه ما جاء ليدل الرومان بل جاء يحمل الحرية والاستقلال الى الشعوب الايطالية .

هال روما ان يسطو عليها في عقر دارها جيش قرطاجة ، فوطدت العزم على التضحية بما هان وعز في سبيل النصر ، وهب خطباؤها يستفزون الشعب ويشيرونه صائحين : «هنيبل على الابواب» فذهبت صرختهم مثلاً في الخطر الداهم .

اندفع الشعب في ذلك التيار الصاخب وتهافت الى حمل السلاح فكان لروما في برهة قصيرة جيش جديد ثالث يزيد على الثمانين الف مقاتل . فالتقى الجيشان قرب مدينة «كان» على ساحل البحر وهناك دارت رحى موقعة ثالثة كانت على الرومان شراً من الاوليين . فمزق هنيبل جيوشهم تمزيقاً ، مستعملاً في هذه الموقعة الخطة ذاتها التي اولته النصر في الموقعة الاولى . فقتل من الرومان ٤٥٠٠٠ وأسر ٢٠٠٠ وانهزم الباقون (٢١١-٢١٦) .

حملة رومانية على قرطاجة

كان في روما عدا القواد والجنود - حكماء مجربون وسياسيون محنكون رأوا ان ما اتاه هنيبل من المعجزات يدل على انه قائد لا يغلب . فاتجهوا في مقاومته الى ناحية اخرى : تركت روما هنيبل وجيشه في اراضيها طيلة اربع عشرة سنة . وتساءل المؤرخون والخبراء العسكريون عن الاسباب التي حالت دون مواصلة هنيبل الزحف والقضاء على روما بدلاً من ان يترك لها الوقت الكافي للاستعداد ، حتى تمكنت من

القائد الاكبر

يعتقد الخبراء العسكريون انه اذا لم يكن هنيبل اكبر قائد انجبه العالم فهو في مقدمة اكبر قواده امثال يوليوس قيصر والاسكندر وفردريك الكبير ونابليون الاول .

على ان قرطاجة ما لبثت ان ضمدت جراحها وراحت تحاول ان تنهض من مصرعها . فلقت افاقتها نظر الرومان فقام مفكروهم واصحاب الرأي فيهم يذكرون ويحذرون حتى بلغ بخطيبهم المشهور كاتون عضو مجلس الشيوخ ان جعل لكل خطبة كان يلقيها هذه اللازمة : « لا بدّ من سحق قرطاجة » .

عداء روما لقرطاجة

وما زالت تلك العداوة تتزايد حتى قررت روما معالجة القرطاجيين بالحرب قبل ان يتسنى لهم استعادة القوة . فجهزت حملة ارسلتها ضد قرطاجة . وبعد ان دارت الحرب سجالات بين الفريقين مال النصر الى الأولوية الرومانية ، ورأى القرطاجيون انه لم يعد لهم امل يرجى بالظفر . وقد خيرهم الرومان بين الاستسلام والفناء فأبى على قرطاجة الجبروت ان تهون بعد سؤدد ، واستنكر ابناء صور احفاد فينيقيا ان يذلوا لفاتح فاخترتوا لقرطاجة مصير امها صور .

وقد ضاهى تحمس النساء شمم الرجال وحاربوا حتى آخر رجل وآخر امرأة . فما فتح الرومان مدينة بل استلموها رميا وانقاضا . هكذا اندثرت قرطاجة . هكذا طويت صفحة الجبابرة (١٤٦ ق.م.) . في الوقت ذاته كانت اركان فينيقيا في الشرق تتداعى مملكة اثر مملكة .

تجهيز جيش ارسلته الى افريقيا لمهاجمة قرطاجة في ارضها كما فعلت قرطاجة اذ ارسلت جيشاً الى ايطاليا يهاجم روما على ابوابها . وعينت روما القائد « سيبون » على رأس تلك الحملة . عبر « سيبون » بجيشه الى الضفة المقابلة واخذ قرطاجة على غرة ، وما لبث ان لاحت هنالك ظواهر الغلبة للجيش الروماني فاضطربت مجالس قرطاجة وبادرت الى استدعاء هنيبل من ايطاليا . فلبى الدعوة عائداً الى وطنه .

انكسار هنيبل

تعود هنيبل ان يرى النصر معقوداً بألويته على جيوش روما وقوادها فلم يحفل بجيش خصمه ، ولا حسب له حساباً ، فنازله في موقعة « زاما » مغامراً ، فخان الحظ هذه المرة وكانت الغلبة للقائد الروماني (٢٠٢) .

طلب المعونة من الوطن الام

خرج هنيبل من الموقعة مضطرباً كما خرجت منها قرطاجة مغلوبة على سلطانها . ودامت الحالة بضعة سنين ، رأى هنيبل فيها ان لا سبيل الى نهوض قرطاجة الا اذا جاءتها مساعدة من الخارج . فاتجه الى الوطن الاصلي يسأل الخوالة والأعمام في لبنان عوناً على روما . فتبين له ان الدهر قد تغير عليهم كما تغير على احفادهم في قرطاجة . وانهم يعجزون عن تأدية أية مساعدة ومعونة . فولى هنيبل وجهه شطر اليونان فقصده الى انطيوخوس ملك ايونيا (قرب ازмир) فلم يظفر منه بوعده ، وذهب الى الملك بروزياس في ملكه القائم على البحر الاسود فلم يلق عنده نجاحاً .

انتحار هنيبل

تجاه ذلك الواقع المفجع رأى هنيبل انه لم يبق امامه الا التضحية القصوى وقد اعد لها سمّاً كان يحمله دائماً فشرب السم ومات منتحراً (٢٤٧-١٨٢ ق.م.) وهكذا قضى هنيبل الكبير .

الفرس والاسكندر

الفرس

شعب هندو اوروبي زحف على بابل بقيادة قورش واحتلها
فزالت مملكة الكلدان البابليين الحديثين وحلّ الفرس محلهم في المشرق
(٥٥٧-٥٢٩) وخلف قمبيز اباه قورش (٥٢٩-٥٢٢) وسأل اللبنانيين
فبنوا له اسطولا . وزحف على مصر فاحتلها . وفكّر بالاستيلاء على
قرطاجة وطلب عون الاسطول اللبناني عليها فأبى اللبنانيون مساعدته
على احفادهم القرطاجيين فرجع عن فكرته . وقام بعدهما داريوس
الاول فوسّع رحاب الملك ومدّ رواق الامبراطورية من الشرق الى
الغرب (١) .

احسن الفرس الصلة بالمدن اللبنانية فكان ملكهم يجلس ملك صيدون
عن يمينه وملك صور عن شماله .
وفي الحروب التي اشتهرت بالحروب المادية ساعدت الاساطيل
اللبنانية الفرس في محاربة الاغريق .
وطرأ تغيير على سياسة الفرس عهد ارتخشث الثالث في حسن المعاملة

(١) ملوك فارس

- قورش (٥٥٧ - ٥٢٩)
- ابنه قمبيز (٥٢٩ - ٥٢٢)
- داريوس الاول (٥٢١ - ٤٨٥)
- احشورش الاول (٤٨٥ - ٤٦٤)
- ارتخشث الاول (٤٦٤ - ٤٢٤)
- ارتخشث الثاني (٤٢٤ - ٣٥٨)
- ارتخشث الثالث (٣٥٨ - ٣٣٥)
- داريوس الثالث (٣٣٥ - ٣٣٠)

مع لبنان فثارت مدنه وانتهت الثورة الى مقاومة صيدا مقاومة بطولية فتحصن اهلها في بيوتهم . ولما خانهم الحظ في الصمود حرقوا المدينة باهلها لكي لا يستسلمون . ودامت الاضطرابات حتى قدوم الاسكندر .

الاسكندر

خرج الاسكندر من مقدونيا وقطع البحر الى آسيا وواصل الزحف حتى بلغ مضيق ايسوس ، شمالي الاسكندرونة حيث التقى جيوش داريوس ونشبت معركة هائلة انتصر فيها الاسكندر (٣٣٣) وواصل الزحف على الشواطىء لا يجد فيها مقاومة حتى بلغ صور فوقفت في وجهه فألقى عليها حصاراً استبسل فيه الصوريون طوال ثمانية اشهر تمكن الاسكندر في نهايتها من فتح المدينة فقتل وشرد وسبي من اهلها ثلاثين ألفاً .

وواصل الاسكندر الزحف فاحتل مصر واوغل في الزحف حتى الهند فاستولى عليها ورجع الى بابل ليجعلها عاصمة امبراطوريته الشرقية . وما كاد يعتز بتلك الانتصارات حتى وافته المنية في بابل (٣٢٣) واقتسم قواده الامبراطورية فاصاب ائليفتونوس اوروبا ، وبطليموس افريقيا ، وسلوقوس آسيا ، وبني عاصمة له مدينة انطاكية (٣١٢) .

ودام ملك السلوقيين حتى الفتح الروماني الذي استمر حوالي قرنين ونصف ، أي حتى الفتح العربي .

الحضارة اليونانية في لبنان

بدأ تطعيم فينيقيا بالحضارة اليونانية بوصول الاسكندر وتجنيد السكان من مختلف الجنسيات ، ولا سيما الفينيقيين . وتابعت هذه الحركة السلوقيون ، على غرار الاسكندر ، فاصبحت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في لبنان . وقد نبغ فيها لبنانيون كثر امثال انتيباتر الصيدوني ، في الشعر ، وفيلون الجبيلي ، في التاريخ ،

وزينون ، في الفلسفة . وقد اسهم اللبنانيون بقدر كبير في تطوير الفكر اليوناني . فمؤسس المدرسة الرواقية ، زينون ، لبناني الأصل ، لكنه ولد في قبرص . وقد برع في شرح نظريات افلاطون حول السلم والمثالية . ونحنا نحوه بيوتس الصيدوني ، وقاد المدرسة المشائية ديودورس الصوري والمدرسة الابيقورية زينون الثاني فكان اللبنانيون قادة اكثر المذاهب الفلسفية التي اشتهر بها الاغريق .

وفي حقل العلوم برز مارينوس الصوري مؤسس علم الجغرافية الرياضية . اما الذين لمعوا في قرطاجة ، ابنة صور ، فعددهم يكاد لا يحصى منهم تيرنس الشاعر الهزلي والقديس اغسطينوس اشهر آباء الكنيسة .

لبنان واليونان

شاء فيكتور بيرار في كتابه «الفينيقيون والاولديسة» ان يتتبع آثار تيلماك وآثار ابيه عوليس في تطوافهما بين جزيرة وجزيرة. وبين بلد وبلد ، على ما ورد في الاولديسة ، فركب البحر وزار تلك الجزر والمدن واهتدى الى الاماكن التي وردت في الاولديسة ، فتبين ان هوميروس أخذ كل معلوماته عن الفينيقيين .

قدموس معلم الاغريق

يبدأ تاريخ اثينه حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م. الحضارة حملها لللاتين قدموس الفينيقي (ودانورس المصري) حوالي سنة ١٥٢٠ سنة ١٥٠٠ ق.م. (مقدمة الاولديسة) . وكانت فينيقيا قد علمت جزيرة كريت .

الجغرافية

كان الاغريق يسمون البحر الداخلي قسم البحر المتوسط الى حدود جزائرههم . ويسمون البحر الخارجي القسم الذي يتجاوز جزائرههم الى الغرب .

ما تمكن هوميروس من دقة الوصف للبلدان الواقعة في اطار البحر الداخلي او اطار البحر الخارجي الا لأنه استمد علمه ومعرفته من الفينيقيين. فالينيقيون الذين فتحوا ليبيا وايبيريا (اسبانيا والبرتغال) كانوا معلميه. وذكر سترابون ان الصوريين بلغوا البحار الغربية وقطعوا اعمدة هرقول (جبل طارق) واسسوا المدن ابعد منها ، وذلك بعد حرب طرواده، وقد احتلوا وعمّروا احسن ما في تلك المناطق من شواطئ . ومنهم اقتبس هوميروس معارفه عن الغرب .

ان اسفار عوليس تجري على شواطىء البحر ومضايقه لجهة ايطاليا واسبانيا . وقد اعطى هوميروس عن تلك المناطق ادق الاوصاف . وقد صرح بان جزيرة (ايتاك) التي نزل فيها عوليس ، كانت آخر ارض يعرفها الآخيون ويأتي بعدها بحر الغرب المتوسط الممتلئ بالكواسر والوحوش والمسوخ وآلهات تتأكلها الغيرة الى آخر ما هنالك من غرائب لم تقع عليها عين الشاعر ولا عيون مواطنيه ، فتكون الاسفار الفينيقية هي التي اخبرته عن تلك المناطق بدقة .

الاساطير

كان عند الكلدان في اقدم العهود روايتان تناقلتهما الشعوب طوال الاعصر هما رواية جلجامش ورواية اسفار عشتار الى بلاد الاموات . وكانت فينيقيا هي الواسطة بين هوميروس وبين الاساطير . فالنشيد الرابع من الاوديسه اقتبس من حكايات مصرية . ولا شك ان فينيقيا كانت هي الواسطة ايضاً بين مصر وهوميروس في نقل تلك الحكايات .

وهركول الرومان مأخوذ عن هركليس اليونان المأخوذ بدوره عن ملقرت صور .

وفي اسفار هراكليس في البحر الغربي التي تناقلتها اساطير الاغريق ومنهم الى الرومان ورد اسم هر كول . لكن الاقدمين كانوا يعرفون ان هذا البطل هو ملقرت صور وهو الذي كان قبل عوليس قد طاف تلك الانحاء وبني المراكب في المضيق الذي يفتح على المحيط الاطلسي واطلق على المضيق اسم اعمدة هر كول .

يعرف الاغريق ان حروف الهجاء جاءت من فينيقيا وان اباؤهم الاقدمين اخذوها عن قدموس . هذه الحقيقة التي رددتها الاعصر القديمة اثبتتها الحفريات الحديثة . ودلت على ان الكتابة بحروف الهجاء متقدمة في القرن الرابع عشر بل في الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر ق.م. وهذه التواريخ هي التي كان يذكرها الاقدمون عن وقت وصول

قدموس الى بلاد اليونان .

وبعد هذه المعلومات يرد التساؤل هل ان منطقة ايوليا عهد هوميروس كانت تعرف القراءة والكتابة بعد اربعة قرون من انتشار الحروف الهجائية في مدن فينيقيا بل بعد ستة او سبعة قرون من التجربات الاولى في هذه الكتابة الجديدة . اصبح هذا التساؤل كالتساؤل هل بعد مضي قرنين على غوتنبرغ (مكتشف الطباعة) تمكن كورنيل وراسين من طبع مسرحياتهم ؟

قال ارسطو انه لم يبق لنا شيء من الشعراء الذين سبقوا هوميروس ولكن لا شك انه سبقه الكثيرون منهم ، اذ الفن الرفيع لا يخلق فجأة بل لا بد ان تتقدمه محاولات عديدة .

ان الخطأ الذي وقع فيه من تقدمنا كان اعتقادهم ان فجر الانسانية المفكرة الخلاقة يبتدىء مع هوميروس ومع التوراة كأنهما فلتة نبوغ مفاجيء . لكن الحفريات الحديثة اثبتت ان قبل هوميروس وقبل التوراة تعاقبت اجيال طويلة ظهر فيها شعراء وفنانون ابدعوا روائع تسلسلت خلال الاعصر حتى وصلت الى العبرانيين والى الاغريق . فكانت بلاد الكلدان ومصر وفينيقيا وبابل وطيبة وصيدا المعين الفياض الذي اغترف منه العبرانيون والاعريق كما اغترف الغرب من اورشليم واثينا وروما . والخلاصة ، انه لا يوجد نبوغ مفاجيء وان تلك الروائع عند الاغريق والرومان وفي مقدمتها الالياذة والاوديسه نسجت على منوال من سبقها من شعراء وفنانين وقد نقل الفينيقيون تلك الروائع الى مدن ايونيا الاغريقية .

يقول جبريال شارم في رحلته الى سوريا :

« ان الفضل في ايجاد تلك الثورة الادبية التي غيرت وجه العالم فاقامت على اطلال ذلك التمدن الحقيق الذي كان مبنياً في الشرق على قواعد الانانية ومبادئ الاوتوقراطية والروح العسكرية تمدناً آخر اجل واسمى فاتحاً باب الرقي على مصراعيه للتجارة العامة وللمبادئ الحرة انما مرجعه الى فينيقيا . فهي صاحبة الفضل بايجاد هذا التمدن

ارقي منهم (يريد الفينيقيين) وانهم تمكنوا بذكائهم ان يسرقوا منه
سر تفوقه « (١) .

الرحب الذي منه تكوّن الغرب الحالي .
ذلك هو الفضل الاكبر الذي لفينيقياً على العالم، وقد جهل العالم
فضلها ردحاً من الدهر وهو يجعل لتلك الامة الكريمة المقام الاول بين
الشعوب التي كان لها تأثير قاطع في تكييف الهيئة الاجتماعية .
ان ذلك الشعب الذي ظل فضله مجهولاً دهرًا طويلاً ثم ظهر اخيراً
للعلم الحديث فملاً تاريخه ، على فقره ، الفراغ الغريب بين الشرق
القديم والغرب الحديث . ان هو الا تلك الامة الصغيرة الفينيقية التي
يرجع اليها الفضل ومنتهى الشرف في انها كانت همزة الوصل بين
دينك العالمين .

وقد ملك الفينيقيون كل السبل التي كانت بين الهند وبلاد الكلدان
والعرب وبلاد القوقاز وبين الغرب .

ولما نزلوا في بلاد اليونان وجدوا السكان اقرب الى العصابات
المتوحشة منهم الى الشعوب المتمدنة فعلموهم اللغات والصناعة والكتابة
والزراعة وفن الحساب، وقد تعرف اليونان الى كثير من الاختراعات
التي نشأت في الشرق ثم هذبها وحسنها ذكاء الفينيقيين بل نبوغهم في
وضع الاختراع قيد الاستعمال . وقد اخذ اليونان عن الفينيقيين كل
الكلمات الدالة على تلك الاختراعات والحاجيات .

وخلاصة القول، ان اليونان مدينون بحضارتهم للفينيقيين وان ما
للتلك الحضارة والعلوم من فضل على البشرية يرجع اصله الى فينيقياً
لان اليونان ما كانوا الا تلاميذ لهم، وقد لا يكون اضاء مصباح اليونانية
لولا شعلة تلك الانوار والتعاليم (١) .

وقد كتب ارنست كورسيوس في تاريخه عن اليونان فصلاً شائقاً
عن تفوق الفينيقيين وعن اخذ اليونان عنهم جاء فيه :
« لا ينكر على اليونان انهم توصلوا الى اخذ الحضارة عن شعب

(١) ارنست كورسيوس ، « تاريخ اليونان » ج ١ ص ٤٩

(١) جبريال شام ، رحلة الى سوريا : ص ٦٩ وما يليها .

فينيقيا تسهم في حضارة الانسان

اللبناني والبحر

منذ الازل لاحظ الانسان ان الخشب يطفو على سطح الماء ولا يغرق فيه ، فكان على ضفة نهر او بحر هادئ يداعب المياه الساكنة ، على ظهر خشبة ، او على ضرع عائم . اما على شاطئ البحار ، فكان الانسان يقف واجفأ ينظر برهة الى الامواج المتلاطمة ولا يجروء على اقتحامها . وظلت تلك حالته الى ان وقف اللبناني على احد شواطئه واخذ خشباً من ارزه ، وبني زورقاً دق فيه سارية ، ونشر شراعاً ، وركّز بمجدافاً ، وانطلق في عرض البحر لا يعبأ باخطاره (١) . وما لبث ان اصبح الزورق مركباً ، والمركب سفينة ، والسفن اساطيل .

ولم يستأثر اللبناني باختراعه فبنى اساطيل للدول . وعلم الشعوب فن بناء السفن ، فبنى اليونان اساطيلهم ، وبني الرومان اساطيلهم وراحوا بعدها يحاربون بها اساطيل لبنان واساطيل جالياته في اوروبا وافريقيا .

تلك الآفاق الواسعة التي فتحها الملاح اللبناني في شقه الطرق البحرية غيرت وجه العالم القديم ، فاصبحت السفينة صلة بين الشعوب في التعامل بالتجارة ، والتفاعل في الحضارة ، فكان فتح البحار ، على يد اللبنانيين ، اساساً في رقي الانسانية .

الاسطول اللبناني

أنشأ اللبناني اسطولاً تجارياً ، وبني اسطولاً حربياً .

(١) قبل الفينيقيين عرف المصريون والاكرتييون الملاحة في المتوسط وقد صنعت مراكبهم من اوراق البردى الكبيرة فكانت تعجز عن الخوض في المحيط ، لذلك كان اللجوء الى اخشاب لبنان ، ولا سيما الارز ، لبناء السفن القادرة على مجابهة الامواج .

السفينة التجارية هي مركب كبير مرفوع الطرفين وعلى مقدمته رسم يمثل رأس حصان أو رأس غزال . طولها يتراوح بين ١٥ و ٢٠ متراً . على المركب صف أو صفان للمجذفين . في وسطه صارية عالية ينتشر منها الشراع . وكان شكل المركب شكل هلال . مؤخرته مرفوعة كعق الاوز . مقدمته تتسع للملاح مراقب وفيها صارية صغيرة تحمل شراعاً مربعاً للمساعدة في تدويره دفعة المركب (١) .

السفينة الحربية : المؤخرة فيها معقوفة والمقدمة بشكل مهماز فيها صفان للمجذفين .

كانت السفينة الحربية تتألف من ثلاث طبقات والسفينة الكبرى تصل الى ستة طوابق . طولها مئة ذراع . يقوم عليها نحو من ثلاثين ملاحاً . وكانت حمولتها تبلغ حوالي خمسين طناً .

في ذلك العهد كان الاسطول اللبناني سيد البحار . وقد اطلق مسبرو على اللبنانيين الاقدمين لقب « انكليز العالم القديم » وعلى قادة الاسطول لقب « امراء البحر » .

احتلال الجزر والشواطىء

في المحاولات الاولى التي قام بها اللبناني لاقتحام البحر لم يكن يبتعد كثيراً عن شواطئه ، فأنشأ مرفأ في جبيل ومرفأ في بيروت ومرفأ في صيدا ومرفأ في صور .

وبعد ان اطمأن البحارة اللبنانيون الى سيطرتهم على البحر ، توغلوا فيه الى الجزر وشواطىء اليابسة فاحتلوا ارواد وقبرس واكريت ومالطة ورودوس وموانئ مصر وليبيا .

وضاقت ارض لبنان بسكانه وبطموحهم ، وشاقتهم الآفاق البعيدة ،

(١) يعتقد كونتينو ان مثال السفينة التجارية الفينيقية منقوش على ناووس (اكتشف في صيدا سنة ١٩١٤ وينطبق وصفه على رسم منقوش في احد قبور طيبة (١٥٠٠ ق.م.) يمثل سفينة ترشيش التي كانت تستعمل في رحلات بعيدة . وقد وجدت رسوم لهذه السفينة على عملة مصكوكة في عهد هليوغابال اكتشفت في جبيل .

فاقدموا على الهجرة .

هجرة اولى خرجت من لبنان باتجاه الجزر والبلاد الافريقية واللاتينية ، فبنت مملكة « الاتروسك » . وهجرة ثانية اتجهت الى المغرب الافريقي فبنت امبراطورية قرطاجة .

القوافل اللبنانية

لم يكتف اللبناني بالسيطرة على البحر جسراً بين آسيا وافريقيا واوروبا ، بل استفزه التطواف الى ارتياد اليابسة في قوافل تقطع البرور وتطوي الصحاري :

قافلة على مجرى الليطاني الى البقاع ومنه الى دمشق .

طريق شمالي سوريا الى مضيق كيليكيا وآسيا الصغرى .

قافلة الى البلاد العربية حتى البحر الاحمر .

قافلة الى ما بين النهرين حتى الخليج .

قافلة من العراق شرقاً الى بلاد فارس ومنها الى الهند . مروراً

بافغانستان وباكستان ، الى الصين حتى المحيط الهادىء .

بالاضافة الى المواصلات البحرية بين لبنان ومصر ، كانت طريق

برية تصل بين البلدين في صحراء سيناء .

كانت السفن اللبنانية تجوب البحر المتوسط فتؤمن المواصلات بين

فينيقية ومستعمراتها التي ما لبثت ان امتدت من الدلتا في مصر حتى

شواطىء كيليكية وبلاد الاغريق وبعض بلدان محيطة بالمتوسط ، وما

اسم « المتوسط » الا دلالة على توسطه مناطق النفوذ الفينيقي . فقد كان

هذا البحر على حق « بحيرة فينيقية » .

قوافل لبنان عبّدت طرق البر في الاقطار المشرقية ، كما فتحت

اساطيله طرق البحر ، فقرّبت الابعاد واحكمت الصلات ، فلم تقتصر

الروابط على التعامل التجاري في تبادل السلع والبضائع ، بل تجاوزته

الى التفاعل بين الشعوب على اختلاف حضاراتها ، فارسي ذلك التفاعل

العالم القديم على اسس جديدة في تطوير الانسانية ورفقيها .

وقد ساعد الفينيقيين في وثبتهم هذه ان مصر واكرت كانتا في حالة انحطاط وكان الحثيون في تفهقر مستمر . فاثبت الفينيقيون وجودهم كقوة بحرية في وجه اشور التي كانت ترنو الى المتوسط وتطمع فيه .

طواف البحارة الفينيقيين

خرجوا من البحر الاحمر الى المحيط الهندي وداروا حول افريقيا ورجعوا الى مصر من جبل طارق بعد ثلاث سنوات .
وذكر هيرودوتس ان الفينيقيين زعموا انهم عندما داروا حول افريقيا وجدوا ان الشمس تشرق عن يمينهم بدلاً من ان تشرق عن يسارهم كما كانت قبلاً .
والمعروف اليوم ان هذا التغيير في مشرق الشمس في تلك المنطقة هو الحقيقة .
وكانت القوافل اللبنانية تحمل تجارتها الى ما بين النهرين وما بعدها حتى الهند .

امير البحر حنون

ولعل من اهم مغامرات الانسان في البحر تلك الرحلة المدهشة التي قام بها حنون ورفاقه في القرن السادس قبل المسيح ، فاقدموا على الطواف في سفنهم حول القارة الافريقية (١) .
انطلق حنون ورجاله من احدى موانئ البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح في اقصى جنوبي القارة .
ومن رأس الرجاء الصالح اتجه غرباً ، نحو المحيط ، لا يبتعد عن الشط حتى بلغ مضيق جبل طارق بين اسبانيا ومراكش .
وهناك دخل المضيق الى البحر المتوسط ، وسار في محاذة الشواطئ من الجزائر الى قرطاجة وليبيا ، وعاد الى نقطة الانطلاق في ميناء

(١) ٦٠ مركباً في كل منها ٥٥٠ شخص .

البحر الاحمر .

استغرقت تلك الرحلة اكثر من ثلاث سنوات .
ولم تكن المؤن التي يحملها ذلك الاسطول لتكفي رجاله على مدى الاشهر والسنين . فكان البحارة ينزلون الى البحر فيحتلون ما شاؤوا من الارض فيزرعون وينتظرون ايام الحصاد فيحصدون ويحملون من زرعهم ما يكفيهم الى موسم ثان .
واذا راق لهم ميناء بنوا فيها قرية او مستودعاً واقاموا عليه اميناً .
وقد غني حنون بتدوين موقع الاماكن التي طافوها فكانت خرائط قيمة للسواحل الافريقية .
لا يزال المؤرخون يذكرون باعجاب تلك الرحلة يقحم فيها امير البحر اللبناني مخاطر ذلك المحيط المجهول (١) .

(١) وجدد هميلكون هذه المغامرة ، فخرج من قرطاجه واجتاز جبل طارق واتجه شمالاً الى ايرلند وانكلترا وفتح سوق تصدير القصدير .

التجارة

المركب الذي اقلع من شواطئ لبنان - عهد فينيقيا - والقي مراسيه في جزر المتوسط وشطآنه ، حمل خيرات العالم الى القارات الثلاث ، وأنشأ فيها مستودعات التجارة ونشر اسباب الحضارة : الى مصر - حمل اللبناني اخشاب الارز والسرو والسنديان ، يستعملها المصريون في اثاث البيوت ، وتزيين الهياكل ، وتخيط الموتى . وأنشأ اللبنانيون في مدينة منفيس مستودعات ، وعمروا حياً اطلق عليه اسم « الحى الصوري » ، وفيه اقاموا هيكلًا لألهتهم . ومن مصر اخذوا النحاس والذهب والحجارة الكريمة والاولاني المنوعة .

من جزيرة قبرص اخذوا المعادن والزيتون والكرمة والحبوب . من اسبانيا - حيث بنوا مدينة قادس على مصب الوادي الكبير في المحيط الاطلسي - اخذوا الذهب والفضة والرصاص والتنك . من الحبشة - العاج والابنوس والذهب والحجارة الكريمة وريش النعام والطواويس والقردة . من البلاد العربية - البهار والمسك والبخور والذهب والحجارة الكريمة .

من جزيرة ميلوس - الكبريت وحجر الشب . من جبال ارمينيا والقفقاس - المعادن والحجارة الكريمة . وقطعوا اعمدة هرقل (جبل طارق) الى الجزر البريطانية حيث وجدوا القصدير . ومن منقولهم الى البلاد الاغريقية والايطالية والاسبانية الورد والتين والرمان والحوخ واللوز والزيتون .

وعلموا الشعوب طريقة استخراج الزيت من الزيتون ولا تزال
كلمتا (الزيتون والزيت) تستعملان حتى الآن كما هما في اللغتين
الاسبانية والبرتغالية .
ومن تلك الانحاء نقلت المراكب اللبنانية الدفلة والسوسن والنعنع
والترجس .

وكانت اهم الصادرات من لبنان اخشاب الارز والسرو والسنديان
والقماش الارجواني والآليات المنوعة من الزجاج الشفاف .

ممارسة عريقة

اشتهر الفينيقيون بالتجارة منذ اقدم التاريخ ، حسيما يدل احد
نصوص رأس شمرا ، وما كان انشاؤهم المدن الساحلية الا واسطة
لتسهيل عملياتهم التجارية لا واسطة للاستعمار السياسي . لذلك لم تلعب
فينيقيا دوراً حروباً خطيراً . كانت رسالتها رسالة سلم وكان اللبنانيون
يحملون الى الشعوب التي يتصلون بها العلم والحضارة مع اصناف التجارة .
كانت تجارتهم في البدء تقوم على المقايضة . مقابل القماش الارجواني
الجميل كان الفينيقيون يستقدمون ما يحتاجون اليه من مواد غذائية .
ثم تطورت التجارة الى تبادل السلع بالذهب . ويروي هيرودوتس
عن القرطاجيين كيف كان يحصل هذا التبادل فيقول : « كانوا يتزلون
بضائعهم ويعرضونها بالترتيب على طول الساحل ثم يعودون الى سفنهم
ويرسلون دخاناً لاشعار الاهلين بقدومهم . فيقترب هؤلاء ويضعون
قرب البضائع الذهب الذي يعرضون بالمقابل ثم ينسحبون . فكان
القرطاجيون يتزلون من مراكبهم ويفحصون كمية الذهب فان رأوها
كافية حملوها ومضوا والا عادوا الى مراكبهم وانتظروا فيعاود الاهلون
الكرة ويضيفون كمية جديدة من الذهب حتى يرضى بها القرطاجيون
ويتخلون عن بضائعهم لقاءها . ولم يكن احد من الطرفين ليسيء الى
الآخر . فلا الاهالي يمسون البضاعة قبل الاتفاق على الصفقة ولا
القرطاجيون يمسون الذهب .

ومرت التجارة الفينيقية بعهدين متكاملين . كانت تجري اولاً
عن طريق البر . بين خليج العقبة ولبنان عبر مسافات بعيدة معرضة
للاخطار ، ثم عن طريق البحر بعد اكتشاف الملاحة واحتلال المدن
الساحلية والقضاء على سيطرة الاسطول الايجي في الالف الاول قبل
المسيح .

كانت اقصر الطرق البرية بين لبنان واشور تمر بالصحراء عبر
دمشق وواحة تدمر لكنها كانت طريقاً عسيرة بسبب قلة الماء .

كان الفينيقيون يصدرون الاواني الزجاجية إما فارغة للزينة وإما
ملیئة بالعمور التي برعوا باستخراجها ويصدرون كذلك الانسجة
المطرزة من صنع الصيدونيات .

ويروي هوميروس في الياذته ان اخيل عيّن جائزة للسباق على
الوجه التالي :

« اناء فضي يحتوي ستة مقادير هو اجمل ما في الارض من نوعه
لان الصيدونيين الحاذقين زينوه بشكل رائع والفينيقيين الذين نقلوه
على الامواج الداكنة توقفوا في مرفأ لمنوس وقدموه هدية الى تيواس » .
ويروي هوميروس كذلك ان هيكلوب نزل الى غرفته المعطرة
حيث البراقع المنوعة هي من صنع نساء صيدون وقد استقدمها بارس
نفسه من فينيقيا .

الا ان البرفير او الارجوان كان افضل ما كان ينتجه الفينيقيون
ويحتكرون صناعته في صور وصيدا وهو صباغ طبيعي .

النقد

ان اتساع تجارة الفينيقي وتنوع الشعوب التي كان يتعامل معها
واختلاف العادات في مختلف الامصار كل هذا حملته على توجيه عناية
خاصة الى النقد . فصك منه فئات متنوعة بلغت منها دقة الصنع وضبط
الوزن ما جعل نقد « صور » العملة التي يرجع اليها الجميع وتعتمدها

كل البلدان حتى كان التعاقد في فارس يجري مشروطاً فيه الدفع
« بالنقد السوري الصحيح » .

الصناعة

تميز الفينيقيون بالقدرة الفائقة على التكيف وسرعة الاقتباس فآخذوا
عن الحثيين والفلسطينيين سر صناعة الحديد فاستعملوه في بناء السفن
والآليات والادوات فأسهموا في احلال هذا المعدن محل البرونز وفي
الانتقال التاريخي ، بالتالي ، من عصر الحجر والبرونز الى عصر الحديد .
وقد وُجد في حفريات رأس شمرا معول برونزي كان يستعمله
المزارعون الفينيقيون ثم منجل حديدي كانوا يستعملونه في الحصاد محل
المنجل الحجري في الالف الاول قبل المسيح .
وكانت هذه الصناعات تنقل بالوراثة وتنحصر بعائلات واحياء
معينة . وكان اصحاب الصنعة الواحدة يتعاونون في ما بينهم ويشكلون
رابطة مهنية على غرار النقابات في العصور الحديثة .

الصناعة الفنية

البيت الذي شاده الملك سليمان للرب في اورشليم ، فبات موضوع
اعجاب الشعوب في ما اخرجته صناعة السبك والتطويق في النحاس
والفضة والذهب ، من تماثيل ونقوش وزخارف وتلبس ما كان ليصبح
تلك التحفة المدهشة فناً واتقاناً ، لو لم تتعده حذاقة اللبانيين الخلاقة ،
على ما شهدت به التوراة ، في سفر اخبار الايام الثاني حيث يقول :
« وارسل سليمان الى حيرام ملك صور قائلاً : كما فعلت مع داود ابي
تفعل معي فاني ابني بيتاً لاسم الرب الهى ...
« فالآن ارسل لي رجلاً حاذقاً يعمل الفضة والنحاس والحديد
والارجوان والقرمز والسمنجوني ، ماهراً في النقش مع الحذاق الذين
عندي ... » .

فارسل حيرام ملك صور الى سليمان يقول : « قد فهمت ما

ارسلت به اليّ وانا اتم كل مرضاتك في خشب الارز وخشب السرو .
وعبيدي يتزلون ذلك في لبنان الى البحر فاجعله اطواً في البحر الى
الموضع الذي تسميه واطرحه هناك فتأخذه . فكان حيرام يبعث اليه
بخشب الارز وخشب السرو على حسب ما اراد (١) .

« وارسل حيرام الفنان اللبناني الخبير بعمل الذهب والفضة والنحاس
والحديد والحجر والارجوان والسمنجوني والبز والقرمز وصناعة كل
نقش واختراع كل شيء يلقي اليه ... » .

وذهب حيرام الى اورشليم وقام باعمال تعجز الفن ، على ما
افاض الكتاب في تدوينه ، قال : « وصنع تاجين من نحاس مسبوك
ليضعهما على رؤوس العمودين سمك التاج الواحد خمس أذرع وسمك
التاج الآخر خمس أذرع . وكان للتاجين اللذين على رؤوس العمودين
حبات كصنعة الشباك وضافت كصنعة السلاسل سبع للتاج الواحد وسبع
للتاج الآخر . وصنع رمّانات فجعل صفين منها على محيط الحبيكة
الواحدة لتغطية التاج الذي على رأس العمود وهكذا صنع للتاج الآخر .
وكان التاجان اللذان على رؤوس العمودين في الرواق على شكل السوسن
كل واحد أربع أذرع . وكان تاجا العمودين بارزين من فوق البطن
الذي وراء الحبيكة . وكانت الرّمّانات مئتين للصفين المحيطين بالتاج
الواحد . ونصب العمودين في رواق الهيكل نصب العمود الايمن ووسمه
باسم ياكين ونصب العمود الايسر ووسمه باسم بوغز . وجعل شكل
السوسن على رؤوس العمودين . وتمت صنعة العمودين . وصنع البحر
مصبوكاً مستديراً قطره من شفة الى شفة عشر أذرع وسمكه خمس
أذرع ومحيطه خيط ثلاثون ذراعاً . وكان تحت شفته من كل جهة قناء
يحيط به لكل ذراع عشر على صفين ومحيطين بالبحر كله والقشياء
مصبوك معه في سبكه . وكان قائماً على اثني عشر ثوراً ثلاثة منها أوجهها نحو
الشمال وثلاثة نحو الغرب وثلاثة نحو الجنوب وثلاثة نحو الشرق والبحر عليها

(١) سفر الملوك الثالث ف ٥ عد ٨ - ١٠ .

وجميع مآخيزها الى الداخل. وكان ثخنه شبراً وشفته كأس على مثال زهر السوسن وكان يسع ألفي بث. وصنع القواعد العشر من نحاس طول القاعدة الواحدة أربع أذرع وسمكها ثلاث أذرع. وهذه صنعة القواعد كانت لها أتراس وكانت الأتراس في وسط أطر. وعلى الأتراس التي في وسط الأطر أسود وثيران وكروبوس وعلى الأطر من فوق الأسود والثيران ومن تحتها قلائد زهر متدلّية. وكانت لكل قاعدة أربع بكرات من نحاس بمحاور من نحاس ولزواياها الأربع أكتاف مسبوكة تحت المغتسل الواحدة بازاء الأخرى. وفمها من داخل الاكليل الى فوق ذراع وفمها مستدير على شكل مقعد اثناء من ذراع ونصف ذراع وعلى فمها ايضاً كانت نقوش غير أن أتراسها كانت مربعة لا مدوّرة. وكانت البكرات الأربع تحت الأتراس وخطا طيف البكرات في القاعدة وسمك البكرة الواحدة ذراع ونصف ذراع. وصنعة البكرات كصنعة بكرات العجلة خطا طيفها وأطرها وأصابعها وقبورها جميع ذلك مسبوك. وكانت أربع أكتاف في الزوايا الأربع من كل قاعدة وأكتاف القاعدة منها. وفي أعلى القاعدة تقبب مستدير على سمك نصف ذراع وأيد وأتراس منها. ونقش على ظاهر ايديها وعلى أتراسها كرويين وأسودا ونخيلا كما وصنع كل منها وقلائد زهور من حولها. كذلك صنع القواعد العشر لجمعها سبك واحد وقياس واحد وصوغ واحد. ثم صنع عشرة مغتسلات من نحاس كل منها يسع أربعين بثاً كل مغتسل أربع أذرع وكان على كل قاعدة من القواعد العشر مغتسل. وجعل القواعد خمسا على الجانب الايمن من البيت وخمسا على الجانب الايسر وجعل البحر في الجانب الايمن من البيت الى الشرق من جهة الجنوب. وصنع حيرام القدور والمجارف والجحانات. وفرغ حيرام من جميع العمل الذي عمله للملك سليمان لاجل بيت الرب. العمودين وطرقي التاجين اللذين على رؤس العمودين والحبيكتين المغطيتين لطرقي التاجين. والرمّانات الأربع مئة التي للحبيكتين صفين من الرّمّان لكل حبيكة لتغطية التاجين اللذين على العمودين. والقواعد العشر والمغتسلات العشرة التي على

القواعد. والبحر والثيران الاثني عشر التي تحت البحر والقدور والمجارف والجحانات وجميع الادوات التي صنعها حيرام للملك سليمان لاجل بيت الرب من نحاس مجلو» (١).

لم يقيم الفنانون اللبنانيون بصنع تلك التحف التي افاض «السفر» بتفصيل دقائقها الرائعة الا وقد كانت الصناعة بلغت عندهم شأوا اذاع صيتهم في البلاد القريبة والبعيدة فكانت صناعتهم في المعادن الثمينة لا تقل عن صناعتهم في القماش الارجواني، وفي النقش على انواعه.

الزجاج الشفاف

المصنوعات الزجاجية الشفافة على اختلاف الاشكال، تماثا المتاحف، والالواح الزجاجية على اختلاف الالوان تزيّن نوافذ الكنائس، يرجع فنّ اختراعها الى اللبناني - عهد فينيقيًا - كان الاقدمون - على الاخص في مصر - قد توصّلوا الى اختراع الزجاج صفيقاً ويصنعون منه الواحاً وصناديق وتوابيت قد يكون على جانب من المتانة، ولكن كان يصعب على الفنّ ان يتناول ذلك الزجاج الصفيق ويخرج منه تحفاً، الى ان جاء الصناع اللبنانيون واستفادوا من نقاوة الرمل المفروش على شواطئهم، فاخذوا يتقنون ويحسّنون حتى خرج من معاملهم زجاج شفاف لم يكن للناس عهد به من قبل. وعندما صنعوا الزجاج الشفاف اخذوا يتفنّنون بتلوينه بمختلف الالوان، من السماوي الازرق، الى القرمزي الاحمر، الى الزهر والاصفر.

واصبح الزجاج طيّعاً بين ايديهم فاخرجوا منه ما شاء لهم الفنّ من آنية مزخرفة، وأكواب وزهريات واباريق، واطباق وكؤوس ومرايات، والواح حتى بلغت صناعته اوجاً حمل الشعوب على الاقتداء

بها ، فكانت التحف التي اخرجها الاغريق والرومان والبيزنطيون ،
وتبعهم فيها الاوروبيون في العهد الحديث .

كما اغمط كتاب الاقدمين من الاغريق ورومان فضل اللبناني -
عهد فينيقيا - في كثير من اكتشافاته واختراعاته ، هكذا مروا بالزجاج
الشفاف ذاكرين اختراعه باشارة يكتنفها الشك والغموض ، الى ان
جاءت الحفريات وما وجد فيها من اثار تعيد الحق الى ذويه وتنشر ما
انطوى من مآثر اللبنانيين الفينيقيين .

في اوائل الالف الثاني قبل المسيح بلغت صناعة الخزف أوج كمالها
فاستخدم اللبناني الدولاب في قولة الاباريق والاولاني فحسّن في اشكالها
وهندستها وتنسيقها فجاوز الخزافون اللبنانيون ما وصلت اليه الصناعات
المجاورة ، مصرية كانت ام كريتية ام قبرصية ، التي كانوا قد استوحوا
اطرزتها . وقد زاد هذا الفن تطوراً بعد ان صقلت المصنوعات الخزفية
بالقصدير . وكان النحت يتطور بخطى متوازية .

واشتهروا بفن الزخرفة ومن ابرز ما صنعوه في هذا الحقل ، قصر
آحاب في السامرة وقد زينوه بنقوش رائعة من العاج حتى ان القصر
كان يُعرف ببيت العاج . وكانت سيدة هذا القصر اميرة من صور .
وكانت غرف القصر مغلقة بخشب من الارز المطعم برسوم والواح
من العاج .

وزين الفينيقيون بالعاج كذلك القصر الذي وجد في حفريات
مجدو (تل المتسلم) وتاريخه يعود الى القرن الثاني عشر قبل المسيح .
اما في حقل اعدن فقد بلغ اللبنانيون شأواً بعيداً فاستخدموا النحاس
والبرونز والحديد وحتى الفولاذ كما اظهرت حفريات رأس شمرا .
ولما لم يكن في ارضهم معادن ثمينة كالفضة والذهب فقد مضوا على
ظهور السفن يستقدمونها من الشواطىء عن طريق المياضنة ، حتى اقاصي
المتوسط .

حروف الهجاء

الثورة التي حققتها المطبعة على الحجر في تدوين الكلمة دون الثورة
التي اشعلتها « حروف الهجاء » على الكتابة الهيروغليفية او المسمارية .
كان العالم القديم اذا شاء التعبير بالكتابة عن شيء يصوره تصويراً ،
ان اراد ذكر البيت صور بيتاً . وان قصد جملاً صور الحمل ، وان
شاء ان يشير الى خمسين ناقة صور خمسين ناقة .
تلك كانت الكتابة الهيروغليفية او التصويرية المتبعة في مصر .
وكانت شعوب « ما بين النهرين » تعتمد طريقة لا تقل صعوباتها عن
الاولى فتلجأ الى الكتابة المسمارية (١) .

اللبناني والنجمة الفينيقية (اللبنانية)

لم يكن اختراع الزورق والمجداف كافياً لاستخدام البحر طريقاً
الى شواطئه وجزره القريبة والبعيدة ، على اختلاف المواقع ، بل كان

(١) الكتابة المسمارية التي استعملها الاشوريون والماديون والفرس هي عبارة عن خطوط
يدل كل شكل منها على اسم .

عقبة في سبيل الفكر صدمت الفكر واسوار كثيفة حالت دون انطلاقه الى ان جاء
اللبناني - عهد فينيقيا - فلم توقفه العقبة ، ولا صده السور . اعتمد الصوت الذي يسمعه في
النطة فجعل كل نطق رسماً خاصاً هو الحرف الذي لا يدل بحد ذاته الى شيء . قال « اب » فوضع
اللفظة الاولى حرفاً بشكل « آ » ولللفظة الثانية حرفاً بشكل « ب » ومن تركيب الاحرف
وجدت الكلمة ومن الكلمات تألفت الجملة التي تفيد معنى معيناً . وهكذا كانت « الاحرف
الهجائية » وعددها ٢٢ ثورة عارمة اجتاحت الهيروغليفية والمسمارية ، وذلت العقبات ،
فانطلق الفكر من عقاله واتسع المجال للتعبير والافصاح والانتاج .

اقدم نص لهذه الحروف اكتشفته الاثار منقوشاً على ناووس احيرام ملك جبيل
المتوفي في القرن الثالث عشر قبل المسيح . وقد عثر على بعض الكتابات على الخناجر والاولاني
الحجرية في جبيل ترجع الى قبل ذلك العهد .

وعز الحروف الهجائية اللبنانية الفينيقية اخذ العالم القديم والحديث حروف هجائه فقد
نقلها بحارة لبنان وتجاره الى حيث نزلوا . وعن هذه الاحرف اخذ اليونان ثم الرومان
ابجديتهم محتفظين بمعظم اسمائها الاصلية .

بالحرف ازدهر العلم والشعر والفلسفة ، فكانت « حروفنا الهجائية » السلم الذي ارتقت
على درجاته حضارة العالم .

لا بدّ للنوتي من معرفة وجهة السير حتى لا يضلّ الطريق .
في النهار كانت الشمس تدل على الجهات الاربع ، فيسهل على
النوتي اذا وقف ووجهه الى مشرق الشمس ان يعرف ان الغرب وراءه
وان الشمال الى شماله والجنوب الى يمينه .
اما اذا ارخى الليل سدوله ضلّ وجهة سيره فالابرة المغناطيسية
في البوصلة لم تكن عُرِفَت في ذلك الزمان .
ومنذ ان اطل الانسان الاول على الحياة ، وانفتحت عيناه على
النور ، كان يرى في كبد السماء نجوماً تتلأأ في الليل ولا يفهم من
سيرتها شيئاً .

الى ان جاء الملاح اللبناني وراح في ليلاه الصافية يحدّق في الفلك
ويرقب نجومه حتى اكتشف نجمة تهديه الى الطريق .
ذلك انه تبين في السماء ظاهرتين : كوكبة كبرى في شكل شاحنة
تضيء جوانبها الاربعة نجوم اربع ويعلق في الشاحنة ذيل مستطيل ذو
نجوم ثلاث .

كوكبة صغرى في وضع معاكس للاولى ، وهي مثلها شاحنة
تصوّرها نجوم اربع ، وقد تدلّ على حافتها ذيل تمده نجوم ثلاث .
وتبين للنوتي في مراقباته المستمرة في طرف ذيل الكوكبة الصغرى
نجمة تتجه دائماً الى الشمال لا تحيد عنه ، ولا يتغيّر مركزها بتغيّر الفلك .
عندما تأكد للبحارة اللبنانيين ان تلك النجمة تدل في الليل على
جهة الشمال ، كما يدل طلوع الشمس في النهار على جهة الشرق ، اصبح
من السهل عليهم تحديد الجهات الاربع في الليل : النجمة تدله على الجهة
الشمالية ، فيعرف ان الجنوب الى يمينه ، والشرق في وجهه ، والغرب
وراءه .

تلك هي « نجمة القطب » التي اطلق عليها كتبة اليونان الاقدمون
اسم « النجمة الفينيقية » نسبة الى مكتشفها الفينيقي اللبناني .
وهما الكوكبتان اللتان اسمها العرب الدب الاكبر والدب الاصغر .
هكذا تسنى للاسطول اللبناني القديم ان يحكم السير في البحر المتوسط

على شواطئه الاسيوية والافريقية والاوروبية ، وان يطوف في ثغوره
وجزره من مضيق الهلسبون (الدردنيل) الى مضيق اعمدة هر كول
(جبل طارق) ويعبر المضيق الى الاوقيانوس ، ومنه الى العالم الجديد
قبل كولومبس بآلاف السنين .

ويقول سترابون : « ان الفينيقيين اتخذوا بنات نعش الكبرى هادياً
في اسفارهم البحرية وعلموا الاغريق هذه الطريقة ، كما تعلمها عوليس
من كاليبسو على ما ورد في الكتب الاوروبية ، وهكذا كان عوليس
يهتدي بهذه المجموعة من النجوم التي لا تأخذ حماماً في مياه المحيط » .

اَسَاطِيرُ لُبْنَانِيَّة

اسطورة ادونيس وعشروت

كان لبنان مسرحاً للآلهة قبل ان يكون موطناً للبشر (١) . وكان مسرحاً للآلهة تلهو في ربوعه وتنعم بجماله ، وقد خلّد نهر ابراهيم اسطورة عشروت وادونيس اله الحب والهة الجمال . وقد بلغ تعشق الجمال في صميم اللبنانيين القدامى حداً جعلهم ، منذ تنظيم مجتمعاتهم ، يربطون بين الجمال وفكرة الحياة بعد الموت .

نهر ابراهيم وواديه ، هضابه وضواحيه ، شواطئ جبيل وعلاليها ، ارض زها فيها جمال « عشروت » وبقعة اشعلها حب « ادونيس » . هو الحرم الذي قدّسه « الجبيليون » وحجّ اليه اللبنانيون ، ذكرى لذيتك الحب والجمال الالهيين .

ادونيس فتى الهوى والصبا ، فلق الصبح على جبينه ، اشعاع الهوى في عينه ، املد العود ، ناعم البشرة ، بسام الثغر ، يتهادى على عرش جماله ، تغرّد له الاطيار ، في مجيئه ورواحه ، بين مغارة افقا والغينة ، على قمم النهر المقدّس ، يتنقل « ادونيس » في تلك الاحراج الغضة ، وبين تلك الاشجار الظليلة يقنص الوحوش ويتصيد الطيور ، مثيراً لهب التدله في احشاء الناظرين اليه من الآلهة الحسان .

ومن أحقّ بحب ذلك الفتى الجميل من « عشروت » آلهة الجمال . رأته « عشروت » يتنقل وحيداً في تلك الارض الموحشة ، يحمل النبل والقوس بغية الصيد والقنص ، جريئاً مقداماً ، غراً لعوبا ، لا لايأبه بالكواسر ، ولا يخشى الاسود والنمرة وقد امتلأت بها بطون الغاب .

(١) في جوار نهر ابراهيم ، او نهر ادونيس ، اكتشفت ادوات تعد بالآلاف ترجع الى ثمانين الف سنة .

اعترضته «عشروت» في طريقه وسدّت عليه المسالك ، فاذا هو امام روعة من الحسن وسحر من الجمال ، ونار من العيون . فهوى واستهوى ، وزغردت عصافير افقا تغني اناشيد الحب والهيام . وما ان صدقت «عشروت» حقيقة ظفرها بحب من غلقت ، حتى زاد خوفها عليه في تلك المخاطر ، يركب فيها الهول بين وحوش كاسرة عمياء لا تهيم بحسنه ولا تسجد لجماله . فاستحلفته متوسلة باكية ان يكفّ عن المغامرة للصيد والقنص في تلك الغابات الرعية فابتسم «ادونيس» مدلاً بقوة في ساعده وشجاعة في نفسه .

رأت رفيقات «عشروت» وسمعت . فهاجت الغيرة في صدورهن . فاقسمت الآلهات لتنتقم من «عشروت» في حببها «ادونيس» . واثارت ابلغهن حقداً ، واوسعهن كيداً على «ادونيس» وحشاً ضارياً كمن للاله الفتى في احد منعطفات ذلك الوعر من ارض «الغينة» . وما أن مرّ «ادونيس» ترتحه احلام الحب والسعادة حتى هجم عليه الخنزير خدعة ، فعضّه بنابه والقاه على الحضيض يتخبط بدمه .

اهتزت سحائب السماء ، وتقلقت صخورات الارض ، فاختلجت احشاء «عشروت» واذا هي امام ذلك المشهد الرائع ، والابتسامة لم تفارق ثغر «ادونيس» وهو يلهث بالنفس الاخير . فأكبّت عليه تعانقه وتبكيه صارخة : «ادونيس . ادونيس» .

فارق «ادونيس» الحياة . فمسحت «عشروت» بدمه زهرة في قربه فجرى دمه في تلايف الزهرة فكانت شقائق النعمان ، واسميت «عشروت» «الزهرة» .

وما زالت الزهرة «عشروت» تبكي وتنتحب طوال الايام والليالي حتى ضاقت التربة بتلك الدموع السخية تجري انهاراً ، فتفجرت ينباع من جوف مغارة افقا الملتحفة بأسرارها العلوية . والمياه في مخرجها

(١) تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار - للاب هنري لامنس - ج ١ ص ٤٣

الصاخب ، وفي تكسرها على الصخور من منحدر الى منحدر ، تجدد عويل «عشروت» وتفجعها الداوي على الاله الحبيب .

عمرت جبيل بالسكان من بني البشر وروعة تلك المأساة تملأ جو تلك الانحاء .

فصعد الجبيليون الى افقا فرأوا الدموع تندفق نهراً ، ورأوا شقائق النعمان تتفجر دماً ، فأمنوا واقاموا الاعياد لذكرى تلك الفاجعة بالاله «ادونيس» اعياداً يحتفل بها سكان جبيل وضواحيها . ويقصدها الناس افواجا وزرافات من مختلف الانحاء . ثلاثة ايام تخلد ذكرى «ادونيس» ، فيوم لموته ، ويوم لدفنه ، ويوم لقيامته .

وقد جاء في «تسريح الابصار» وصف لتلك الاعياد ، ورد فيه : «وكانوا اذا قدم الحريف يحتفلون باعياد يدعونها «جنازة ادونيس» . ففي تلك الايام كنت ترى نساءهم يلبسن الحداد ويذهبن الى نهر ابراهيم المخصص لذكرى «ادونيس» فيجلسن على ضفتيه باكيات معولات يرثين موت الاله . وكان بعضهن يصبغن ذبولهن ويسدلن شعورهن ، ويسرن في شوارع جبيل معبرات شعثا يلطنن وجوههن ويولولن على تموز ويعنين الاغاني الشجية المبكية» (١) .

أخذ الاغريق والرومان عن لبنان آلهته ، فاسمى الاغريق «عشروت» (افوديت) واسماها الرومان (فانوس) ، وأوحت الاسطورة للفن معجزات لوحاته ، تزيّن متاحف مدريد وفلورنس وفيينا وباريس .

اسطورة الارجوان

وكان للارجوان اسطوره :
روي ان ملكاً من ملوك صور خرج الى التزهة على شاطئ المدينة برفقة زوجته وعندها كلب صغير ظريف لا يفارقها .

وما وصلوا الى البحر حتى راح الكلب يلعب ويقفز بين الصخور ويتسلى بالتقاط الاصداغ فيأكل ما يستسبح من حيوانات البحر الصغيرة . وعندما رجع الى صاحبه رأت ان فمه مصبوغ على شفتيه بصباغ قرمزي جميل فراحت وزوجها الملك الى المكان الذي كان يلعب الكلب فيه يفتشان عن ذلك السائل الاحمر الذي صبغ فم الكلب . فما وجدا الا ما الفاه في تلك الشواطىء من براعم واسماك واصداغ . وانتشر الخبر في المدينة فترأى الناس لمشاهدة الكلب في الاحمر الزاهي على شفتيه .

وانطلق الصيادون يفتشون وينقبون حتى اهتموا الى ذلك الحيوان ذي السائل الاحمر .

ومهما يكن امر تلك الاسطورة فالواقع هو ان الصياد اللبناني عثر على حيوان بحري لا فقار له وهو المسمى «موريكس» يسيل من عروقه سائل احمر عاجله الصياد وما انفك يجرب المزيج والتركيب حتى اخرج من ذلك السائل صباغاً ارجوانياً ثابتاً صبغ به القماش فاصبح القماش الارجواني افخر وشاح يرتديه الملوك والعظماء واجمل ستائر يزينون بها قاعات القصور وجدران الهياكل .

اسطورة نهر الكلب

في مضيق الجبلين الفاصلين بين المتن وكسروان ، يتدفق من مغارة جعيتا ويشق طريقه في الوعر الى مصبه في البحر بين ضبيه وصربا ، نهر صغير بحجمه ، كبير بتاريخه ، أطلق عليه اسم (نهر الكلب) ، ودعاه الاقدمون نهر الذئب (ليكوس) .

لنهر الكلب اسطورة اوحى بها الدور الذي لعبه ذلك المضيق في مجرى تاريخ لبنان .

روت الاسطورة ان ذئباً كان يربض على مصب النهر حارساً يقظاً . فاذا اقرب عدو أحس به الذئب ، وأخذ يعوي عواء يملأ الجو

صياحاً ، فيسمع اللبنانيون صوته فيهبون للدفاع عن المضيق ، يتنادون من قمة الى قمة ، ومن مقلب جبل الى مقلب جبل ، ومن واد الى سهل ، فيتوافدون زرافات زرافات ، فترتص صفوفهم كثيفة على معاير النهر وشرفات الضفتين ، يناصبون العدو القتال فيعجزه اقتحام المضيق . واذا أتى الحظ فاتحاً ولم يستطع صدّه اللبنانيون فغبر المضيق ، يقف الفاتح على الصخور القائمة على كتف المضيق ، فيرفع نصباً وينحت نقوشاً يخلد فيها ذكرى فتوحاته .

بدأها رعمسيس الثاني (حول ١٣٥٠ ق.م.) فنقش في الصخرة تمثال الملك وهو يذبح اسيراً يقدمه الى الاله .

وتعاقب بعده الظافرون من بابليين واشوريين ويونان ورومان وعرب واتراك الى ان جاءت حملة نابوليون الثالث سنة ١٨٦١ فنقشت ذكرها على صخرة الفرعون .

ونقش الانجليز بدورهم صخرة في الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨ كما فعل الجنرال غورو سنة ١٩٢٠ . وفي الحرب العالمية الثانية نقش الانجليز صخرة سنة ١٩٤٢ .

ولكل اسطورة في الميثولوجية مغزى ورمز . اسطورة نهر الكلب ترمز الى الروح التي احيت لبنان واللبنانيين منذ القدم ، روح التضحية في سبيل الاستقلال . حتى اذا جلت الجيوش الاجنبية عن البلاد ، ونشرت راية الاستقلال ، طوت صفحات الفتح بلاطة نقش عليها تاريخ الجلاء في ٣١-١٢-١٩٤٦ .

سلسلة احداث تروي حلقات تاريخ تنتهي الى خاتمة تضحيات

وآلام يسطع في ظلماتها الاستقلال التام نوراً لن ينطفئ عن مشارف لبنان .

ارقام النقش في نهر الكلب

- رقم ١ - البابليون (٦٠٦ - ٥٦٢)
- رقم ٢ - العرب (١٣٨٢ - ١٣٩٢)
- رقم ٣ - الرومان (٢١١ - ٢١٧)
- رقم ٤ - الفرنسيون (١٩٢٠)
- رقم ٥ - المصريون (١٨٦٠)
- رقم ٦ - الاشوريون
- رقم ٧ - الاشوريون
- رقم ٨ - الاشوريون
- رقم ٩ - الانكليز (١٩١٨)
- رقم ١٠ - الانكليز (١٩١٨)
- رقم ١١ - اليونان
- رقم ١٢ - اليونان
- رقم ١٣ - الاشوريون
- رقم ١٤ - المصريون
- رقم ١٥ - الاشوريون
- رقم ١٦ - المصريون
- رقم ١٧ - الاشوريون
- رقم ١٨ - الانكليز (١٩٤١)
- رقم ١٩ - الانكليز (١٩٤٢)
- رقم ٢٠ - لبنان (١٩٤٦)

النقش في نهر الكلب

المصريون : (١٣٠٠ ق.م. ، رعمسيس الثاني) الصخرتان

رقم ١٤-١٦ تمثلان الملك يذبح سجيناً كضحية الى الاله . اما الصخرة الخامسة ففوقها اثر نقشته حملة نابليون الثالث (سنة ١٨٦٠) .

البابليون : صخرة رقم ١ - نبوخذ نصر الثاني (٦٠٦-٥٦٢) مخرب مملكة يهوذا ، النقش سنة ٥٨٧ وفيه رواية موقعة وهذا هو النص : ثقة مني بقوة الالهين نابو ومردوخ نظمت حملة عسكرية ضد لبنان وقد جلبت المسرة والبهجة الى تلك البلاد بطردي كل عدو والقضاء عليه في طول البلاد وعرضها . وقد اجتزت ودياناً عميقة ، وفتحت لجيشي مسالك في الصخر ، وحيث اعترضني الصخر كنت افته . وهكذا انشأت طريقاً مستقيماً ممهداً لنقل خشب الارز . وقد وفرت لاهل لبنان الطمأنينة والسلام وازلت عنهم كل ما من شأنه ان يعكّر عليهم صفو الحياة . ولكي يعتبر كل طامع في ارضهم فلا تحدثه نفسه بالاعتداء عليهم فاني قد اقامت نصباً عليه تمثالي شاهداً انني الملك على هذه المنطقة الذي لا زوال للملكه .

الاشوريون : صخرة رقم ٦-٧ عليهما صورة ملكين اشوريين.

صخرة رقم ٨ (محطمة) مقبرة اشورية

صخرة رقم ١٣-١٥ صورة تشبه صخرة اسرحدون - ممحية

صخرة رقم ١٧ - تمثل الملك اسرحدون (ملك اشوري)

نقش مسماري . رواية نصر .

اليونان : صخرة رقم ١١ - قسم ممحي

الباقي منها : صورة افوكلس سليل تاسيان

صخرة رقم ١٢ - نقش يوناني لا يُقرأ

الرومان : صخرة رقم ٣ - (الامبراطور كركلا ٢١١-٢١٧

ب.م.)

في عهدَي الرومان والبيزنطيين

يصعب تفهم التاريخ في اسباب حوادثه ونتائجها اذا لم يقترن علمه بمعرفة الجغرافية من طبيعية واجتماعية واقتصادية وسياسية .
البقعة التي تمتد من روما وبلاد اليونان شمالا ، الى العربية السعودية واليمن والامارات المحمية على بحر عمان في الاوقيانوس الهندي جنوباً ومن بلاد العجم فالعراق فسوريا فلبنان شرقاً الى البحر المتوسط فوادي النيل الى قرطاجة غرباً ، تلك البقعة تضم في حدودها ما يدعى الشرق الاوسط .

القوم الذين كانوا نازلين من تلك البقعة في اقصى الجنوب ، على بحر عمان ، كانوا يحسبون قديماً ان العالم ينتهي على مكسر تلك الامواج . وكانت من جهة الشرق تغمر ارضهم مياه خليج العجم ، وتغمرها من جهة الغرب مياه البحر الاحمر . فلم يبق امامهم من اليابسة الا جهة الشمال يتجهون اليها .

هكذا هجر الجنوب القوم الذين عرفوا في ما بعد بالفينيقيين . اما الذين كانوا يسكنون في جهات الشرق وفي جهات الشمال فكان يستهويهم المنفذ الى البحر المتوسط وقد عرفوا ان وراءه الى الغرب ينسط وادي النيل الخصيب .

هكذا ملأت التاريخ القديم حركات تلك الشعوب تتدافع من الشرق والشمال في اتجاه الغرب . ويعمل الغرب على ردّ الهجمات التي تأتيه من الشرق والشمال . الاشوريون والكلدان من بين النهرين ، الفرس من ضفاف الخليج وبحر قزوين ، الحثيون واليونان والرومان من وراء جبال الامانوس ، والمصريون يحمون حدودهم الشرقية فيدفعون الجيوش تلو الجيوش على الاشوريين والكلدان والحثيين .

وسوريا ولبنان ، بحكم المركز الجغرافي ، كانا مسرح الاقتتال والتطاحن . على ان مناعة الجبال ووعورة المسالك ، وصعوبة العيش كانت

تساعد لبنان على الصمود للغزاة ايّاً كان سبيل الفاتحين .
هكذا وقف لبنان في وجه الفاتحين عبر الزمن . كان اذا استولى
الغزاة ، بعد طول حصار ، على المدن اللبنانية والثغور البحرية يفرع
ابطال لبنان واحراراه على القمم العالية فيعتصمون بانتظار دورة الدهر ،
حتى اذا تطرق وهن الى فاتح كروا من معقل النسور واستعادوا السليب
من ارض ومدن وثغور .

وعرف اهل الاراضي المجاورة ان لبنان في ذلك الشرق معقل
الحرية فكان اذا شنع الفتح في ارض ودمر وهدم تلجأ منها البقية القادرة
الى جبال لبنان في طلب الحماية والحياة .

ولما طلعت المسيحية في الشرق تستهدف القضاء على الوثنية ، واعتنق
امبراطور القسطنطينية عقيدة الدين الجديد ، فضاقت المسالك بالفئة
الوثنية العنيدة ، لم تجد البقية الباقية من الوثنيين حِمى يقصد اليه للاحتفاظ
بمحرمتها الدينية غير لبنان ملجأ كل ضعيف ، معقل كل ملهوف ،
حصن كل حرية (١) .

هكذا كان يحتفل المسيحيون في بيروت بقيامة المسيح . ويعيد
الوثنيون في جبل القيامة ادونيس في جو من الحرية التامة .
في مستهل القرن السابع للمسيح كان الشرق الاوسط من الوجهتين
السياسية والدينية على الصورة الآتية :

الامبراطورية — ولا امبراطورية غيرها — امبراطورية القسطنطينية
خليفة بيزنطية ، خليفة روما . كانت تضم الشرق الاوسط في حدود
سلطانها الرحيب . وكانت الامبراطورية قد شاخت بعد ان عمرت
اكثر من الف ومئة سنة ، منها بعد اقتسام الامبراطورية الرومانية ومنها
منذ انشاء روما وانتابت الامبراطورية الى جنب الشيخوخة اسباب
ضعف اخرى من الوجهة الدينية . فبعد ان حلت المسيحية في
الامبراطورية محل الوثنية اخذت الشيع والمذاهب تفرق بين شعوب

(١) فيليب حتي (تاريخ لبنان) .

الامبراطورية ومناطقها . مع ان الدين المسيحي جاء جامعاً خلافاً
لليهودية المنكمشة .

اما في الجهة الجنوبية من الشرق الاوسط — في البلاد العربية
فكانت لا تزال السيطرة الدينية للاوثان .

لبنان في عهدي روما وبيزنطية

ظلت دولة الرومان تتسع حتى أصبحت على عهد اغسطس وتراجان امبراطورية لم يسبق لها مثيل في البسطة والقوة . بدأت روما بالسيطرة على ايطاليا من ادناها الى اقصاها . ومن ثم اخذت بالامتداد غازية فاتحة حتى خفق النسر الروماني في الغرب على غالة (فرنسا) واسبانيا والجزر البريطانية . وانتشرت راية روما في الشرق على يوغوسلافيا والبلقان واليونان . وفي افريقيا على مصر حتى الاوقيانوس الاطلسي . وفي آسيا على ارمينيا وسوريا والعراق والجزيرة ولبنان وفلسطين وما بين النهرين . وقد نظم الرومان الادارة في ذلك الملك الشاسع تنظيمًا لا يزال حتى اليوم الاساس الذي بنت وتبني عليه الدول والكنايس تقسيماتها الادارية . وفصلت شرائع روما — من جهة التمتع بالحقوق المدنية والسياسية — بين الرومان وغير الرومان وقسمت الحقوق الى حقوق عامة وحقوق خاصة . فادخلت في الاولى حق الانتخاب وحق التوظيف وحق استئناف الحكم بالاعدام الى الشعب . وكان من الحقوق الخاصة الزواج الشرعي بمفاعيله ، كالسلطة الوالدية ، والتوريث ، وحق اقامة الدعاوى ، وحق التعاقد الرسمي ، وحق لبس البردة ، وحق اعطاء الشخص عدة اسماء كقولهم يوليوس بولس ، واميليوس بابينيانوس . وكان الرومان حريصين على الاستئثار بتلك الحقوق فلا يمنحونها الاجانب الا نادراً ولاسباب استثنائية . وعن الرومان اخذ اكثر الشعوب انظمتهم وتقاليدهم وعاداتهم .

ظهور المسيح

كان الرومان قد عرفوا شأن فينيقيا ، وخبروا قدر الحفدة في

قرطاجة ، فلما وصلوا الى لبنان سنة ٦٤ ق.م. بعد انتصارهم على قرطاجة واليونان لم يدخلوه دخول الفاتحين ولا حكموا فيه حكم الظافرين ، بل خصه كبار الامبراطورية منهم بميزات دلت على ما كان له عند روما من منزلة وتقدير .

لم يكد يمر زمن طويل على وصول الرومان الى لبنان وفلسطين حتى ولد السيد المسيح . وفي الثلاثين من عمره خرج الناصري يُعَلِّم ويشتّر فجاب انحاء فلسطين ، وتجاوزها شمالا الى جنوبي لبنان فطاف ضياعه وبلغ صور وصيدا فدخلهما داعياً اهلها الى ترك عبادة الاوثان والى الايمان باله واحد ، على ما ورد في الاناجيل (١) .

« ثم خرج يسوع من هناك وأتى الى تخوم صور وصيدا » (متى ١٥ و ٢١)

« فانصرف يسوع مع تلاميذه الى البحر وتبعه جمع كثير من الجليل واليهودية واورشليم وادوم وعبر الاردن ومن حول صور وصيدا جمع كثير وقد سمعوا بما صنع فاتوا اليه » . (مرقس ٣-٨ و ٧) . « ثم قام من هناك وذهب الى تخوم صور وصيدا ودخل بيتاً ولم يرد ان يعلم احد فلم يقدر ان يستتر » . (مرقس ٧-٢٤) .

واللبنانيون ، على اختلاف المذاهب والاديان ، حريصون على ذكر دخول المسيح الى لبنان وطوافه فيه معلماً مبشراً .

وانتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً في لبنان . فلما دخل بولس الرسول مدينة صور سنة ٥٧ وجد فيها كنيسة ومجماً . وتقلصت الوثنية رويداً رويداً من المدن اللبنانية ثم من القدس وكانت الجرود وبعلبك آخر معقل لها .

ما كان ليخطر للقائمين على الحكم في روما يومذاك ان اتباع الناصري سيخرجون بعد ثلاثماية سنة من دياميس روما المظلمة الى عرش القيصرية . أول من بدأ بتخصيص لبنان بعطف مأثور كان الامبراطور اغسطس

(١) مضت جماعات من صيدا وصور الى الجليل لتسمع تعاليمه .

قيصر . فقبل ان يرتقي هذا الامبراطور سدة العرش كان يُدعى ، على الطريقة الرومانية ، كايوس يوليوس قيصر اوكتافوس . انه حفيد يوليوس قيصر الكبير . ولد سنة ٦٣ ق.م. وفي سنة ٣١ ق.م. انتصر على خصمه انطونيوس حليف كليوباترة المصرية في موقعة « اكسيوم » الشهيرة وقد حال ذلك الانتصار دون تجزئة الامبراطورية الرومانية . فهلل مجلس الشيوخ في روما لذلك النصر ومنح الظافر الشاب لقب اغسطس (الكبير) ، وسلم اليه مقاليد الحكم ، واعطي اسمه احد شهور السنة فدعي الشهر الثامن منها « اغسطس » (آب) .

وقد سمي ذلك العهد « عصر اغسطس » لما تمّ فيه من جلائل الاعمال طيلة خمس واربعين سنة ، ولما لمع فيه من نوابغ امثال الشعراء هوراس وفرجيل واوفيد والمؤرخين تيت ليف وسلوست وغيرهم (٣١ ق.م. ١٤م) .

هو ذلك الامبراطور العظيم الذي أراد ان يُعلن تقديره للبنان في ماضيه وحاضره ، فأمر بتجديد بناء مدينة بيروت ، واطلق عليها اسم ابنته « جوليا » مقروناً بامنية السعادة ، فدعى المدينة « بيروت يوليا السعيدة » (جوليا فيليكس) .

واسدى الى اهلها تلك المنحة الاستثنائية وهي منحة التمتع بالحقوق المدنية والسياسية المحفوظ استعمالها للرومان ، ثم منح تلك الحقوق ذاتها مدينة بعلبك (هليوبوليس) . وواصل خلفاء « اغسطس » الرعاية للبنان فمنحوا حقوق الرومان اهم مدنه كصور وصيدا . وزار الامبراطور اديان لبنان فاستطاب السكنى في مدينة جبيل ، وشاقته الاحاديث عن عشروت وادونيس ، وأثارت كوامن شعوره تلك الحفلات التي كانت تقام لهما في وادي نهر ابراهيم المقدس ، فانخرط الامبراطور اديان في سلك عباد عشروت وأقام على عبادتها في روما حيث عرفت عشروت باسم « فنوس » .

وفي عهد اديان نبغ علماء وكتاب لبنانيون كان اوسعهم شهرة المؤرخ « فيلون الجبيلي » نسبة الى بلدته جبيل حيث ولد سنة ٧٠ للمسيح .

ولهذا المؤرخ مؤلفات عديدة أهمها « تاريخ فينيقيا » ، وطنه ، وتاريخ
الامبراطور اديان .

ومن الاباطرة الذين زاروا بيروت فسيسيانوس (٦٩ - ٧٩)
وابنه تيتوس (٧٩ - ٨١) وكونستنس (٣٣٨ - ٣٣٩) .

مدرسة بيروت

كان كلما اتسع مدى الامبراطورية وتنوعت الشعوب المنضوية
تحت لواء روما ازداد تعدد الشرائع ، حتى اصبح من ميسر الحاجة
عند الرومان ان يوجهوا عناية خاصة الى علم الحقوق وتدريبه وتنشيط
وضع المؤلفات فيه . فلم تلبث ان حظيت مدارس الحقوق وعلماء
الحقوق برعاية السلطة القائمة وعطف الاباطرة الخاص .

وكان من أهم المدارس مدرسة روما ومدرسة بيروت . وقد
احتلت هذه المركز الاول في الامبراطورية بفضل من نبغ فيها من
اساتذة وتلاميذ .

ابتدأت كلية الحقوق في بيروت بقاعة صغيرة الى جنب مكتبة
لاصقة بهيكل وثني تحول بعد انتشار المسيحية في بيروت الى كاتدرائية
في الموقع الذي تشغله اليوم كاتدرائية مار جرجس المارونية قرب ساحة
البرج .

وقد أخذت تمتد شهرة المدرسة منذ اوائل القرن الثالث - وبلغت
الأوج في القرن الخامس فطبق صيتها ارجاء الامبراطورية . كان
الطلاب يقصدون اليها من اوربا وارمينيا وقيليقية وسوريا وفلسطين
ومصر وسائر البلاد العربية . لقد أصبحت ، على حق ، المرجع القانوني
للامبراطورية الرومانية كلها .

من اشهر اساتذة مدرسة بيروت في الجيلين الثاني والثالث للمسيح
جايوس وبابينيانوس واوليانوس . وقد نشروا من على منبرها دروساً
كانت الى جنب مؤلفاتهم المعين الذي عرف منه علماء الحقوق ولا يزالون
يغرفون حتى اليوم طيلة ألف وثمانمائة سنة .

جايوس : عاش في اوائل الجيل الثاني للمسيح . وله مؤلفات عديدة
أهمها « القواعد » .

بابينيانوس (١٤٢ - ٢١٢ م) (١)

عرف الامبراطور سبتيموس سافيروس منزلة بابينيانوس في العلم
فعينه « قاضي القضاة » وهو اكبر مركز في الدولة . وخبر فيه نبل
الاخلاق والكفاءة الفذة فجعله مستشاره وصديقه الحميم .

وكان للامبراطور ولدان كاراكلا وجيتا . وقد تبين الوالد في
ابنه البكر كاراكلا شراسة الخلق وحب الاستئثار بالسلطة ، فخشي
منه على جيتا اخيه متى كبر الولدان . فلم يترك الامبراطور وسيلة الا
استعملها لتوثيق صلة المحبة بين الاخوين . فأنشأ لهما عيداً خاصاً دعاه
فيلادلفيا (صداقة الاخوين) . وكانت العائلة الامبراطورية تحتفل بذلك
العيد كل سنة . وضرب الامبراطور قطعة معدن منقوش عليها صورة
الأخوين ويد كل منهما في يد الآخر . على ان كل تلك الوسائل لم
تغير من طباع كاراكلا شيئاً .

وفي سنة ٢١١ توفي الامبراطور سبتيموس سافيروس فخلفه ولده
على سدة الملك واستبقيا بابينيانوس في مركزه الخطير . على ان كاراكلا
لم يلبث أن ثارت في نفسه شهوة الأثرة فصمم على قتل أخيه جيتا
للتخلص منه والاستقلال بالملك . وكان قد وقع بين الأخوين تباعد .
فدعا يوماً كاراكلا أخاه الى غرفة والديهما بحجة بإزالة التباعد
وتحقيق المصالحة والتقارب .

فلما دخل جيتا على والدته وثب كاراكلا عليه ، فاحتذى جيتا في
حضن والدته ، فهجم كاراكلا عليهما وبين ذراعي الوالدة فتك
كاراكلا بأخيه .

وما انفضح امر تلك الجريمة المنكرة حتى هاج الشعب وماج فخشي
كاراكلا سوء العاقبة فقصد الى مستشار الدولة بابينيانوس ، حجة العلم

(١) هو صهر سبتيموس سافيروس لزوجته الثانية جوليا دومنا .

والعلماء ، وتوسل اليه ان يبدي رأياً قانونياً امام مجلس الشيوخ يتحل فيه عذراً لكاراكلا تبريراً للجريمة . فأبت على بابينيانوس نبالة خلقه ان يدعن للأمر وأعطى الامبراطور جواباً ارسله مثلاً بقوله :

« أسهل على المرء ان يقتل أخاه من أن يجد مبرراً لقتله » .
فتار غضب كاراكلا على بابينيانوس وثنى على الجريمة الاولى بجريمة أخرى فأمر بقطع رأس بابينيانوس فقطع .
يعتبر العلماء ان بابينيانوس الملع نجم سطع في علم القانون . قال الاستاذ جاستون ماي في مؤلفه « الحق الروماني » (الطبعة الحادية عشرة ص ٥٢) ما خلاصته معرباً :

« كان بابينيانوس صديق الامبراطور سبتيموس سافيروس ومستشاره الحميم . وقد اسند اليه وظيفة قاضي القضاة . وكان بابينيانوس يعتبر في زمانه كما اعتبرته الأزمنة التالية أكبر متشرع عرفته روما » .

وقال (ص ٥٢٤) : « ان النظريات القانونية الواسعة الأفق بلغت الأوج في مؤلفات بابينيانوس وألقت على العلم ، بحسن الانتقاء والاختيار ، نوراً لم يعهد له مثيل من قبل » .

اوليانوس : ولد في صور سنة ١٧٠ م ، وتعلم على بابينيانوس فنبح في علم الحقوق وما عتّم ان صار ندّاً لمعلمه . فعُين أستاذاً مثله في مدرسة بيروت ، فوضع في الحقوق مائتين وثمانين مؤلفاً . وعُين في روما معاوناً لبابينيانوس في مجلس القضاء الأعلى ثم عين وصياً على ابن وطنه اللبناني اسكندر سافيروس الذي صار في ما بعد امبراطوراً فكان أول عمل أتاه ذلك الامبراطور أن عين وصيه القديم اوليانوس « قاضي القضاة » ومستشار الامبراطورية كما كان بابينيانوس على عهد سبتيموس .

لكن المنزلة التي بلغ اليها اوليانوس هاجت عصبية الناقمين من الرومان ولم يرق لهم أن يجلس على عرش القياصرة امبراطور لبناني ، وأن يقوم إلى جنبه لبناني آخر في أكبر مركز قضائي وأعلى مرتبة ادارية .

فما زالوا يكيدون لاوليانوس حتى توصلوا إلى الفتك به سنة ٢٢٨ . وتفصيل الخبر ان اوليانوس علم بمؤامرة الثائرين عليه ففرع الى قصر الامبراطور اسكندر سافيروس وأمر الحرس فأقفلوا الأبواب . فلحق به الثائرون ، واذا وجدوا أبواب القصر موصدة ، هجموا عليها فكسروها وتخطوا باحة القصر الى غرفة ومنها الى قاعة العرش حيث كان اوليانوس لائذاً بالامبراطور . فلما رأى الامبراطور الثائرين وما كانوا عليه من هياج نزع عنه وشاحه الارجواني ولف به صديقه ومواطنه اوليانوس وهو يعتقد ان هيسة العرش وحرمة الوشاح الامبراطوري ترهبان القتلة وتكسران من حلتهم . لكنهم هجموا على اوليانوس وأثنخوه جراحاً حتى قتلوه وهو بين يدي الامبراطور نفسه .
الامبراطور اسكندر سافيروس : ولد اسكندر سافيروس في عرقا من بلاد عكار سنة ٢٠٨ م . وهو يمت بالنسب من أمه إلى الامبراطور سبتيموس سافيروس وهليو جيل وكاراكلا وجيتا .

أخذ العلم والخلق الكريم عن وصيه وابن وطنه اللبناني اوليانوس . ارتقى العرش سنة ٢٢٢ ودام له الملك حتى سنة ٢٣٥ .
ان لاسكندر سافيروس في التاريخ صفحة من أجمل صفحات الأباطرة الرومانيين . ما أن استلم زمام السلطان حتى أحاط العرش بهالة من أهل العلم في مقدمتهم اوليانوس ويوليوس بولس ولم يكن يصدر شرعة الا بعد أن يأخذ فيها رأي مجلس استشاري يضم عشرين عالماً من علماء الحقوق .

من مآثره أنه أنشأ نقابات للعمال وللصناع ومنحهم حقوقاً تساعدهم على مزاوله أعمالهم وتسهل لهم النجاح والنوغ . ووجه عناية خاصة الى حاجات الشعب في المعيشة وأسباب الراحة ، وأغدق المساعدات والمرتبات على المعلمين والمزارعين والتجار . واهتم بتنظيم الجيش ورفع مستواه فألف كتيبة ممتازة من ثلاثين ألف مقاتل وأنشأ فرقة « الحرس » وجعل دروعها من فضة وذهب .

كانت دياناته الوثنية كديانة أسلافه . على أن سعة صدره وسعت

للمسيحيين مكاناً ، فباتوا على عهده يمارسون شعائهم الدينية ولا يصيبهم اضطهاد . وبلغت منه الرحابة انه أقام الكثيرين منهم في وظائف البلاط الامبراطوري .

وكانت تروق له تعاليم المسيح فنقش على كثير من المعاهد العامة الآية المسيحية القائلة « لا تعمل بالغير ما لا تريد أن يعمله الغير بك » . وكان الامبراطور اسكندر سافيروس في انطاكية حين جاءته الأنباء ان الجرمان سيتحركون على حدود الامبراطورية في اوروبا وانه يخشى خطرهم فبادر الامبراطور الى تعبئة جيش لجب زحف به الى حيث موطن الخطر ، فقطع غالية ، وعبر نهر الرين على جسر من المراكب وقبل أن يهجم على الأعداء وقع خلاف بينه وبين قواد جيشه على الخطة الواجب اتباعها ، وكانت الدسائس تدس على الامبراطور وتحاك المؤامرات فأتاح ذلك الخلاف الفرصة لثورة نشبت فقتل في معسكره سنة ٢٣٥ .

لم يقتصر لمعان لبنان في تلك الحقبة على علماء القانون ومدرسة بيروت ، بل امتد الى غيرها من المدن وإلى سائر فروع العلم والأدب خصوصاً إلى حقل الفلسفة فنبغ فيها « بورفيروس السوري » ، نسبة الى بلدته صور ، حيث ولد سنة ٢٣٢ م . ومن جميل تعلقه بوطنه ومفاخرته به ان اسمه كان في الأصل ملكوس ، نبذله باسم « بورفيروس » وهي كلمة يونانية تعني الأرجوان اشارة الى اختراع الأرجوان في وطنه اللبناني الفينيقي . ولم يكتف بهذه الاشارة حتى انتسب بنوع خاص الى بلدته فصار اسمه « بورفيروس السوري » . وقد كان وثيقاً وخصماً لدوداً للمسيحيين . فكتب ضدهم خمسة عشر كتاباً . وله مؤلفات عديدة غيرها في الفلسفة وقد نحا فيها نحو الفيلسوف افلوطين . وقد بلغ من احترام افلوطين له ان كلفه بمراجعة مؤلفاته وتنقيحها . توفي في روما سنة ٣٠٤ .

ولم يفقد اللبنانيون في عهد رومة وبيزنطية تقاليدهم في التجارة عبر البحار . فقام تجارهم ، خصوصاً من أهالي جبيل وبيروت وصور ،

يحملون مصنوعات البلاد وبضائعها ومحصولاتها وينقلونها كما كان ينقلها آباؤهم الى ثغور افريقيا واوروبا .

وقد اشتهرت بيروت في تلك الحقبة في حقل الاقتصاد فأصبحت مينأها مرفأ الشرق المتوسط يقصد اليها المسافرون من البلاد المجاورة ومصر واليونان وايطاليا وبيزنطية . وترد اليها تجارة ما بين النهرين والبلاد العربية ومنها تصدر الى البلاد الاجنبية .

وكان للتجار اللبنانيين محلات أنشأوها في الكثير من مدن ايطاليا واسبانيا وفرنسا . وكان أهم تلك المحلات في بوردو وليون واورليان وباريس .

وكثرت الجاليات اللبنانية في تلك الاقاليم حتى ان الجالية البيروتية في مدينة بوزولي (ايطاليا) في القرن الثاني ق . م . أقامت نصباً للمشتري الأعظم إله بيروت الوثني (١) .

ومن معجزات الهندسة والبناء في لبنان هيكل بعلبك . وقد تعاقبت عليه الدهور منذ الفنيقيين وقد ذكر المنقبون ان مهندسي الهيكل وبنائه وعماله كانوا على توالي العصور لبنانيين .

وقد زار لامرتين بعلبك فوقف مندهشاً أمام هيكلها الرائع وكتب في وصفه صفحات ممتعة ورد فيها ما تعريبه ملخصاً :

« أفقنا مع الشمس وهي ترسل أشعتها الاولى على هيكل بعلبك فتلقي على تلك الآثار الخفية أسرارها وهجاً من حياة فنية تتفنن الطبيعة في حفظه حيث تريد رغم تهديم الزمن . إزاء ذلك المشهد لا يبقى للمرء من قوة غير الصمت ، وهو يحس أن ما يشعر به يفوق الحاسات العادية . فوقفنا صامتين امام روعة تلك العواميد نقيس بالنظر قطرها وعلوها ويدهشنا ما نراه من نحت ونقش وتزيين ... » .

(١) روى القديس غريغوريوس اسقف طور انه لما اتى الملك جونتران بن كلوتير بن كلوفيس (٥٢٥-٥٩٣) لزيارة مدينة اورليان في فرنسا خرج الشعب لملاقاته داعين له باللاتينية والعبرانية والسريانية ، وهاتان اللغتان الاخيرتان كانتا لغتي الجالية اللبنانية ، مما يدل على كثرتها ومكانتها في تلك المدينة على عهد الملك جونتران .

وبعد أن أسهب في وصف ما رأى من مدهشات ومعجزات في ضخامة الحجارة والعواميد وفي تركيبها على علو لم يهتد العلم حتى الآن الى طريقة وضعها فيه قال : « على فرض أن الجنس البشري لم يتجاوز في تركيبه الحدود التي نجده عليها الآن ، فما يمنع ان يكون العقل البشري قد تغيرت حدوده . ما يمنع ان يكون الذكاء قد اخترع في تلك العصور وسائل ميكانيكية أشد اتقاناً من الوسائل الآلية الحاضرة مكنت الانسان -- وهو كأنه يلعب بقبضة رمل -- من تحريك أثقال لا يستطيع اليوم جيش عدده مئة ألف رجل من تحريكها . » ومهما يكن من أمر فبعض حجارة بعليك ، وطول الواحد منها ٦٢ قدماً وعرضه عشرون وضخامته خمسة عشر ، أعظم أثقال حركتها البشرية منذ بدء العالم . فان أضخم حجر في أهرام مصر لا يتجاوز ثماني عشرة قدماً .

« يا لسعادة الرجل الذي يتمكن -- كأن له أجنحة يطير بها -- من التحليق فوق الأعصر الخوالي فيحط -- ولم يأخذه الدوران -- على هذه البناءات المعجزة التي شادتها يد الانسان ، فيصوب من عليها الى أعماق الفكر الانساني ومضائره ، فتقيس عينه الطريق التي قطعها العقل البشري وهو يخطو متلمساً سبيله في ايام اختلط قسبها بديجورها من فلسفة ودين واشتراع وقد تكدست اجتهاداتها تثقل الأجيال ، ثم ينظر كالمسافر بجرأ إلى آفاق لا تظهر فيها الشواطيء فيتساءل في أي فترة من الزمن يعيش وما هي مظاهر الحقيقة والألوهية التي يدعو الله اليها الجليل الحاضر . لقد ذهبت وحدي أمس ووقفت على شرفة الهيكل في ضوء القمر أفكر وأبكي وأصلي ... »

وفي الجليل الرابع نبخ معلم الخطابة « ليانوس » وكان يدرس اصولها في انطاكية . ولا يبعد ان يكون ليانوس لبناني الأصل كما يدل اسمه ، فضلاً عن انه كان على اتصال وثيق بلبنان وله في بيروت اصدقاء بين علية القوم واساتذة مدرسة الحقوق وكان يرسل اليهم كتب التوصية بالتلاميذ الذين يوجههم الى بيروت وله عن تلك المدينة كتابات شائعة

تم عن عاطفة قل أن تكون لأجنبي غريب . ومن الملوك الذين ذاعت شهرتهم الامبراطور قسطنطين الكبير . وقد اضطر بعد وفاة أبيه إلى تنازع الملك وستة مطالبين بالعرش . فحاربهم حتى تخلص منهم الواحد تلو الآخر واستقل بالملك سنة ٣٢٣ م . ومما يؤثر عنه ان حرر الدين المسيحي من ربقة اضطهاد الوثنيين اذ نشر ، وهو لا يزال على وثنيته ، القرار المعروف بقرار ميلانو سنة ٣١٣ وفيه أطلق للدين المسيحي الحرية ، دون قيد ولا شرط . وعلى أثر استقلاله بالملك اعلن اعتناقه للمسيحية . وحارب البدع فأمر بعقد مجمع نيقوس سنة ٣٢٥ وفيه حرمت بدعة أريوس القائلة بعدم ألوهية المسيح .

وقد جعل قسطنطين الكبير بيزنطية عاصمة الملك الاولى وأطلق عليها اسمه فعرفت منذ ذلك الحين بمدينة القسطنطينية . وكانت وفاته سنة ٣٣٧ .

على أثر اعتناق قسطنطين الكبير للنصرانية تغيرت الاحوال الدينية في الامبراطورية . فأخذت أقوامها في مشارق الأرض ومغاربها تنهافت على نكران الوثنية والانضمام الى المسيحية . وراحت كل مدينة وكل قرية تحطم اصنامها وتضع مكانها تماثيل للدين الجديد . فلم يمض زمن حتى اصبحت الهياكل كنائس ، وانقلبت اعياد الأصنام أعياداً للقديسين . والناس على دين ملوكهم .

على أن ما ظهر في الدين الجديد من بدع وما قام فيه من شيع أدى الى البلبلة والاضطرابات في الامبراطورية فتفرقت وحدتها وتفككت تنظيمها فلما توفي الامبراطور تاودوسيوس سنة ٣٩٥ اقتسم ولداه الامبراطورية من بعده فاخضع الواحد بامبراطورية الغرب وعاصمتها روما واستقل الثاني بامبراطورية الشرق وعاصمتها القسطنطينية .

وقد اطلقت على امبراطورية الشرق اسماء عديدة منها اسم الامبراطورية السفلى ، وامبراطورية بيزنطية ، وامبراطورية القسطنطينية . وكانت اللاتينية لغة الامبراطورية الغربية . وكانت اليونانية لغة

الامبراطورية الشرقية الى جنب اللغة السريانية لغة الشعب . وظلت اللغة اللاتينية تستعمل للتدريس في المدارس العالية كمدرسة الحقوق في بيروت .

وفي نطاق امبراطورية القسطنطينية دخل الشرق محيط المتوسط بما فيه لبنان .

في الجليل الرابع كان الدين المسيحي قد انتشر في الامبراطورية الشرقية انتشاراً كبيراً واحتل الدين الجديد مراكز الوثنية بقعة إثر بقعة ، وبلغ لبنان فتغلغل بين قومه الوثنيين .

على أن الوثنية وجدت في لبنان معقلها الأخير فصمد فيه الوثنيون يمارسون شعائهم بملء الحرية ، وزاد عددهم فيه بمن انضموا اليه قادمين من الجوار ، وقد ابوا تغيير دينهم واعتناق النصرانية .

قبل ظهور المسيح كانت الوثنية — عدا اليهود الموحدين بالله — شاملة للعالم كله فلم يكن مجال لجعل الدين فارقاً بين الشعوب . وكان يقسم الناس بين عبيد وأحرار . فالعبيد لا حقوق انسانية لهم . والاحرار فئات تميز بعضهم عن البعض الآخر نسبة القدر من الحقوق التي كانت كل فئة تتمتع بها ، من مواطنين لهم الحقوق السياسية المؤهلة لاستلام الحكم ، الى اللاتين اصحاب حقوق سياسية ضيقة لا تجيز لهم ممارسة الحكم ، إلى أجنب يعتبرون رعايا في الامبراطورية لا يتمتعون بشيء من الحقوق السياسية .

فلما انتشر الدين المسيحي في الامبراطورية وقام فيها وثنيون ومسيحيون كان من الطبيعي ان يصبح الدين هو الجامع في كل من الفئتين .

ثم ظهرت لبدا بين المسيحيين فانقسموا مذاهب كالأريوسيين والنسطوريين واليعاقبة والمونوتيليين . وبلغ التعصب الديني او المذهبي حداً لم يبق معه مجال لسكنى عقيدتين او مذهبين في بقعة واحدة . فكانت كل أغلبية دينية او مذهبية في بقعة تضطهد الاقلية فيها .

وكان لبنان وحده الموطن الذي تسود فيه حرية المعتقد . فيه التقى

الوثنيون والمسيحيون . وفيه ظل كل فريق يمارس دينه حراً أميناً لا يتعرض لجاره في رأيه وعقيدته . وقد ظل هذا شأنهم طوال ستة أجيال . كان اللبنانيون مثلاً في بيروت يحتفلون بقيامة المسيح بينما كان اللبنانيون في جبيل وجرودها يحتفلون ببعث أدونيس ويرددون هزيج الأجيال للإله الجميل وحبيبته عشروت .

ومنذ ذلك العهد بدأ التنسك ينتشر في لبنان على غرار القديس انطونيوس الكبير في الصعيد المصري وكثرت المناسك بين صور وصيدا وفي البقاع وفي الشمال . وكان الزهاد فيها ينقطعون الى عبادة الله ممهدين الطريق أمام نشأة الرهبانيات .

كان تكاثر المؤلفات الحقوقية ، وتزايد القرارات الامبراطورية ، وتعدد المراسيم المحلية في طول الولايات وعرضها ، سبباً في اضطراب الشرائع وبلبله الأحكام . فرأى امبراطور القسطنطينية تاودوسيوس الثاني ان يعلن سنة ٤٢٦ « شرعة المراجع » بغية الحد من ذلك الاضطراب وتلك البلبله . فحصرت الشرعة المذكورة المراجع التي يمكن للقضاة الرجوع اليها بخمسة علماء هم أساتذة مدرسة بيروت : بابينيانوس واوليانوس وجايوس يضاف اليهم يوليوس بولس ومودستينوس . وقد ورد في الشرعة أنه إذا أجمع هؤلاء الأقطاب الخمسة على رأي فرأيهم واجب الاتباع . وإذا اختلفت الآراء يُعتمد رأي الأكثرية ، وإذا تعادلت الآراء يرجح بابينيانوس .

وظل القضاء يعمل بتلك الشرعة حتى ارتقى عرش امبراطورية الشرق يوستينيانوس الأول (٥٢٧-٥٦٥) فرأى ان شرعة تاودوسيوس الثاني لم تعد تفي بالحاجة ، فعمد الى إصلاح أعم تناول الشرعة والشرع . فوضعت القرارات والمراسيم في مواد تألف منها القانون المعروف بقانون يوستينيانوس سنة ٥٢٩ . وعين الامبراطور لجنة وكل اليها أن تأخذ من مؤلفات الأقطاب الخمسة النصوص والقواعد والنظريات التي تصلح ان تكون الأسس التي يبنى عليها تعليم الحقوق في المدارس والمستند الذي يستند اليه القضاة في أحكامهم ، والنور الذي يهتدي به

المشترع في قراراته ومراسيمه وشرعاته .
وكان من أبرز أعضاء اللجنة استاذان من مدرسة حقوق بيروت
وهما دوروتيس واناطوليس . وفي المرسوم الذي صدر بتعيين اللجنة
ذكر الامبراطور يوستينيانوس الأسباب التي دعت الى اختيارهما . قال
عن دوروتيس :

« دوروتيس الرجل المشهور والخطيب الكبير ومدير المال سابقاً
« استاذ الحقوق في مدينة بيروت البديعة ، وقد حملنا على استقدامه
« الينا وتكليفه المعاونة في هذا العمل ما اتصل بنا عن شهرته الذائعة
« وعن مجده » .

وقال عن اناطوليس :
« واناطوليس هو أيضاً استاذ مشهور عني بتدريس الحقوق في
« بيروت وقد استدعيناه للمعاونة في هذا العمل . وهو رجل ينتسب
« الى عائلة قديمة لها شهرتها في عالم القانون من والده لاينوسيو
« الى جده اودوكسيو » .

وقد قامت اللجنة بمهمتها فوضعت المجموعة القانونية المعروفة
بالحق اليوستينياني وهي مؤلفة من الديجست أو البديكت (الكليات)
عبارة عن خمسين مجلداً تحتوي على نصوص مأخوذة من مؤلفات
الأقطاب الخمسة لتكون الأساس الذي يبنى عليه الاشتراع والقضاء
والاجتهاد .

ثم الانستيتوتس (الحقوق الخاصة) وهي القواعد الموجبة في ما
يتعلق بالحقوق الخاصة بالاشخاص والأشياء كحق الملكية ووسائل
الحصول عليها بالارتفاق او بوضع اليد وبالوصية . وحق الارث
والموجبات والعقود . والموجبات الناتجة عن جرم أو شبه جرم أو عمل .
وأخيراً النوفيلس (المستجدات) وهي مجموعة القرارات والمراسيم
التي أصدرها يوستينيانوس بعد نشر الكليات والحقوق الخاصة . وقد
صدرت معظم المستجدات باللغة اللاتينية وصدر بعضها باللغة اليونانية .
والحق اليوستينياني هذا هو المرجع العام الذي يرجع اليه منذ ألف

وأربعماية سنة علماء الحقوق وأساتذة الكليات ، وقضاة المحاكم ،
في العالم القديم وفي العالم الجديد .

وهذا « الحق اليوستينياني » يعود معظم الفضل فيه الى مدرسة
بيروت لان ثلاثة من الاقطاب الخمسة اساتذة مدرسة بيروت في الجيل
الثالث وهم بابينيانوس واوليانوس وجايوس . واحداهم بابينيانوس
قطب الأقطاب ومرجع جميع العلماء بلا استثناء . ولان عضوي اللجنة
البارزين في الجيل السادس استاذان في مدرسة بيروت أيضاً هما
دوروتيس واناطوليس .

ولم يأفل نجم مدرسة بيروت خلال تلك الأجيال الثلاثة بل ظلت
منارة للعلم في الشرق على ما أثبتته الباحثون والمؤرخون .

وكان الأباطرة والكتاب اذا ذكروا بيروت في مراسيمهم وكتاباتهم
نعتوها بأجمل النعوت فقالوا : « المدينة الفاتحة الجمال ، المتناهية في
الأناقة » . وقد منح الأباطرة مدرسة بيروت الامتياز الفخري بأن تكون
مدرسة الدولة . وأطلقوا على أساتذتها لقب الأساتذة المسكونيين .

وقد وضع المسيو بول كولينه استاذ الحقوق في كلية باريس مؤلفاً
عن تاريخ مدرسة بيروت ورد فيه ما خلاصته : « ان الباحثين الذين
كتبوا عن الحق البيزنطي وعن الأصول التي يرجع اليها الحق الروماني
او تاريخ تعليمه أعلنوا جميعاً أن مدرسة الحقوق في بيروت سواء
نظرت اليها على عهد الدولة البيزنطية او قبل يوستينيانوس أو بعده تجد
انه كان لها المقام الأول في تعليم الحقوق . وكان الشرق يومئذ مبعثاً
للعلم لا يضارعه فيه الغرب . وفي الشرق كان نور مدرسة بيروت
أشد تألقاً وكان إشعاعها أبعد مجالا من مدارس الاسكندرية وقيصرية
واثينا وحتى من مدرسة العاصمة ذاتها القسطنطينية » .

وكتب زخريا أسقف ميتلين عن مدرسة بيروت ، في ما كتب ،
محاوره تصور انها جرت بينه وبين تلميذ جاء يدرس الحقوق في
بيروت ، قال مخاطباً التلميذ :

— ماذا حملك على ترك وادي النيل ومدينة الاسكندرية العظيمة

للمجيء الى هنا .
التلميذ : حملني حب القوانين الى « ام القوانين » جئت الى فينيقيا
حتى أعلم كيف فهم الحقوق المشترعون الرومانيون لانني أحب أن
أعلم الحق والقانون .

وقال في مكان آخر (ص ٧٩) « ولم تقتصر جامعة الطلاب في
مدرسة الحقوق يوماً على ابناء المدينة او ابناء سوريا و فينيقيا حتى ولا
على التلاميذ القادمين من الولايات المجاورة او من داخلية البلاد . كان
الطلاب يقصدون الى بيروت من كل الولايات التي كانت تتألف
منها امبراطورية الشرق في آسيا ، في افريقيا ، حتى في أوروبا » .
ومن نوابغ تلامذة بيروت الاسقف القديس غريغوريوس العجائبي
والبطريك القديس غريغوريوس النازيانسي وزخريا اسقف ميتلين
وسفيروس بطريك انطاكية اليعقوبي .

وبينا بيروت تلمع في الشرق حضارة ورقياً ، وتوزع كليتها
العلوم على شعوب الامبراطورية جميعاً اذا بزلزال هائل يجتاحها سنة
٥٥١ فيدمرها تدميراً ، فتصبح بعد ذلك العز قاعاً صفصفاً .

وقد ورد في كتاب كولينه (ص ٥٦) عن اغاتيا وصف لتلك
الفاجرة قال : « بيروت بؤبؤ عين فينيقيا نزع عنها جمالها الفتان .
قصورها الشاهقة التي طار صيتها في الأمصار زينة الفن والاتقان قد
تهدمت . لم يسلم منها قصر . لم يبق منها الا أنقاض . كثيرون من
أهاليها ومن الأجانب المقيمين فيها هلكوا تحت الردم . ومن أشد
فواجعها إبلاماً ان عدداً كبيراً من الشبان الأجانب المنتمين الى البيوتات
النبلية الممتازين بأدابهم العالية ، وقد قصدوا الى بيروت ليدرسوا فيها
الحق الروماني ، قد هلكوا أيضاً » .

وكان من المعروف ان لهذه المدينة خاصة لا تنازع وامتيازاً لا يعادله
امتياز ان فيها تلك المدرسة الذائعة الصيت » .

دمرت المدينة ولقي فيها حتفهم ثلاثون ألف نسمة . نقلت مدرسة
الحقوق الى صيدا بانتظار تعمير بيروت . وفي الواقع أعيد بناء المدينة

لا كما كانت عليه ، بل وفقاً لهندسة مماثلة . وكان قد تحدد موعد لتدشين
المدينة الجديدة والاحتفال برجوع الاساتذة إلى المدرسة فحال دون
كل ذلك أن حريقاً شب سنة ٥٦٠ فالتهم البنايات التي كانت أقيمت .

المسيحية

في أوائل الجليل الخامس حلت الديانة المسيحية محل الوثنية في معظم
الامبراطورية الشرقية ، لكن ازدياد البدع ما لبث أن مزق صفوف
المسيحيين أنفسهم . وكان أشد تلك المنازعات خطورة في الشرق
الأوسط ، حيث قامت الاربوسية والنسطورية والمونوفيسية والمونوتيلية .
كان الاربوسيون ينكرون ألوهية المسيح وقد حرّمهم مجمع نيقوس
سنة ٣٢٥ ثم مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ .

كان النساطرة يقولون بأقنومين مختلفين في السيد المسيح وينكرون
على مريم أنها والدة الله فحرّمهم مجمع أفسس سنة ٤٣١ .

وادعى المونوفيسيون أو « اليعاقبة » أن في المسيح طبيعة واحدة
فحرّمهم المجمع الحلقدون في سنة ٤٥١ . وقام منهم بطريرك انطاكية
سفيروس سنة ٥١٢ ، وكان من تلامذة كلية بيروت ، ودافع عن
العقيدة المونوفيسية فحرّمه مجمع القسطنطينية سنة ٥٣٦ .

وقال المونوتيليون بالمشيئة الواحدة فحرّمهم المجمع القسطنطيني
سنة ٦٨٠ .

وكان اليعاقبة في شمالي سوريا ينعمون بتأييد السلطات المدنية
فقويت شوكتهم ، وأخذوا يضطهدون من يخالفهم من المسيحيين في
العقيدة . وقد كان في أولئك المخالفين مارون الناسك ورهبانه وأشياعهم ،
وهم يسكنون جهات نهر العاصي .

وكان من المعروف في الشرق الأوسط أن لبنان من قديم الزمان
موئل حرية وأمان وملجأ كل أصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة
التي يعاشونها فيلقون جوراً منها .

فلما ضاق الأمر بالموارنة لم يبق أمامهم الا الهجرة . وكما فعل

« يذكر عن أنستاس القيصر أنه طرد من القسطنطينية راهبات كن
« يدافعن عن المجمع الخلقيدوني فقصدن لبنان واتخذن هن فيه
« مسكناً ، وعطرته يعرف فضائلهن » .

المردة

وفي ذلك العهد يذكر التاريخ وجود قوم في لبنان عرفوا باسم
« المردة » ومؤرخو العرب يسموهم « الجراجمة » .

اختلف الباحثون في أصل المردة وتاريخهم . على أن المعروف عنهم
أنهم فئة من اللبنانيين ، أدغمهم بعض المنقيين بالموارنة . وجاء في
مطول « لاروس » أن المردة هو اسم الموارنة القديم . وقيل فيهم إنهم
كانوا رجال حرب ، شديدي البأس ، مرهوني الجانب ، وقد أقاموا
وتناسلوا في لبنان يمنعونونه حصناً ويصونونه معقلاً حتى ورد في بعض
المؤرخين نعتهم « بالسد النحاسي »

ومهما يكن من أصل المردة ونسبهم فلم يذكر عنهم أعمال تؤثر
إلا في لبنان . فصفحة تاريخهم صفحة لبنانية . شأنهم فيها شأن من
عرفوا قبلهم باسم فينيقيين وانحصر تاريخهم بلبنان .

ولئن لم يكن المردة والموارنة ، شعباً واحداً فقد امتزجوا امتزاج
الماء بالخمير (تسريح الابصار ج ٢ ص ٤٨) .

ومن لبنان انتقلت جالية مارونية الى قبرص - في القرن الحادي
عشر وبنّت فيها ثلاثين ضيعة وجالية الى رودس على عهد الفرسان
وجالية الى مالطة حفظت اللغة العربية حتى القرن السادس عشر .

النهاية

كان الضعف الذي اعترى الامبراطورية الشرقية يزيد تفاقماً حتى
اختلفت آلة الحكم ، وتقلقت قوى الجيش ، فأصبح ذلك الملك الواسع
العظيم هدفاً لمطامع الجيران . وقد ساعد على تفكك عرى الامبراطورية
نشوء البدع والخلافات التي فرقت بين المسيحيين . وشعرت الشعوب

الوثنيون فعل الموارنة . هجروا إلى لبنان في أواخر الجيل السادس هرباً
من اضطهاد اليعاقبة . وفي لبنان تسنى للموارنة أن يجدوا الحرية التي
جاؤا ينشدون . فأقاموا بأمان يمارسون شعائرهم الدينية براحة واطمئنان
وأخذوا يبشرون بدينهم ومذهبهم أهالي لبنان . فما عتموا أن استمالوا
معظم السكان . فسهلت وحدة الدين اندغام القوم حتى أصبح الجميع
يشعرون أنهم شعب لبناني واحد يتضامن في السراء والضراء ، لا يفرق
بينهم دين ولا مذهب .

وكان العبيد في تلك الأيام يملأون المدن والقرى فلا يخلو بيت وجيه
من عبيد . والعبد ، على ما هو معروف ، كان في بيت سيده متاعاً
يتصرف فيه على هواه ويسوم السيد عبده الظلم ألواناً ، ويذيقه العذاب
أشكالاً حتى القتل ولا من يسأل السيد عن عبده .

ولم يكن كل العبيد من سود افريقيا بل كان الكثيرون منهم سبائا
حروب وقد استعبدوا رجالاً ونساء ، فتيناً أولاداً وبنات ، من مختلف
الشعوب وجميع الطبقات . كل أولئك العبيد والمستعبدين كانوا يرزحون
تحت أثقال الظلم . فكان اذا أسعف الحظ بعضهم ، فر إلى لبنان في
طلب الحرية لا تداً بحماه ممتنعاً في جباله لا تصل اليه يد الاضطهاد .

هكذا - من الوثنيين ، الى الموارنة ، الى العبيد ، الى المستعبدين -
كان يلجأ الى لبنان كل من لحق به جور في البلاد المجاورة لسبب ديني ،
أو لسبب زمني ، أفراداً وجماعات .

أولئك جميعاً على اختلاف الأديان والملل والشعوب والمذاهب ،
كانوا يهجرون السهول الواسعة والمروج الزاهية ، قاصدين إلى أودية
لبنان وأغواره وأنجاده وصخوره مكتفين من العيش فيه أنه موئل
للحرية ومعقل للأمان .

وهذا ما أشار اليه كتاب « لبنان » ، الذي وضع أثناء الحرب
العالمية الأولى تحت اشراف اسماعيل حقي بك التركي ، وقد ورد
فيه جرفياً :

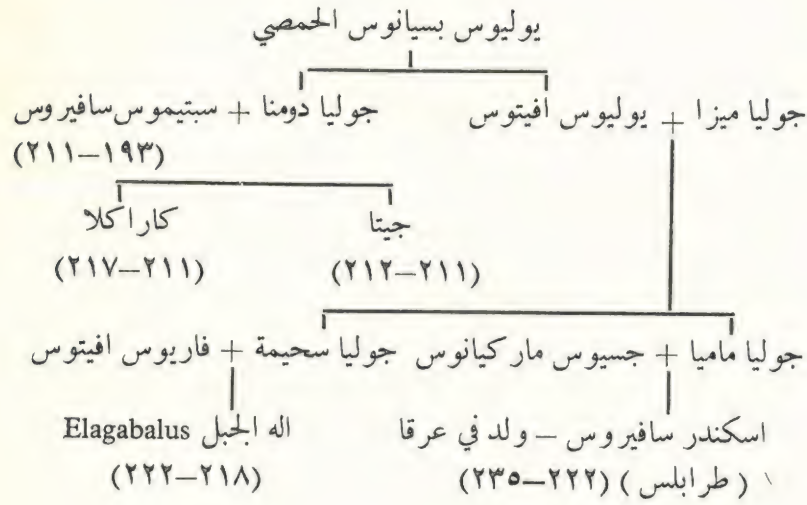
« كان لبنان منذ ذلك العهد (٥١٧ م) ملجأ للطرداء . فالتاريخ

المجاورة بذلك الضعف فاستقوت وحاولت أن تعتدي على حدود الامبراطورية ، وكان الفرس أشد هولاء خطراً فأخذوا يشنون على أطراف الامبراطورية غارات متتالية في الجهات الشرقية الشمالية من البلاد الشامية . وقام كسرى انوشروان سنة ٥٤٠ بحملة قدرت بتسعين ألف مقاتل . جاء عن طريق منبج (هيارابوليس) في اتجاه حلب (بيره) فاحتلها وأحرقها وواصل زحفه على انطاكية ففتحها ودخلها ظافراً . وظل الفرس ينتقلون من فتح الى فتح حتى دخلوا اورشليم سنة ٦١٤ واستولوا فيها على عود الصليب .

على أن الامبراطور هرقل تمكن بعد معارك دامت سنوات من اجلاء الفرس واسترجاع عود الصليب واعادته الى اورشليم سنة ٦٢٨ أو ٦٣٨ . والمسيحيون لا يزالون يحتفلون بتلك الذكرى في ذكرى عيد الصليب في ١٤ ايلول من كل سنة .

لكن ذلك النصر لم يُعد الى الامبراطورية قوتها ولا استرجع لها هيبتها . بل كانت تلك الجهود المتواصلة وتلك التضحيات المرهقة التي كلفها النصر عاملاً قوياً في ازدياد انحطاطها ، خصوصاً في ذلك الاقليم من الشرق المتوسط . فأصبح الملك على ذلك الضعف والانحطاط لقمة سائغة مهد انهيار السلطة للغزوة العربية .

شجرة الامرة السورية اللبنانية



الفتح العربي والصليبيون

لبنان والفتح العربي

كان العرب في الجزيرة قبل الاسلام يدينون بالوثنية . وكان مجموعهم يجهل كل شيء عن الاله الواحد وصفاته فقيل فيهم « الجاهلية » . وكان صنمهم الاكبر في مكة يحجون اليه . وكانوا قبائل موزعة بين بدو وحضر . فالبدو أهل البادية يتزلون الخيام ويرحلون من مكان إلى مكان وفقاً للحاجة وسيراً مع فصول السنة . والحضر سكان المدن وأهمها مكة ويثرب . وكانت مكة مركز التجارة ، ويثرب مركز الصناعة . وكانت القوافل تروح وتجيء بين البحار المحيطة بالعرب من بحر عمان جنوباً الى خليج العجم شرقاً ، الى البحر الأحمر غرباً الى الأبيض المتوسط شمالاً ، ومنها شبه الجزيرة العربية .

وكانت القوافل تنقل وتروي ما ترى وتسمع عن كل بلد تصل اليه وتتاجر معه . وكان أهمها قوافل خديجة . وأجمع الحديث على فيض الخيرات والعمران في البلاد السورية فلقبها العرب « ببلاد الحمر والحمر » . ونقل رواية القوافل الشيء الكثير عن ظاهرات التفكك التي كانت تبدو على الدولة البيزنطية ، خصوصاً في تلك المنطقة ، حيث كانت المسيحية قد حلت محل الوثنية . وكانت الانشقاقات والمنازعات بين المسيحية قد بلغت حدّها وزادت في تفكك السلطة .

في ذلك العهد ، في مستهل القرن السابع للمسيح ، جاء محمد (صلعم) يدعو قومه الى ترك عبادة الأوثان ، والايمان بوحداية الله . فلقيت دعوته في البداية مشقة منتظرة بين اولئك الوثنيين ، فاضطر الى هجر مكة والالتجاء الى يثرب (المدينة) . ومن ثم قيل « الهجرة » وقد وقعت سنة ٦٢٢ ، وهي بداية الحساب الهجري .

ما عتمت الدعوة ان انتشرت وأخذ بها الكثيرون فالتف حول

محمد (صلعم) الأنصار وما زالت تقوى شوكتهم حتى تمكن من الرجوع على رأسهم إلى مكة ظافراً سنة ٦٢٩ . فحطم الأصنام وألغى عبادة الأوثان وأقام الاسلام على أنقاضها .

نفخ الدين الجديد في العرب روحاً جديدة فنشطوا الى مناوأة الروم . وكانت قد ضعفت شوكة الامبراطورية البيزنطية . فكانت المناوشة الأولى التي فاز فيها العرب سنة ٦٣٣ . فأثار الفوز في نفوسهم طموحاً فجمعوا جموعهم وأطلقوا هجوماً عنيفاً على جيش الروم سنة ٦٣٦ فسحقوه على اليرموك وهو من روافد نهر الأردن في فلسطين . وابتسم النصر للعرب فساروا من ظفر الى ظفر حتى تمكنوا من اجلاء الجيوش البيزنطية عن البلاد الشامية ، ثم عن الاقطار العراقية ، وبلغوا وادي النيل فاحتلوه سنة ٦٤٠ ، كما احتلوا بعدها بلاد فارس . وكان على رأس الفاتحين قواد حفظ التاريخ اسماءهم بالتقدير والاعجاب كخالد ابن الوليد وعبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص . عين عمر بن الخطاب معاوية والياً على سوريا ٦٣٩ . فرأى ان الروم بعد تلك الانكسارات التي منوا بها لن يستطيعوا الى تهديد العرب في البر سيلاً . لكن للروم اسطولاً في البحر لا يستهان به ، والشواطىء عرضة لهجمات الاسطول اذا لم يحمها اسطول اقوى . فلم يكن بد من الاستعانة باللبنانيين اسياد البحر القدماء ، لان البدو اهل مراس وشكيمة في الصحراء وفي حروب البر ، لكنهم لم يألفوا ركوب الاساطيل وخوض البحار .

بنى اللبنانيون الاسطول المطلوب واطمأن اليهم معاوية في القيادة والملاحه ، وشاء ان يشجع الجنود العرب على قحم المياه فتزل بنفسه الى السفينة الاولى مصطحباً امرأته وحاشيته . فكان يوم تدشين الاسطول برئاسة معاوية يوماً مشهوداً . واتحد الاسطول المبحر من الموانئ اللبنانية بالاسطول الجاهز في المياه المصرية . وكان عمرو بن العاص قد فتح وادي النيل . والتقى الاسطولان بالاسطول الرومي على شواطىء بحر ايجه ، فكان النصر للعرب .

ولما نشر الفتح رايته المظفرة على سوريا والعراق ومصر وفارس اخذ سكان تلك البلاد ، على ما جرت به العادة ، يدخلون في دين الفاتح افواجاً . وكان الدين الجديد في انطلاقه كالدين المسيحي تبشيراً عالمياً لا ينكمش على قومية او عنصرية ، ولا يفرق بين عربي وغير عربي وبين اقليم وآخر ، معتبراً ان المسلم اخ للمسلم ، تمشياً على القاعدة التي سنتها تعاليم النبي وارشاداته (١) .

وظل لبنان في معظم ارجائه مقيماً على مسيحيته ، محتفظاً بحريته الدينية والمدنية . وكان اكثر من لم تمل بهم الدعوة او الرغبة الى تغيير ديني وشاءوا البقاء على مسيحيتهم في تلك الاقطار يقصدون الى لبنان .

الشيعة

توفي محمد سنة ٦٣٢ فخلفه ابو بكر والد زوجته عائشة وهي الملقبة بأُم المؤمنين .

وتوفي ابو بكر سنة ٦٣٤ فخلفه عمر بن الخطاب وقد قتله غلام فارسي اسمه لؤلؤة بن المغيرة سنة ٦٤٤ . وجاء بعده الخليفة عثمان بن عفان ومات قتلاً سنة ٦٥٦ .

وقع تنازع على الخلافة بين علي زوج فاطمة بنت النبي وبين معاوية الاموي حاكم سوريا . فأدى ذلك التنازع الى قيام « شيعة » في الاسلام . كما سبق ان قامت البدع في النصرانية . فانقسم القوم بين « السنة » في سوريا وعليها معاوية ، وبين « الشيعة » في العراق وعليها علي .

وكانت مواقع بين الفريقين انتهت بقتل علي سنة ٦٦١ فخلا الجو لمعاوية .

في ذلك الزمان كان التقارب او التباعد بين الناس يُبنى عادة على الدين اذا كان الامر بين دينين مختلفين ، او على المذهب اذا كان الامر

(١) من خطبة النبي في حجة الوداع قوله : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن ان ان كل مسلم اخ للمسلم وان المسلمين اخوة فلا يعزل لامرئ من اخيه الا ما اعطاه عن طيب نفس منه . »

بين مذهبين مختلفين في دين واحد . ف وقعت المنازعات بين الوثنيين والمسيحيين في الامبراطورية الغربية والشرقية . ووقع النزاع في مكة بين الوثنية والاسلام . وجرى الاقتتال الدامي في المسيحية بين اليعاقبة والموارنة . واصطلت نيران القتال في الاسلام بين السنة والشيعة في سوريا والعراق .

وهكذا جرى التقارب بين لبنان وبيزنطية ، وقد اوجس اللبنانيون خشية من الفتح على حرياتهم ، فوقفوا يدافعون عنها . وقد اشار الى ذلك مؤرخو العرب الذين دونوا حوادث تلك الايام . فقد ورد في

تاريخ «فتوح البلدان» للبلاذري ما نصه (١) :
« لما كانت ايام ابن زبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتولية اياه عهده واستعداده للشخص الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير خرجت خيل الروم الى جبل اللكام وعليها « قائد من قوادهم . ثم صارت الى لبنان . وقد ضوت اليها جماعة كثيرة من الجراحمة (المردة) وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين . فاضطر عبد الملك الى ان يصالحهم على الف دينار في كل جمعة . وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته ، وتخوفه ان يخرج الى الشام فيغلب عليه . واقتدى في صلحه بمعاوية حين شغل بحرب اهل العراق . فانه صالحهم على ان يؤدي اليهم مالا . وذلك « في سنة ٦٧٠ » .

لم تعترف الشيعة في العراق بمعاوية خليفة . وبايعت الحسن بن علي . لكن معاوية تمكن من استرضاء الحسن فلم يزاحمه على الخلافة . توفي الحسن فبايعت الشيعة اخاه الحسين . ولما توفي معاوية سنة ٦٨٠ وخلفه ابنه يزيد الاول ابى الحسين الاعتراف به وتحرك وانصاره يثير فتنة في العراق فارسل يزيد عليهم جيشاً التقى بهم في كربلاء حيث دارت معركة قتل فيها الحسين وذلك في ١٠ تشرين الاول سنة ٦٨٠ م .

١٠ محرم سنة ٦١ هجرية ، وهو يوم عاشوراء الذي يقدس ذكره الشيعون ويحتفلون به حتى اليوم .

واستتب الامر للامويين فبلغت خلافتهم الاوج في مستهل القرن الثامن على عهد الوليد الاول (٧٠٥-٧١٥) وقد امتدت حدود الدولة الى التركستان شرقاً ، والى اسبانيا غرباً .

تم فتح اسبانيا على الوجه الآتي :
بعد ان احتل عمرو بن العاص وادي النيل سنة ٦٤٠ واصل الفتح تقدمه في افريقيا ، واقام الخليفة الاموي عبد الملك سنة ٦٩٩ موسى بن نصير عاملاً عليها فتوغل عامل الخلفاء فيها حتى بلاد البربر وهم قوم ينتمون الى حام من الجنس الابيض . وكانوا قد اعتنقوا النصرانية . وعلى اثر الفتح دخلوا في الاسلام .

وتدرج موسى بن نصير في الغزو حتى بلغ الاوقيانوس الاطلنطي . وكان الحكم على الضفة الاوروبية المقابلة في اسبانيا لعائلة من « القوط » (الفيزيقوط) ، توفي احد ملوكها المدعو ابن عطيشة (وتيزا) وله ولد اسمه اخيلا نوذي به ملكاً بعد ابيه . لكن احد نبلاء « القوط » المدعو ذريق (الكونت رودريغ) خرج على اخيلا وتمكن من انتزاع الملك منه . فاضطر اخيلا الى مغادرة اسبانيا وقصد مع صحب له افريقيا ملتجئاً فيها الى الكونت جوليان الحاكم البيزنطي على مدينة سبته وهي واقعة على شرفة المضيق بين القارتين . وبعد ان اطلع الكونت جوليان على ما جرى ل اخيلا نصحه بان يتصل بالعرب فقد يمدونه بمساعدة على المغتصب . حتى اذا تم الاتفاق بينه وبينهم يقدم الحاكم المراكب اللازمة لنقل الحملة بحرا . فعمل اخيلا بالنصيحة واتصل بموسى بن نصير فلقى منه الموافقة التامة ...

وكان لموسى بن نصير مولى من البربر يدعى طارق بن زياد ، وقد خبر فيه موسى الجرأة والاقدام فاعتقه وعهد اليه ، في اوائل صيف سنة ٧١١ ، بقيادة الحملة على الملك ذريق . فقطعت الحملة المضيق وعرضه ثلاثة عشر ميلاً على المراكب التي قدمها حاكم سبته ونزلت

العباسيون

لم تسلم الشيعة بالامر الواقع بعد مقتل الامام علي ومقتل ابنه الحسين . وكنت النار تحت الرماد في العراق حتى اثارها رجل شيعي فارسي اسمه ابو مسلم الخراساني . وقد تمكن من جمع الانصار واشعال نار الثورة على الامويين . ونودي بالخلافة لحفيد من آل العباس عم النبي محمد وبويج في الكوفة (العراق) سنة ٧٤٩ .

وما تم النصر للثائرين واستلم حفيد العباس مقاليد الخلافة حتى اشعلها حرباً لا هوادة فيها على الامويين فعاملهم معاملة اعداء مغلوبين وبطش بهم بطشاً لم يبق ولم يذر ، حتى نبش قبورهم وعفى آثارهم . فدعي بالسفاح لكثرة ما قتل وسفك من دماء . ولم ينبج من المذابح الا امير اموي واحد هو عبد الرحمن حفيد هشام ، عاشر الخلفاء الامويين .

افنى العباسيون الامويين في دمشق . وكان الامير عبد الرحمن في العراق ففرّ هائماً على وجهه جنوباً حتى بلغ فلسطين ، ومنها قطع الى افريقيا وجند العباسيون جواسيسهم يطاردونه . وما زال يتنقل متخفياً من بلد الى بلد حتى وصل بعد خمسة اعوام الى مدينة سبته ومنها اجر الى الضفة المقابلة . وما عرف الجيش بقدومه وتعرف اليه حتى انضم اليه وبايعه بالزعامة . واستلم عبد الرحمن الحكم في اسبانيا ، مكثياً بلقب الامارة ، حتى ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث سنة ٩٤٢ فنادى بنفسه خليفة .

وهكذا اصبحت خلافة في بغداد للعباسيين وخلافة في اسبانيا للامويين .

ولم يحل قيام الدولة الاموية في اسبانيا دون توطيد اركان الدولة العباسية وتوسعها في الشرق . فكان للعباسيين عهد سطوة وازدهار وتألق حتى قيل ان بيزنطية اصبحت تتمنى بعض عزّ كانت ترفل في برودتيه بغداد عاصمة الخلافة .

على الضفة الاوروبية في الجبل الذي عُرف منذ ذاك الحين بجبل طارق . وبادر ذريق على رأس جيشه الى الوقوف في وجه الحملة . فدارت رحى المعركة بين الجيشين عند مصبّ وادي بكة (نهر سلاو) فانكسر « القوط » وفرّ « ذريق » ولم يعرف له مقر بعدها . وانفتحت اسبانيا في وجه طارق حتى احتل اكثر من نصفها في اقل من اربعة اشهر .

وفي السنة التالية (٧١٢) لحق موسى بن نصير بطارق واكمل فتح اسبانيا فبنى فيها الامويون ملكاً قدر ان يكون له في ما بعد شأن خطير . كان من الطبيعي وقد استولى الخلفاء الراشدون والخلفاء الامويون على معظم البلاد التي كانت تتألف منها الامبراطورية الشرقية ان يصبح الهدف الاقصى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة تلك الامبراطورية . فالمحاولة التي جربها معاوية وعبد الملك ، تصدّى لها الخليفة الاموي سليمان وتمكن من محاصرة القسطنطينية برّاً وبحراً . لكن سلسلة حديدية حالت دون مرور الاسطول العربي الى قرن الذهب ، واضطرت جيوش الخليفة الى رفع الحصار .

وارسل يزيد الثاني بدوره حملة على بيزنطية فلم تكن الحملة اسعد حظاً من سابقتها .

ورؤي على عهد هشام ان يُستعاض من الاخفاق المتكرر في فتح القسطنطينية بالتوغل في اوربا من اسبانيا حتى اذا اسعد الحظ تمكن العرب من الوصول الى الآستانة من جهة الغرب ، بينما تزحف جيوشهم من جهة الشرق ، فتؤخذ القسطنطينية بين شدي كلابة .

وبعد ان مدت الخلافة الاموية سلطانها على اسبانيا قطعت جيوشها جبال البرانس (البريانية) واحتلت جنوبي غاليه (فرنسا) وقد ظل الغزاة ينتقلون من منح الى فتح حتى تصدى لهم شارل مارتل في سهول بواتيه (سنة ٧٣١) حيث دارت معركة حاسمة كتب فيها النصر للفرنجة ووقف الفتح .

لبنان والعباسيون

عنيت الدولة الاموية عناية خاصة بلبنان فعملت على تعزيز الوحدة بين ابنائه على اختلاف اديانهم ، فلما قامت دولة بني العباس على انقاض دولة الامويين سنة (٧٤٠) لم ينظر عمالها في البلاد الشامية نظرة ارتياح الى لبنان في صيانتة لحرية واحتفاظه بتقاليده فاخذوا يضايقونه .

شعر اللبنانيون بضغط العباسيين فأبى عليهم تشبهم بالاستقلال الا ان يقفوا في وجههم ، فاشتعلت نار الثورة في كسروان وانتخب الثوار قائداً عليهم سار بهم الى البقاع فاحتلوه وواصلوا الزحف الى بعلبك . فدهمهم الوالي العباسي في كمين اقامه على الطريق فوقعت بينهم واقعة اسفرت عن انكسار الثوار وتراجعت فلولهم الى حصن المنيطرة في كسروان سنة ٧٥٩ حيث حاصروهم الجيش العباسي حتى سقط الحصن . فانتقم منهم المحاصرون انتقاماً فظيعاً .

انصب اهتمام الدولة العباسية على تحصين الثغور في لبنان وسوريا . فارسلت الى لبنان قبيلة وكلت اليها مهمة دفاعية ضد غارات الروم وسكان الجبل . ومن هذه القبيلة نشأ الامراء التنوخيون الذين قدموا الى منطقة الغرب بين صيدا وبيروت في عهد ابي جعفر المنصور سنة ٧٦٣ . وكان الموارنة في شمالي لبنان يتمتعون بشبه استقلال ذاتي لقاء جزية يؤدونها على ايدي المقدمين وينتفضون كلما قامت محاولة لكبت حرياتهم .

الدويلات

لم تمر مئة سنة على الخلافة العباسية حتى اخذت تندلع نيران الثورات في ارجاء الدولة .

ففي مصر خرج على العباسيين احمد بن طولون التركي الجنس سنة ٨٧٨ وانشأ في وادي النيل الدولة الطولونية . وهي لم تعمّر طويلاً (٨٧٨-٩٠٥) .

وقامت على انقاض الدولة الطولونية الدولة الاخشيدية ، وكان مؤسسوها من الاتراك ايضاً ولم يستقم لها الامر اكثر من اربع وستين

سنة (٩٠٥-٩٦٩) .

ثم قامت على انقاض الدولة الاخشيدية الدولة الفاطمية فدام لها الملك نحواً من مئتي سنة (٩٦٩-١١٧١) . ويتنسب الفاطميون الى فاطمة زوج علي بنت النبي . وكانوا يقيمون في تونس ومنها زحفوا على مصر واستولوا عليها . واتجهوا الى سوريا فاشتركوا بقتال فيها دام اكثر من مئة سنة . وهو قتال بين الفاطميين الشيعة والعباسيين السنيين . ومن الخلفاء الفاطميين الحاكم بأمره (٩٩٦-١٠٢٠) واليه يرجع تأسيس المذهب الدرزي .

وفي ذلك العهد وقع اضطهاد على الدروز فلم يلبثوا ان حذوا حذو من تقدمهم في ظروف مماثلة فولوا وجوههم شطر لبنان وفرعوا اليه معتصمين فيه مطمئنين على عقيدتهم ومذهبهم يمارسون شعائهم بملء الحرية والامان .

في سوريا

وفي البلاد الشامية قامت الدولة الحمدانية في حلب (٩٤٤-١٠٠٣) واشهر امراءها سيف الدولة وقد خلد ذكره شعر المتنبي (٩٤٤-٩٦٧) وثار بنو مرداس وهم من اعراب البادية فاسسوا بدورهم الدولة المرداسية . ولم تعش سوى ستين سنة (١٠٢٣-١٠٧٩) .

في لبنان

لم يلق اللبنانيون من الدولة الفاطمية احسن مما عرفوه من العباسيين فنشبت في تلك الاثناء ثورة في صور تزعمها بحار من تجارة المدينة يدعى علاقة . فاعلن الاستقلال حوالي سنة ٩٩٧ ، ورفع اسوار المدينة ، وصك عملة خاصة نقش عليها « عز بعد فاقة الامير علاقة » .

وارسل عليه الفاطميون حملة قوية في البر والبحر . فصمدت صور كعادتها مدة طويلة ، على ان اسطول الفاطميين تمكن بعد جهاد طويل من دخول المرفأ . فشنع الظافرون وفضعوا في المدينة واهلها قتلاً وهدماً

واحرقاً . وقبضوا على علاقة . وبعد ان اذاقوه من العذاب الواسع
علقوه على خشبة وصلبوه .

وقامت اخيراً دولة السلجوقيين . وهم اترك كان اتخذهم العباسيون
حرساً خاصاً في بغداد . ولما اضطرب جبل الامن في البلاد الشامية
واندلعت فيها الثورات ارسل العباسيون نفراً من السلجوقيين وعهدوا
اليهم باستئصال شأفة الثائرين . فابتدأ السلجوقيون يعملون باسم العباسيين .
ثم استهواهم حب السلطة فانتهوا الى العمل باسم انفسهم واستقلوا بالحكم
عن بغداد .

وكان داء الانشقاقات الدينية والخلافات السياسية قد تفشى في ذلك
العهد ، كما سبق تفشيه في اواخر عهد الامبراطورية الرومية . وكما
تعددت البدع في المسيحية تعددت الشيع في الاسلام من السنة الى الشيعة
ومنها الى المتأولة والنصيرية والاسماعيلية وغيرها .

وشبت في مصر والعراق وسوريا ثورات أدت الى قيام دول مختلفة
على انقاض دول . وبلغ من توتر الاعصاب وهياج الخواطر ان فقد
معظم الحاكين وعماهم روح التسامح ، على نحو ما جرى في
الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، فاصبحت الاقليات الدينية والاقليات
المذهبية تسأم اضطهادات لم تنج منها الاقلية المسيحية ، حتى باتت تلك
الاقليات تتلمس السبل لاستعادة حرياتها في ظل السلام والامن .

يصعب تفهم حوادث تلك الايام وسبر غور الاسباب والنتائج
فيها اذا لم ينظر الى الاعتبارات الدينية والمؤثرات المذهبية ، وهي يومئذ
الحافز والدافع والمثير .

لم ير العراقيون مأخذاً في ان يقود الفارسي ابو مسلم الخراساني
الثورة مع حلفاء بني امية العرب . ولا وجد المصريون والسوريون
غضاضة في ان يحل في وادي النيل الطولونيون الاتراك والاششيديون
الاتراك محل العباسيين العرب ، وفي البلاد الشامية السلجوقيون الاتراك
محل العباسيين والفاطميين العرب ، باعتبار الوحدة الدينية الجامعة دون

غيرها (١) .

لم ينعم السلجوقيون طويلاً بلذة الحكم بعد انقلاهم على اولياء نعمتهم
ولجؤهم الى العنف والظلم في البلاد . فما عم ان قلب لهم الدهر ظهر
مجته ، فأفلتت السلطة من ايديهم ، وتطرق الوهن الى ملكهم ، وكما
عجزت الامبراطورية البيزنطية عن الصمود في وجه الفاتحين ، هكذا
أدت العوامل المشابهة الى نتائج مماثلة فعجز السلجوقيون عن رد الفاتحين
الاوروبيين حين تدفقت على الشرق حملاتهم المعروفة بالحملة الصليبية .
في تلك الحقبة حالت الاضطرابات التي اصابته الشرق عامة
ولبنان خاصة دون مواصلة لبنان لازدهاره وتفوقه واشعاعه .

على ان ميزات قومه لم تفقد . فلما احتاج معاوية حاكم سوريا
الى اسطول لمحاربة البيزنطيين اتجه الى اللبنانيين في تحقيق غرضه فبنوا
له اسطولا كما رأينا . وقد مكّن هذا الاسطول الجيش العربي من احتلال
قبرص سنة ٦٤٩ ثم رودس ٦٥٤ . فلما رأته بيزنطية ان العرب بدأوا
يهددون الامبراطورية في البحر ، بادرت الى تجهيز اسطول ضخم دل
على خطورة ما يرجى منه في نظر بيزنطية ان الامبراطور كونستان
الثاني قد استلم قيادته بنفسه . وفي «ليديه» جنوبي الاناضول التقى
المتحاربون وكان قد انضم الاسطول المصري الى اسطول معاوية ، وما
استمرت نيران المعركة حتى دارت الدائرة على الاسطول البيزنطي .
فوطد هذا النصر بحراً دعائم الفتح برا .

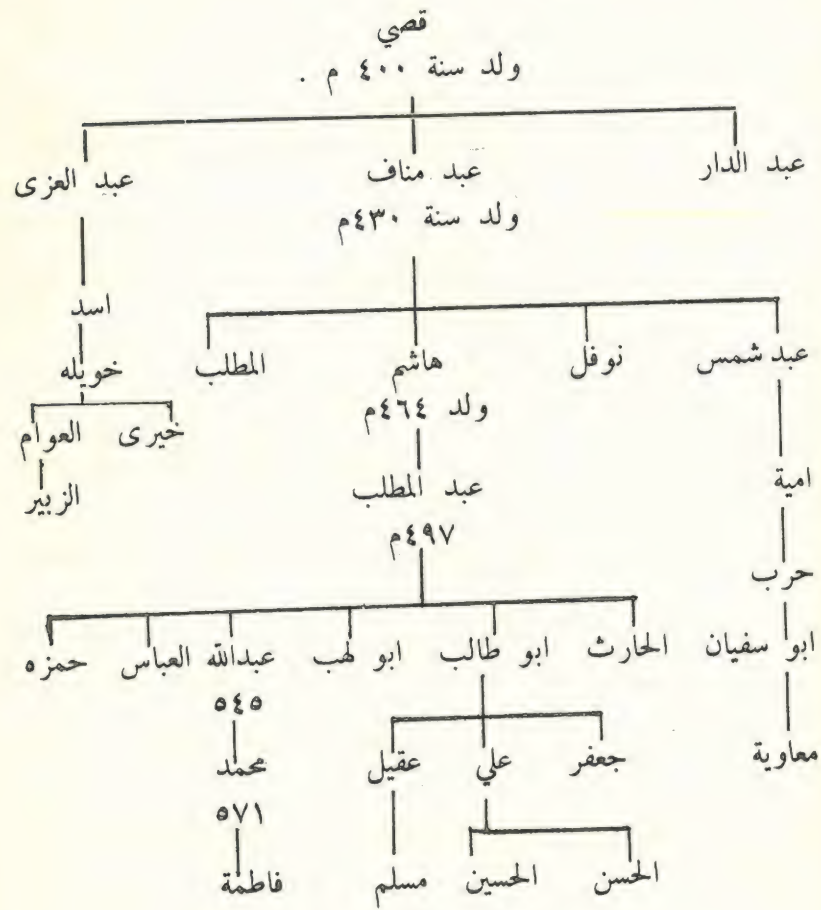
ولم يعدم العلم والادب انصاراً فاشتهر من اللبنانيين افراد حفظ
التاريخ ذكرهم منهم الامام الاوزاعي . وقد ولد في بعلبك وتوفي في
بيروت حيث لا يزال مقامه موضوع التجارة والاحترام .

وكذلك اشتهر قسطا بن لوقا البعلبكي وكان يتقن اللغات اليونانية والسريانية
والعربية . وقد زار بلاد الروم ورجع منها يحمل مخطوطات قيمة لمشاهير
علماء اليونان امثال ارسطو واكليدوس وجالينوس . ونقلها الى العربية

(١) وقام في ما بعد صلاح الدين الايوبي وعوكردي الاصل وأسس الدولة الايوبية وظلت
الخلافة .

فوضع في عمله هذا الحجر الاول في ذلك البناء الباذخ الذي شاده .
نقل علوم اليونان الى اللغة العربية ومنها نقلت تلك العلوم في القرون
الوسطى الى اللغة اللاتينية . فكان نقلها الى اوروبا عن اللغة العربية الاساس
الذي بُنيت عليه المدنية الغربية .
وفي ذلك العهد اخذت اللغة العربية تنتشر في لبنان الى جانب لغته
السريانية . وقد قدر للبنانيين في ما بعد ان يحملوا علم لغة الضاد وينشروه
في العالمين .

شجرة النسب النبوي :



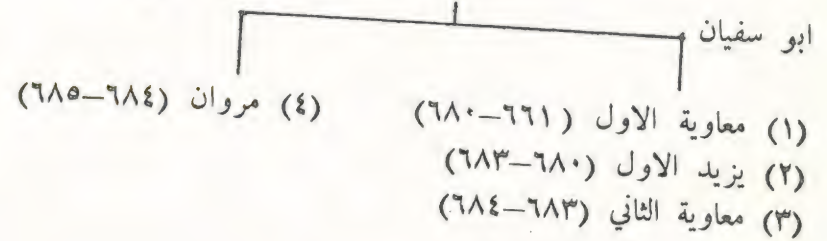
خلفاؤه

ابو بكر
عمر بن الخطاب
٦٣٣ - ٦٣٤
٦٣٤ - ٦٤٤
قتل

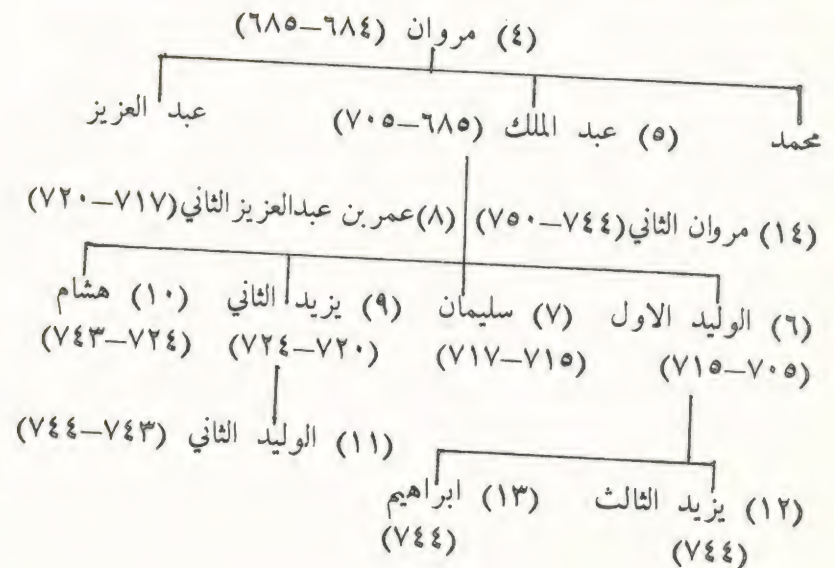
عثمان بن عفان ٦٤٤ - ٦٥٦ قتل
علي بن ابي طالب ٦٥٦ - ٦٦١ قتل
اولاء هم الخلفاء الراشدون الاربعة .

الخلفاء من بني سفيان وهم فرع من بني أمية :

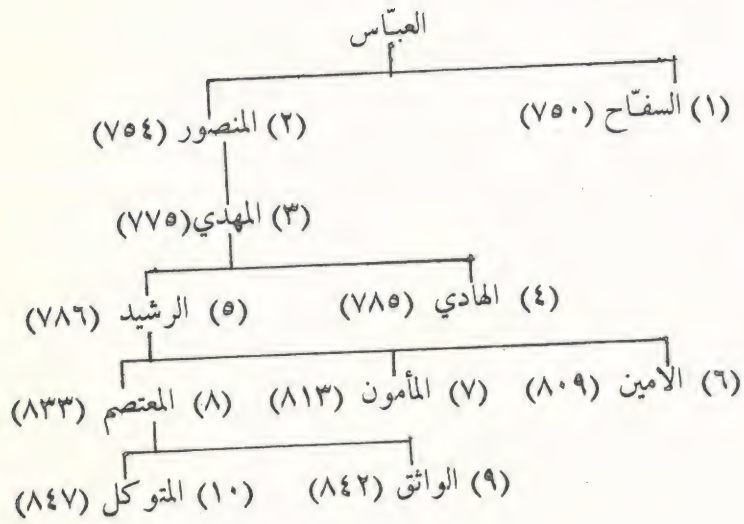
أمية (وهو ابن عم جد النبي)



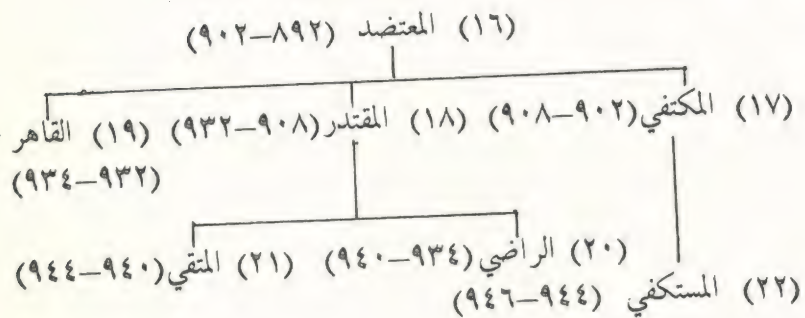
الخلفاء من آل مروان ، وهم فرع من بني أمية :



الخلفاء العباسيون



خلفاء بغداد الذين كان الاتراك يتحكمون بهم :



الخلفاء العباسيون في الحكم البويهي ، الثالث والعشرون : المطيع (٩٤٦-٩٧٤) ثم الطائع (٩٧٤-٩٩١) وهو الرابع والعشرون ، ثم

القادر (٩٩١-١٠٣١) وهو الخامس والعشرون ، ثم القائم و(١٠٣١-١٠٧٥) وهو السادس والعشرون .

الخلفاء العباسيون اثناء السيادة السلجوقية :

(٢٦) القائم (١٠٣١-١٠٧٥)

(٢٧) المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤)

(٢٨) المستظهر (١٠٩٤-١١١٨)

(٢٩) المسترشد (١١١٨-١١٣٥) (٣١) المقتفي (١١٣٦-١١٦٠)

(٣٠) الراشد (١١٣٥-١١٣٦) (٣٢) المستجد (١١٦٠-١١٧٠)

(٣٣) المستضيئ (١١٧٠-١١٨٠)

(٣٤) الناصر (١١٨٠-١٢٢٥)

الظاهر (١٢٢٥-١٢٢٦) والمستنصر (١٢٢٦-١٢٤٢) والمستعصم

(١٢٤٢-١٢٥٨) .

الصلبيون في لبنان

١٠٩٨ - ١٢٩١

كان شرقي البحر المتوسط منذ القدم ولا يزال مطمح انظار الفاتحين .

كانت كل دولة في الشرق اذا قويت شوكتها يتجه طموحها الى مراقبي البحر المتوسط ، حيث بلاد الخير والازدهار والمواقع المتينة ، ونقطة الاتصال بين ثلاث قارات . هكذا اتجه اليه الفراعنة من افريقيا ، والكلدان والاشوريون من بين النهرين ، والفرس من البلاد الايرانية ، والاسكندر الكبير من مقدونية ، والرومان من ايطاليا وبيزنطية .

في اواخر القرن الحادي عشر شاع في اوربا ان المسيحيين في الشرق لا يتمتعون بحريتهم ولا يجدون فيه الامان ، وان الاماكن المقدسة في اورشليم مهددة ، وذاع عن الدولة السلجوقية انها على ضعفها ممعنة في الجور والاضطهاد ، فتنادى ملوك اوربا وامراؤها الى تجهيز حملة على الشرق يحدهم عاملان : عامل صيانة الاماكن المقدسة وحماية المسيحية وعامل التطلع الى بقعة في شرقي البحر المتوسط اشتهر عنها انها ممتازة بخيراتها العميقة وبمواقعها الفريدة . فنظمت الحملة الاولى من مختلف الشعوب الاوروبية ، ولا سيما الافرنسيين ، والبلجيكيين والاطاليين والامان والانجليز .

جاؤوا عن طريق البر فقطعوا شرقي اوربا الى القسطنطينية ، ومنها الى بر الاناضول ، الى ارمينيا ، الى سوريا فسقطت انطاكية في ايديهم سنة ١٠٩٨ ومنها زحفوا على نهر العاصي فاحتلوا معرة النعمان وانحدروا في سهول طرابلس الى بيروت ، ومنها الى فلسطين حيث فتحوا القدس سنة ١٠٩٩ .

ثم واصلوا اعمالهم الحربية حتى استقام لهم الملك نحواً من مئة وخمسين سنة . كما ان الرومان لم يدخلوا لبنان دخول الفاتحين هكذا كان شأن الصليبيين حين وصلوا الى لبنان .

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان الصليبيين بعد ان قطعوا الشرق الى انطاكية واحتلوا شمالي سوريا اوفدوا الرسل الى لبنان يحملون اليه الآمال والاماني ويعلنون انهم ما جاؤوا الا لصيانة الاماكن المقدسة ولحماية المسيحيين ، وانهم يطلبون منهم المعونة . وكان قد اصاب اللبنانيين في الحقبة الماضية ما اصابهم من حيف واضطهاد في زمن كان الحافز الديني هو العامل الاهم في احكام الروابط ، فلبّوا النداء وقدّموا للصليبيين مساعدات جلتى .

بعد ان استتب الامر للصليبيين قسّموا البلاد الى اربع مناطق .
(١) - شرقاً ، منطقة ادليس (اورفا) وهي تشمل ضفتي نهر الفرات .
(٢) - شمالاً ، امارة انطاكية وهي تشمل قيليقيا الارمنية . (٣) - في الوسط ، منطقة طرابلس وهي من حصن المرقب شمالاً الى نهر الكلب جنوباً . (٤) - في الجنوب مملكة اورشليم وهي تمتد من نهر الكلب الى شبه جزيرة سينا حتى العقبة على البحر الاحمر .

شيد الامراء الصليبيون ، القائمون على السلطة في المدن الساحلية ، قلاعاً كثيرة وصكّوا نقوداً باسمائهم منها بالفرنسية ، او باللاتينية ، ومنها بالعربية ، بالحرف الكوفي مع بعض الرموز النصرانية .

وتكيف الصليبيون بالبيئة اللبنانية فاقبّسوا بعض عادات اللبنانيين وطرقهم في الاكل واللباس والسكن وحتى في بناء الكنائس .

وقد تعززت سلطة البطريك الماروني في العهد الصليبي بحيث اصبح رئيساً روحياً وزمناً على المسيحيين في شمالي لبنان على الاخص .

ووثقت روابط الكنيسة الشرقية برومة .
في العهد الصليبي تعززت العلاقات التجارية على اوسع نطاق بين

لبنان واوروبا عبر مرافئ المتوسط ولاسيما مرسيليا والبندقية وجنوى . ونشأت القنصليات الاوروبية في المدن اللبنانية تعزيزاً للتبادل التجاري . واستمرت هذه العلاقات بعد ذهاب الفرنجة . وقد نقل هؤلاء عن لبنان الى اوروبا صناعاته المحلية واهمها تربية دود القز واستخراج الحرير وزخرفة الاواني المعدنية والزجاجية والنقش والحفر على النحاس وافادوا من تطور صناعة النسيج وتلوينه .

الايبويون

لما شاخت الدولة الفاطمية خلع صلاح الدين وهو كردي الاصل (١١٣٨-١١٩٣) آخر خلفائها العاضد وكان وزيره واسس الدولة الايوبية واعاد سيادة اللبنانيين ثم احتل سوريا وانتصر على الصليبيين في واقعة حطين الشهيرة واسترد اورشليم ثم عقد صلحاً مع ريكاردوس قلب الاسد امير الصليبيين في الحملة الثالثة تخلى بموجبه عن سواحل سوريا ولبنان للصليبيين . وقد اشتهر بالحلم والمرؤة وتشجيع العلم ، وبناء المدارس والقلاع وتنشيط العمران .

اقتدى الايبويون بالعباسيين فاشترى عدداً من الاثراك والشراكسة خدماً (ممالك) فقوي ساعد هؤلاء فقتل احدهم معز الدين ايبك آخر الملوك الايبويين الاشراف موسى سنة ١٢٥٢ واقترب بزوجته شجرة الدر فتنازلت له عن الحكم .

وكان الممالك دولتين : البحرية والبرجية ، الاولى مؤلفة من التركمان سميت كذلك لانطلاقها في الاستيلاء على الريف المصري البحري والثانية من الجراكسة سميت كذلك لامرتها على بروج مصر .

ولما استقر الامر للممالك في مصر وسوريا لم يرقهم ان تبقى الجبال في لبنان على حريتها واستقلالها ، وقد كان لجأ اليها كل طلاب الحرية ، من الشيعة في البقاع الشمالي والدروز في جبل الشيخ والموارنة في الشمال . فجهاز الممالك حملة على كسروان فدمروا واحرقوا واتلفوا ونهبوا

وقتلوا حتى مزقوا البلاد شر تمزيق (١)
على ان الجيش لم يصل الى الشمال حيث كان يقيم معظم الموارد
فانضم اليهم من نجا من حملة المماليك من جميع الطوائف .
وهكذا بقيت شعلة الحرية والاستقلال ، ولو في بقعة صغيرة ،
تضيء ولا تنطفئ (٢) .

وفي سبيل الدفاع عن الساحل اللبناني ضد هجمات الفرنج المتلاحقة
من الجزر المجاورة عزم المماليك على انشاء اسطول في بيروت من اخشاب
الصنوبر في احراجها الكثيفة لكنهم غيروا رأيهم لضالة المال بعد ان
قطعوا معظم الاشجار واكتفوا ببناء ابراج صغيرة على طول الساحل
اللبناني اقاموا فيها قبائل عربية وتركية وفارسية من اشهرها آل تنوخ
وقد كلفوا بحماية الساحل بين بيروت وصيدا وبنو عساف بين بيروت
والماملتين وبنو سيفا بين طرابلس وعكار .

المماليك

التركية البحرية ١٢٥٠ - ١٣٨٢
الخرسانية البرجية ١٣٨٢ - ١٥١٧

الدولة الايوبية اتبعت خطة خلفاء بغداد في ادخال الارقاء والاجانب
في الحرس والجيش . فما عثم هؤلاء ان فعلوا في الايوبية فعل زملائهم
في العباسية فاصبحوا امراء الجيش ثم سلاطين الدولة .
الملك الظاهر ركن الدين بيبرس - الرابع من المماليك ١٢٦٠ - ١٢٧٧

كان رقيقاً انتدبه السلطان الصالح الايوبي لقيادة فصيلة من حرسه
الخاص . فترقى بالعنف والبطش وهرق الدم الى اعلى منصب .
لم تكن السلطة في المماليك وراثية بل كانت للاقوى فالاقوى .
١٢٦٠ انتصر بيبرس على جيش هولاء في عين جالوت ، فلسطين .
اعاد العباسيين اسما حتى يكتسب شرعية السلطنة .
١٢٦٣ احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة . واحتل قيسارية ويافا
وانطاكية .

١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية ١٦٠٠٠

سبى وباع في الاسواق من اهلها : ١٠٠.٠٠٠

ثمن الطفل ١٢ درهماً

ثمن الطفلة ٥ دراهيم

لم تستطع انطاكية النهوض بعد هذه الكارثة الى يومنا هذا .
١٢٧١ انتزع حصن الاكراد

١٢٨٥ خليفته قلاوون انتزع المرقب بجوار طرطوس

(١) تجمع ابناء كسروان على اختلاف المذاهب سنة ١٢٩٢ (بنو عاملة) (بنو تغلب) -
(بنو بخت) (الدروز) - (الشيعة) - (الموارنة) بقيادة اللامين ونصبوا كيناً
بين المدفون وانذار ثم فتكوا بجنود المماليك ونصبوا من رؤوسهم (شقعة) بين
شكا والبترون . بعدها دعي الرأس المتد في البحر بجانب شكا (رأس الشقعة) .
ان المماليك انتقموا في ما بعد فشن الناصر بن قلاوون حملة على كسروان فدمرها
(١٣٠٥) .

(٢) في عهد المماليك برز المؤرخان المقريري وهو لبناني الاصل مصري المولد وصالح
بن يحيى وهو لبناني الاصل والمولد .

الدولة الايوبية - ١١٧١ - ١٢٥٠

١١٦٩	صلاح الدين
١١٩٣	العزیز
١١٩٨	المنصور
١١٩٩	العاقل الاول
١٢١٨	الكامل
١٢٣٨	العاقل الثاني
١٢٤٠	الصالح ايوب
١٢٤٩	المعظم نوران شاه
١٢٥٠ - ١٢٥٢	الاشرف موسى

١٢٨٩ خليفته قلاوون : استولى على طرابلس .
 ١٢٩١ خليفته قلاوون : الملك الاشرف فتح عكا آخر حصن بعد
 حصار شهر اعمل السيف في حمايتها من الفرسان الداوية
 جميعاً فيما استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت
 وطرطوس . وانتهت الحرب الصليبية .

الملك الناصر صلاح الدين الايوبي

ولد في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديين .
 سار على كره منه في صحبة عمه تيركوه ، القائد اللامع ، في
 خدمة نور الدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولة
 الفاطميين فيها .

امنيان لصلاح الدين : أنزال السنة منزلة الشيعة في مصر .
 مواصلة الجهاد ضد الفرنجة .

١١٦٩ توفي عمه تيركوه في مصر فاسندت اليه الوزارة
 ١١٧١ قضى على خلافة الفاطميين وامر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد
 آخرهم ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء

١-٧-١١٨٧ اولى حملاته على الفرنجة . احتل طبرية بعد حصار ٦ ايام
 على مقربة منها معركة حطين .

وقع في الاسر : غي دى لوزينيان ملك اورشليم ، فاحسن معاملته .
 في ١-٢-١١٨٧ سقطت اورشليم .

تجدد الحملات على اثر سقوط اورشليم : فردريك بروس المانيا -
 غرق في النهر . طيب علاقات ريشارد قلب الاسد وصلاح الدين وعقد
 صلحاً في ١١-١١٩٢

في ١٩-٢-١١٩٣ توفي صلاح الدين في دمشق عن ٥٥ سنة . قبره
 قرب الجامع الاموي .

لبنان الحديث

لبنان الحديث

(١٥١٦ - ١٩١٨)

الفتح العثماني

أصل العثمانيين قبيلة تركية من المغول نبغ فيها قواد وأمراء كان أعزهم شأنًا (عثمان) فانتموا اليه ومنه عرفوا بـ «العثمانيين» . قامت الدولة العثمانية التركية على أنقاض الدولة البيزنطية ، واحتل السلطان محمد الثاني عاصمتها القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأطلق عليها اسم «الاستانة» .

وظل خلفاؤه في التوسع حتى كانت موقعة «مرج دابق» - بالقرب من حلب - بين الجيش العثماني وعلى رأسه السلطان سليم ، وجيش المماليك - حكام مصر - بقيادة السلطان قانصوه الغوري . حالف النصر جيش الاتراك فاحتل السلطان سليم سوريا ومصر (١٥١٦) .

أما لبنان فقد وجد الفاتح فيه الأمير المعني فخر الدين الأول فأمنه السلطان على إمارته ولقبه بـ «سلطان البر» .

المعنيون جاؤوا في القرن الثالث عشر الى لبنان واتخذوه موطنًا أقاموا فيه . ويوم دخل السلطان سليم ، كان قد مضى على المعنيين - لبنانيين - أكثر من ثلاثمئة سنة .

على ان الولاة العثمانيين في سوريا ومصر لم يحسنوا الصلات بأمر لبنان ، لا سيما بعد أن وسع امارته ومد سلطانته من حدود فلسطين حتى طرابلس حيث أمراء بني سيف ، بل عمدوا الى مناوئته واستفزازه ، فلم ينم الأمير على الأذى بل راح يبادهم بمثل أعمالهم ،

فوشوا به الى الاستانة ودسوا عليه الدسائس فوجدت سعاياتهم لدى الباب العالي آذاناً صاغية ، فباتت الاستانة تنظر الى لبنان بعين الحذر . وفي تلك الأثناء توفي فخر الدين الاول وخلفه ابنه الأمير قرقماز فتسلم زمام الحكم غير حاسب لما يحبته له حساباً .

وفي سنة ١٥٨٤ قيل ان الاموال الاميرية سرقت وهي في طريقها الى الاستانة ، وان السرقة وقعت في جون عكار وان السارقين من لبنان . فكانت تلك التهمة حجة تدرع بها الباب العالي لهدم الإمارة اللبنانية وإلحاق لبنان بالولايات فأوكل السلطان الى والي مصر ابراهيم باشا أمر تلك المهمة ، فجهزت حملة اشتركت فيها الجيوش البرية والسفن البحرية بقيادة ابراهيم باشا .

وقد وصلت الجيوش الى بلادنا على حين غرة ، فلم يستطع الامير قرقماز الى الدفاع سبيلاً واضطر الى اللجوء الى مغارة قرب جزين حيث قتل مسموماً ، وتوفي عن ولدين صغيرين فخر الدين ويونس ووالدهما زوجته الست نسب .

الست نسب

سيدة لبنانية كان لها يدٌ في تغيير مجرى الحوادث في تأسيس أعظم عمل في سبيل الاستقلال على يد ابنها البكر فخر الدين . كانت الفتاة نسب تنتمي الى امراء بني تنوخ واقترنت بالامير قرقماز المعني وأصبحت والدته أعظم رجل انجبه لبنان .

والمعنيون متحدرين من قبيلة عربية جاؤوا في القرن الثاني عشر الى لبنان واتخذوه موطناً لهم . ولما وصل السلطان سليم الى سوريا كان مضى على المعنيين - لبنانيين في لبنان - اكثر من اربعمئة سنة . شأنهم في ذلك شأن الأمراء التنوخيين الذين قدموا في القرن التاسع الى لبنان واستوطنوه .

عندما هلك الأمير قرقماز خشيت الست نسب على ولديها القاصرين من بطش قائد الجيش العثماني فعمدت الى اخفأهما في مكان امين ،

وكان من اعوان زوجها المخلصين رجل اسمه الحاج كيوان . فاستدعته واسرّت اليه بهواجسها وبأنها ترى اخفاءهما في كسروان وديعة بين ايدي احد وجهاء الموارنة الشيخ ابو صقر ابراهيم الحازن في قرية بلونة . فصعد الحاج كيوان في الامر واخذ الولدين الى مقر الشيخ ابي صقر وقص عليه حكاية الولدين وابلغه ان والدتهما تأتمنه عليهما .

فرحب ابو صقر بالحاج كيوان ورسالته ورجاه ان يبلغ الست نسب انه سيكون عند حسن ظنها ويقوم بحماية الولدين وتربيتهما فيكونان في بيته اعزّ من اولاده .

هكذا خفي على القائد العثماني مقر الاميرين اللذين ترعرعا في حضن ابي صقر حتى بلغا اشدهما . وظلت الست نسب ترقب الفرص معتمدة على مساعدة ذويها الامراء التنوخيين . وبعد ان بلغ فخر الدين سن الرشد كان خاله الامير سيف الدين التنوخي قد تمكن من ازالة الصعوبات التي كانت تقف في وجه المعنيين فاعاد فخر الدين واخاه يونس الى الشوف حيث سعدت الست نسب باعلان بكرها اميراً على البلاد وارثاً لأبيه باسم فخر الدين الثاني .

فخر الدين الثاني الكبير

١٥٧٢ - ١٦٣٥

صفحة بارزة في تاريخ لبنان تزينها هالة من الحب والاعجاب .
تسلم فخر الدين الثاني زمام الإمارة وهو في ربيع الصبا يحده
الطموح وتبتسم له الآمال .
وكما أورث هملكار ابنه هنيئيل مهمة الأخذ بثأره من روما ،
وتوطيد سلطان قرطاجة ، هكذا ورث فخر الدين الثاني - برعاية
والدته الست نسب - مهمة الأخذ بثأر أبيه ورفع شأن الإمارة اللبنانية ،
فبات هدفه توسيع الإمارة وتحقيق الاستقلال التام .
في ذلك العهد كانت الحزبية في لبنان - شأنها في البلاد العربية -
بين قيسي ويمني ، على اختلاف الطوائف والمناطق .
وكان المعنيون قيسيين .

رأى فخر الدين - بارشاد الوالدة وهدى نشأته الكسروانية في
البيت الحازني - ان الامارة لا تثبت اركانها الا اذا هي وطدت على
أساس وحدة لبنانية توثق العرى بين مختلف الطوائف والمناطق والتزعات
الحزبية . فقرّب اليه الدروز والمسيحيين سواء ، واستمال أعيان الحزب
اليمني ، وحالف الحرافشة ، وصاهر الشهابيين ، وعين مربيه الشيخ
أبا نادر الحازن مستشاراً أول ، وأخاه الشيخ رباح مديراً للمالية .
وأنشأ جيشاً التف تحت رايته الموارنة والدروز والشيعة والارثوذكس
والكاثوليك صفّاً واحداً ، وقيادة واحدة ، وروحاً واحدة .
هكذا أصبح الجميع لا يعرفون الا وطنية واحدة هي الوطنية
اللبنانية ، ولا يستهدفون في اتحادهم وسياستهم إلا غاية واحدة هي
استقلال لبنان .

وكان الحكم في ذلك العهد اقطاعاً تولّي عليه الدولة رجلاً يقال له «مقاطعجي» يؤمن فيه خراج الخزينة .

فأخذ فخر الدين يستولي على الاقطاعات المحيطة ، إقطاعاً تلو اقطاع ، ويؤمن عنه الخراج للسلطنة ، حتى تمكن من نشر راية لبنان على إمارة تمتد من فلسطين جنوباً الى قلعة الحصن شمالاً ، وقد دق شرقاً أوتاد خيامه على أبواب دمشق ، وله في تلك الفتوح قوله المأثور : «انما السلطنة نقل تخم ، فكلما تملكنا بلاداً نتقوى برجلها وأموالها وننتقل الى غيرها» .

وطد فخر الدين في الامارة الأمن والاستقرار فازدهرت فيها التجارة والصناعة . على ان همّ الأمير كان في الوصول الى نزع السيادة العثمانية عن لبنان تحقيقاً للاستقلال التام . وكانت الاقطاعات موزعة كما يلي :

(بنو حرفوش) في البقاع وطرابلس وفلسطين .
(ابن الفريخ البدوي) في الجليل وعجلون وكسروان .
(بنو عساف) في الكورة وقاعدتهم غزير .
(بنو سيف) في بيروت وطرابلس الى قلعة الحصن .
وكان هم الباب العالي في هذه الانحاء تأمين الخراج في كل إقطاع . في هذا السبيل زاد فرق الجيش وسهر على تجهيزه أحسن تجهيز ، وبني في المواقع الاستراتيجية القلاع والاسوار .
أقلقت تلك التجهيزات والتحسينات خاطر الباب العالي ، فقرّر قراره على البطش بفخر الدين وتمزيق الإمارة والحاقها بالولايات .
وكان على عرش السلطنة السلطان احمد الاول . فارسل السلطان الى والي دمشق «حافظ باشا» أمراً بأن يزحف بجيشه على فخر الدين .
جاءت الأخبار الى الأمير اللبناني منبئة بتلك الحملة الهائلة ، فجمع مجلس شوره بحضور والدته وأخيه يونس فرأى الجميع أن لا قبل للبنان بصدد تلك الحملة ، وان الأفضل أن يغيب فخر الدين عن المسرح مؤقتاً تاركاً الحكم لأخيه برعاية الوالدة .

تحسباً للطوارئ ، كان فخر الدين قد دخل في مخابرات دولية سعيّاً لمحالقات تساعد على الوقوف في وجه السلطنة ، فاختار البابوية في روما ودوقية توسكانة في فلورنسا ، دون الدول الكبرى كفرنسا واسبانيا ، خشية أن ينقلب التحالف مع دولة كبيرة ذات مطامع في الشرق الى احتلال يبدل سيادة بسيادة ، فلا يتحقق الاستقلال الذي كان يستهدفه .

فلما قرّر الرأي على مغادرة لبنان ، نزل فخر الدين ومن معه الى صيدا حيث استقلوا مراكب حملتهم الى ايطاليا فوصلوا الى ثغر ليفورنو في ٣ تشرين الثاني سنة ١٦١٣ بعد سفر استغرق ثلاثة وخمسين يوماً .

فخر الدين في ايطاليا

ما اتصل خبر قدوم فخر الدين بدوق توسكانة قوسموس الثاني حتى ارسل وفداً من كبار البلاط لاستقباله ودعاه الى موافاته في مدينة بيزا حيث اخلى له قصراً فخماً وبالغ في الحفاوة به .

وجرت المباحثات بين الدوق كوسموس وفخر الدين حول المحالفة بينهما ، فرأى الدوق أن يتأكد من الموقف في لبنان وسوريا ، فعرض على الأمير إرسال بعثة تسافر الى لبنان فتدرس الاحوال وتقف على القوة التي يمكن الاعتماد عليها من جيش وقلاع ، ثم تعود البعثة وتقدم الى الدوق تقريراً يبني عليه حكمه .

فوافق فخر الدين على هذا الرأي وعين الدوق رجال البعثة ، وأصبحهم الامير بابن العيسوق ومحمد كاور من تابعيه ، وحملهم رسائل الى والدته الست نسب والى أخيه وذويه واعيان البلاد يطلعهم فيها على الاتفاق الذي تم بينه وبين الدوق ، ويسألهم ان يسهلوا مهمة البعثة .

فلما وصلت البعثة الى سواحل لبنان نزلت الى البر قرب صيدا ثم صعدت الى دير القمر حيث مقر الامير يونس . فلما رآها الامير

يونس فرح فرحاً عظيماً ، وتسلم الرسائل الواردة فاكرم الضيوف
اكراماً بالغاً .

وارسل الامير الى اعيان البلاد الرسائل الموجهة اليهم فجاءت
اجوبتهم تؤيد استعدادهم لخدمة البلاد ، تحت راية فخر الدين .

وعين الامير يونس نفرأ من رجاله لمرافقة البعثة فطافوا معاً انحاء
لبنان وشاهدوا القلاع والحصون ، وتبينوا وسائل الدفاع ووقفوا على
قوات الجيش اللبناني .

ولما اتمت البعثة عملها رجعت الى توسكانه وقد انضم اليها للحاق
بالامير الشيخ خاطر الخازن أخو الشيخ أبي نادر مع جماعة من قومه ،
ويزبك بن العفيف من اعيان الشوف .

وصلت البعثة الى توسكانه وقدمت الى الدوق تقريراً وافياً عما
رأت وسمعت . وأطلع اللبنانيون القادمون فخر الدين على اخلاص أهل
البلاد له حاضراً وغائباً .

فلما وثق كوسموس الثاني من ان في لبنان تحت تصرف الامير
قوة لا يستهان بها وان البلاد كلها يد واحدة معه أعلن عزمه على السعي
لتحقيق محالفة تضم البابوية ، لمساعدة فخر الدين على الدولة العثمانية .

ولما رأى فخر الدين ان الامور جارية على ما يشتهي أحب أن يأتي
الى لبنان في زيارة خاطفة ليتفقد بنفسه أحوال البلاد ويهيء الجميع
لرجوعه نهائياً على رأس حلفائه لتحقيق الآمال .

وبالاتفاق مع الغراندوق كوسموس أبجر فخر الدين الى لبنان
فوصل الى الدامور وارسل الشيخ خاطر الخازن الى دير القمر ليعلم
والدته وأخاه بقدمه . انتشر خبر قدوم فخر الدين الى البلاد انتشار
البرق فهرولت الوفود والأهالي من الشوف والمتن وكسروان الى الدامور
لملاقاة فخر الدين ومشاهدته وهم لا يكادون يصدقون الخبر لشدة
فرحهم واغتيابهم بقدمه .

كان ذلك اليوم يوماً عظيماً عند اللبنانيين وقد نزل فخر الدين
من المركب الى الدامور ليتمكن الجميع من مشاهدته فحملوه على

أعناقهم يهللون له ويهزجون .

وبعد أن وعدهم برجوعه النهائي القريب رجع الى المراكب
فأقلعت به وبمن معه عائداً الى ايطاليا .

وقد مرت المراكب في طريقها على مالطة ، وكانت أخبار فخر
الدين قد شاعت وذاعت في سائر الاقطار ، فلما علم أهل الجزيرة
بقدوم الامير خرجوا الى لقائه في الميناء وفي مقدمتهم حاكم الجزيرة ،
استاذ فرسان مالطة الاكبر ، فاستقبلوه بموكب عظيم . ونزل الامير
في ضيافة الحاكم ثلاثة أيام ثم واصل سفره ونزل في ثغر ليفورنو
وقص على الغراندوق تفاصيل رحلته .

في تلك الاثناء حدثت في الاستانة حوادث جاءت في مصلحة
فخر الدين فمات السلطان احمد الذي امر بتسيير الحملة على لبنان
بقيادة أحمد باشا الحافظ . وخلف السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ،
وثار عليه الجيش فأسقطه وأقام مقامه ابن أخيه عثمان ، والدولة يومئذ
في حروب مع ممالك بولونيا وروسيا وإمارات البلقان .
وعزل أحمد باشا الحافظ عدو فخر الدين الشخصي .

رجوع فخر الدين الى لبنان

كانت الست نسب طوال مدة غياب فخر الدين في ايطاليا ترعى
من جهة ولدها يونس بالنصح والارشاد ، وتراقب من جهة اخرى
الحوادث في البلاد وفي السلطنة العثمانية .

فلما جرت في الاستانة الحوادث المشار اليها ادركت الوالدة
الكبيرة ان الظروف مؤاتية لرجوع بكرها فخر الدين ومواصلته العمل
في لبنان ، فكتبت اليه تخبره بواقع الحال وتسأله الرجوع دون إبطاء .

فما ان اطلع فخر الدين على رسائل والدته حتى عزم على العودة الى لبنان ، فقابل الغراندوق كوسموس واطلعه على ما ورد عليه من الاخبار ، فسر الغراندوق بما سمع ووافق على رجوع فخر الدين مطمئناً اياه بتنفيذ المحالفة وتقديم المؤونة والذخيرة والخبراء لتمكينه من تحقيق اهدافه .

على هذا الاتفاق ابجر فخر الدين من ثغر نابولي الى لبنان سنة ١٦١٧ ، بعد ان قضى في توسكانه اربع سنوات اتاحت له الوقوف على ما في تلك البلاد من معالم الحضارة ، ومستلزمات الحكم ، ووسائل الدفاع في تنظيم الجيش وبناء القلاع وتحصين المدن . وما كاد يصل الى بيروت حتى اهتز لبنان من ادناه الى اقصاه ، فهبط اهله من امراء ومشايخ الى الساحل لاستقبال الامير العائد .

وقد ذكر المؤرخون المعاصرون ان فخر الدين سار في البلاد بعد عودته سير الفاتح تواكبه الجماهير بين الهزيج والانشيد واطلاق البارود . بعد ان استقر المقام بفخر الدين ووقف على بواطن الامور تبين له ان زعماء البلاد واعيانها وشعبها مجمعون على الاخلاص التام له ، عدا آل سيفا وكبيرهم يومثد يوسف باشا سيفا فعزم على ان يزيل العقبة التي يقيمها آل سيلفا في وجه الوحدة اللبنانية واستقلال لبنان . هياً فخر الدين جيشه ، واستنفر امراء البلاد ومشايخها فمشوا جميعاً تحت رايته لمحاربة يوسف باشا سيفا ، ف وقعت معارك بين الفريقين كتب فيها النصر لفخر الدين فانهمز يوسف باشا سيفا ومن معه والجيش اللبناني في اعقابه حتى بلغوا قلعة الحصن حيث استسلم آل سيفا لفخر الدين .

موقعة عنجر

ازاء تلك الحوادث عادت الهواجس تساور الدولة العثمانية خشية استفحال امر فخر الدين ، فاوعزت الى والي دمشق مصطفى باشا لمحاربة الامير اللبناني ، فزحف مصطفى باشا على لبنان بجيش

لا يقل عن اثني عشر الف مقاتل ، فقابله فخر الدين باربعة آلاف لبناني مشى بنفسه على رأسهم . فالتقى الجيشان في مجدل عنجر في ١٣-١١-١٦٢٣ واستمرت موقعة هائلة لم يلبث الجيش اللبناني ان بطش باعدائه فمزق شملهم . وطارد اللبنانيون الوالي المنهزم مصطفى باشا حتى القوا القبض عليه وجاؤوا به اسيراً الى خيمة فخر الدين . فلما شاهده الامير ذليلاً ابت عليه شهامته الا ان يحسن معاملته ، ثم اطلق سراحه ، بلا قيد ولا شرط . فاكبر مصطفى باشا نبل الامير وحفظ له اطياب جميل . ان موقعة عنجر (١٦٢٣) ابلغت لبنان اوج عزه ، ووطدت اركان الامارة وتبين للدولة ان فخر الدين امنع جانباً من ان يظفر به ولايتها ، فاقرته على ملكه ، واطلق عليه السلطان اللقب الذي كان السلطان سليم اطلقه على فخر الدين الاول اي « سلطان البر » .

فخر الدين على ابواب دمشق

في ذلك العهد حدث غلاء في دمشق هدد اهلها بالمجاعة ، فارسلوا يشكون امرهم الى فخر الدين . فبادر الامير الى اغاثتهم فارسل اليهم الفقي حمل حمل قمحاً وفي اليوم الثاني ارسل الفقي حمل آخر . ثم جمع جمال حوران ودوابها وامر اصحابها بنقل القمح الى دمشق وبيع الرطل بقطعتين . وجاء الامير بنفسه يشرف على الحالة فاتي الى مرجة دمشق ، فخرج اهل المدينة كباراً وصغاراً الى ملاقاته يحتفلون بقدمه ويدعون له بالنصر .

لم تنم الدولة العثمانية على الاذی ، بل ظلت رغم مظاهر الصداقة تتحين الفرص للايقاع بفخر الدين وتمزيق الامارة اللبنانية لا يفارقها حلمها القديم بالحاق لبنان بالولاية .

وبينما الدهر ييسم لفخر الدين ودوق توسكانه يواصله بالذخيرة والخبراء اذا بحوادث تقع في اوروبا ويكون لها صداها في لبنان : نفثى الطاعون في ايطاليا فاستأثرت موجبات مكافحته بجهود الولاة والحكام فاضطرت توسكانة الى قطع مساعداتها عن فخر الدين .

واشتدت من جهة اخرى وطأة حرب الثلاثين سنة في اوروبا
فاججت نار العداوة بين الكاثوليك والبروتستانت .

رأى الباب العالي ان الظروف مؤاتية للخلاص من فخر الدين .
ففي سنة ١٦٣٣ اصدر السلطان مراد امره الى الصدر الاعظم خليل باشا
بتعبئة الجيوش وتسييرها على لبنان . فجهزت الدولة جيشاً عرمرماً في
البر بقيادة احمد باشا الحافظ كجك « الصغير » ، وعبأت اسطولا
ضخماً لمحاصرة شواطئ لبنان .

فرحف الجيش بمعاونة الاسطول وضربوا حصاراً في البر والبحر
على لبنان .

ازاء تلك الحملة الهائلة جمع فخر الدين مستشاريه من اعيان البلاد
وقادة الجيش فاستعرضوا الحالة الرهيبة وتبينوا ان غرض الدولة القضاء
على استقلال لبنان ، فقالوا جميعاً بصوت واحد :
الموت ولا الاستسلام ، الفناء ولا فقد الاستقلال .

بتلك الروح الالهية وفي هوى الوحدة اللبنانية الشاحخة التفّ اللبنانيون
حول الامير الكبير فمشى على رأس جيشه الى ملاقاته الجيوش العثمانية
وقد عين ابنه علياً قائداً عاماً على الجيش اللبناني .

اجتدمت المعارك وانقلبت اسود على اللبنانيين ذلك ان الامير علي
وكان في مقدمة الجيش اصيب اصابة قاتلة كانت فاتحة شؤم ففارق السعد
الوية الجيش اللبناني ، وقد نفدت منه الذخيرة ، وسدت في وجهه
ابواب البحر ، فالتوى الامر على فخر الدين ، واستظهر الحافظ الصغير
على الامير الكبير الذي اضطر - بعد محاولات مقاومة - الى التسليم ،
فنقل من الآستانة مع اولاده ، حيث غدر به وبهم - الا اصغرهم
حسين - في ٢ نيسان سنة ١٦٣٥ .

انقراض الاسرة المعنية

خلف الامير ملحم ابن الامير يونس عمه فخر الدين الثاني على
كرسي الامارة .

ولم يصف الجوّ بين الامير ملحم والولاة العثمانيين في البلاد المجاورة
فكان له معهم مواقع مشهودة اشهرها موقعة « وادي القرن » سنة ١٦٥٣
وقف فيها اللبنانيون بوجه جيش والي دمشق بشير باشا .
ودام القتال ثلاث ساعات استبسل فيها الفريقان فاسفرت المعركة
عن انتصار اللبنانيين وانهزام عساكر بشير باشا .

وكانت الصلات في الصداقة قد استحكمت بين المعنيين والشهابيين
فزوج الامير ملحم ابنته من الامير حسين الشهابي فرزق منها الامير
بشير ، الذي قدّر له ان يكون اول امير شهابي على لبنان .

وتوفي الامير ملحم سنة ١٦٥٨ فخلفه ابنه الامير احمد ، وعلى
عهده كانت وقعة « الغلغول » عند برج بيروت سنة ١٦٦٦ بين القيسيين
واليمنيين فظفر الامير احمد وجيشه اللبناني باليمنيين واستولى على
مقاطعاتهم وضمها الى امارته .

وصاهر بدوره الامير موسى الشهابي فرزق من ابنة الامير احمد
ولداً سمّي حيدر وهو الذي انتخبه اللبنانيون على الامارة بعد الامير
بشير .

وسنة ١٦٩٧ توفي الامير احمد المعني بلا عقب فانقرضت به
السلالة المعنية في لبنان وحلت محلها الامارة الشهابية .

انتقال الامارة الى الشهابيين

لم تكن الدولة العثمانية لتنكر على لبنان كيانه الخاص في امارته المستقلة داخلياً . فلما خلت كرسي الامارة بوفاة الامير احمد المعني بلا عقب ، لم يقدم الباب العالي على تعيين الخلف ، شأنه في الولايات العثمانية ، بل ترك السلطان للبنانيين ان ينتخبوا من يشاؤون على كرسي الامارة .

اجتمع اعيان البلاد ووجوها للتشاور في الامر . وكان للمعنيين كرامة جلّى في لبنان ومحبة في قلوب اللبنانيين . فأجمع الرأي على انتخاب اقربهم الى الامراء المعنيين حفظاً لذكر السلالة المعنية .

وكان للامير احمد المعني حفيده حيدر ابن الامير موسى الشهابي وكان للامير ملحم حفيد آخر هو الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي . فكان احقهم بالامارة حفيد الامير احمد لكنه كان صغير السن . فانتخب اللبنانيون الامير بشير وتوجهوا الى راشيا ودعوه للولاية واتى معهم الى دير القمر وبايعوه الولاية على لبنان فاستمر عليها حتى موته . وهكذا انتقلت الامارة الى الشهابيين .

وبعد وفاة الامير بشير سنة ١٧٠٧ اجتمع اكابر البلاد وانتخبوا الامير حيدر حفيد الامير احمد المعني . وتوجهوا الى حاصبيا فأثروا بالامير حيدر الى دير القمر وهو في الحادية والعشرين ، فكان جد الشهابيين في لبنان .

الامير حيدر شهاب (١٧٠٧ - ١٧٣٢)

نهج الامير حيدر على منوال جدوده المعنيين في الذود عن استقلال

لبنان وفي توسيع حدود الامارة ما استطاع عاملاً على تمكين الروح الوطنية في النفوس على اساس القومية اللبنانية لا دخل فيها للدين والمذهب والحزبية الاقليمية وقد تجسّمت تلك العصبية القومية في (موقعة عين داره) سنة ١٧١١ .

وفي تلك الموقعة التفّ اللبنانيون على اختلاف طوائفهم ومناطقهم بلواء الامير حيدر فتألف منهم جيش لبناني جمع بين الدروز والموارنة صفّاً واحداً ، الى غاية واحدة هي الدفاع عن استقلال لبنان .

وقفت قبالة اللبنانيين في يوم عين داره المشهود جيوش جرارة بقيادة ثلاثة باشاوات وهم محمود باشا هرموش ، نصوح باشا والي دمشق ، بشير باشا والي صيدا .

وما احتدمت نار المعركة حتى ظهر تفوق اللبنانيين بما أتوا من ضروب الشجاعة والاقدام متفانين في التضحية تحت راية لبنان . وما زالوا على ذلك الاستبسال حتى دارت الدائرة على الاعداء فانهم نصوح باشا وبشير باشا بفلول رجالهم ووقع محمود باشا في قبضة اللبنانيين . ورجع الامير حيدر الى دير القمر تخفّف على رأسه رايات النصر والفخار .

وقد نال لبنان في ذلك العهد من العز والاستقلال شأواً بعيداً على الطريق التي خطتها فخر الدين الكبير . وفي ذلك يقول جودت باشا الوزير التركي في تاريخه ما نصّه :

« ان الامير حيدر الشهابي حصل في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها البقاع وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية واحكامهم مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتدخل في امورهم الداخلية . حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجئون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم ، وذلك لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرّون على استرداده » .

من الامير ملحّم الى الامير بشير الثاني

توفي الامير حيدر سنة ١٧٣٢ فحزن عليه اهل البلاد حزناً شديداً ولبست النساء عليه الحداد اربعين يوماً يندبنه في الصباح والمساء (١) . وتوالى على الحكم بعده الامير ملحّم (١٧٣٢-١٧٥٤) .

ثم اخوه الامير احمد والامير منصور الذي تنازل عن الحكم للامير يوسف ابن اخيه ملحّم (١٧٥٤ - ١٧٧٠) .

وأسوأ ما متني به لبنان في تلك الايام كان احمد باشا الجزار الذي احسن الامير يوسف اليه فجحّد الفضل وكفر بالنعمة .

هرب الجزار من والي مصر علي بك الى لبنان يحتمي باميره ، فقبله الامير واكرمه وابقاه في ضيافته بدير القمر ثم بعثه الى بيروت بوظيفة رتب له نفقتها من الجمر ك ثم رفعه الى وظيفة متسلّم على بيروت فما طال به الامر حتى خان الثقة وخرج على الامير فوضع يده على بيروت وما زال يدسّ الدسائس لدى الباب العالي حتى توصّل الى مقام الولاية ورتبة الباشاوية وانقلب على ربه نعمته الامير يوسف واخذ يدبّر له المكائد في لبنان حتى اضطرّ الى الاستقالة فخلفه على الامارة الامير بشير الثاني .

الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠)

لم يشدّ الامير بشير عن الخطة التي وضع اسسها فخر الدين الكبير فعزّز في الداخل الوحدة الوطنية على اساس القومية اللبنانية . وقد بلغ تشدده في نبذ النعرة الطائفية انه تعذّر على الناس في عهده ان يعرفوا الى أية طائفة كان ينتمي الامير ويروون انه قد وقع جدال بين رجال ثلاثة حول دين الامير فقال احدهم انه مسلم وقال الآخر انه درزي وقال الثالث انه ماروني . قام الامير بالقبض عليهم وسوقهم الى ديوانه وحكم عليهم حكماً شديداً .

(١) طنوس الشدياق ص ٣٦٨ .

ووضع الامير بشير نصب عينيه بلوغ هدف فخر الدين بالسعي لترع مظاهر كل سيادة للدولة العثمانية على لبنان .

في هذا السبيل تحالف الامير مع محمد علي والي مصر على ان يرسل محمد علي حملة على سوريا بقيادة ابنه ابراهيم ، فيساعده الامير بشير وتواصل الحملة زحفها حتى الآستانة .

وفعلاً دخل الجيش المصري سوريا وانضم اليه اللبنانيون فكان لهم شأن في كثير من انتصارات ابراهيم باشا .

على ان ابراهيم باشا بعد ان استتب له الامر لم يحقق اللبنانيين ما أرادوه من المحالفة وهدفهم فيها الاستقلال التام . بل رأوا ان نتيجة احتلال ابراهيم باشا كان عبارة عن ابدال سيادة بسيادة فثار اللبنانيون على ابراهيم باشا ثورة جمعت في مار الياس انطلياس الدروز والنصارى والمتاولة والاسلام واقسموا اليمين انهم يحاربون لاستعادة الاستقلال او الموت (١) .

وقد ارسل قنصل روسيا في بيروت تقريراً الى سفيره في الآستانة بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ ورد فيه ما تعريبه : « وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ جرّ خضوع كل سوريا فلا يبعد ان تؤول ثورتهم اليوم الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد » (٢) .

وقد تم ما تنبأ به قنصل روسيا فلم يلبث ان اضطر ابراهيم باشا الى ترك البلاد والرجوع الى مصر سنة ١٨٤٠ . وذهب الامير بشير ضحية تلك المحالفة فاضطر الى ترك لبنان الى جزيرة مالطا ثم سافر الى الآستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠ عن ٨٤ سنة .

الامير بشير الثالث

على اثر تخلي الامير بشير الثاني عن الامارة ، حاولت الدولة العثمانية ان تعين والياً تركيا .

احتج اللبنانيون وابلغوا صوتهم الدول الاوروبية فاجتمع سفراؤها في الآستانة واتفقوا على تحذير الباب العالي من سوء العاقبة اذا هو أقدم على تعيين وال تركي على لبنان ، خلافاً لحقوقه وتقاليده وامتيازاته . وما زالوا بوزير خارجية الآستانة حتى وافقت الدولة على استبقاء الامارة وحفظها في الشهابيين .

على ان الباب العالي - تحسباً للمستقبل اختار لتولي المركز اقل الامراء كفاءة واضعفهم شأنًا فعين بشير الثالث الملقب (ببوطحين) خلفاً لبشير الكبير .

على ان الغيوم لم تلبث ان تلبدت في سماء لبنان . وابتدأت فيه القلاقل . فكلف الباب العالي الامير بشير الثالث السفر الى الآستانة بحجة تقديم تقرير عن الحوادث .

وما ان سافر الامير حتى أعلن الباب العالي تعيين عمر باشا حاكماً على لبنان .

الفتن والثورات في لبنان

الطموح الى استقلال لبنان ، وفي سبيله حارب فخر الدين ثلاثاً وثلاثين سنة ، ركز في النفوس العقيدة اللبنانية بالاستقلال مؤسسة على الوحدة الوطنية بين ابنائه .

وبهدي تلك العقيدة سارت السياسة اللبنانية على عهد من خلف فخر الدين في الامارة من آل معن وشهاب .

ولم يكن استشهاد فخر الدين في نهاية الصراع الا ليمهر تلك العقيدة بطابع الدم .

قبالة ذلك الطموح الى الاستقلال ، وبعد ان تبين للباب العالي ان سرّ القوة في لبنان انما هو الاتحاد الوثيق بين الطوائف ، وجهت السياسة

(١) المحررات السياسية : ج - ١ - عدد ٢ و ٣ .

(٢) المحررات السياسية : ج - ١ - عدد ٤ ص ٧ .

العثمانية همها الى تفكيك عرى ذلك الاتحاد .
ذلك كان سبب الفتن التي اثير ضرامها في لبنان طوال عشرين سنة (١٨٢٠ - ١٨٤٠) .

على اثر تخلي الامير بشير الثاني عن الامارة ، حاولت الدولة العثمانية ان تعين على لبنان والياً تركياً . فحذرهما ممثلو الدول من سوء العاقبة فوافقت على حفظ الامارة في الشهابيين ، على ان يكون اضعفهم وهو الامير بشير الثالث خلفاً للامير بشير الكبير ، وذلك تهدئة لحوادث مبيته وفي الواقع لم تلبث الغيوم ان تلبدت في سماء لبنان وابتدأت في الفتنة .

وتنفيذاً للخطة المرسومة كلف الامير بشير الثالث السفر الى الآستانة بدعوة تقديم تقرير عن الحوادث .
وما ان سافر الامير بشير حتى اعلن الباب العالي تعيين عمر باشا حاكماً على لبنان .

عمر باشا والثورة في لبنان

لم يكذب ينشر خبر اقالة الامير بشير الثالث وتعيين عمر باشا مكانه حتى افاق اللبنانيون من غفلتهم وفهموا ان الضربة لم تكن للامير بشير شخصياً بل بالاحرى لاستقلال البلاد . فهاجت خواطرهم وقدموا العرائض الى قناصل الدول محتجين على تولية حاكم اجنبي عليهم . وسرت في البلاد روح الثورة فبادر القناصل الى اطلاق سفرائهم في الآستانة على واقع الحال فبادر السفراء الى مخاطبة الباب العالي تلافياً للكارثة قبل وقوعها .
وقد جاء في تقرير لسفير انكلترا بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢ ما ترجمته :

« اتصل بنا ان الامير بشير قاسم عزل فجأة بامر استبدادي ... وان السرعسكر مصطفى باشا عين باشا مسلماً مكان الامراء عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم ، وهو اليوم في دير القمر بصفة وال على لبنان

مما لم يسبق له مثيل وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقررة منذ عدة قرون ... واذا ثار اهالي الجبل واضطر السرعسكر الى استعمال القوة يزيد في غضبهم ، ويرجح ان حراجه موقفه يجعله ينشب في قتال تكون الارجحية فيه الى خصومه فيعرض شرف سلطانه لعار الانكسار » .

ولم تستطع مؤامرات الباب العالي من حمل الدروز على الرضا بالحاكم الاجنبي ، فانتشرت الثورة في الشمال وكسروان والمتن والشوف فاضطرت الآستانة اخيراً الى اقالة عمر باشا .

اعلان لبنان قائمقاميتين

زادت القلاقل في لبنان بفضل ما دسّه فيه عمل الدولة وما حاكوه من مؤامرات ، وتوالى اجتماع السفراء في الآستانة بوزير الخارجية ، يتباحثون ويتداولون في ما يمكن عمله حتى يضعوا حداً للاضطرابات ، ويحولوا دون امتداد الفتنة وانتشارها بين الدروز والنصارى .

وبالرغم من معارضة سفير فرنسا المطالب باعادة الامارة الى ما كانت عليه ، قرّر رأي السفراء والباب العالي على انشاء نظام حكم جديد في لبنان حلاً للمشكلة ، على ما ادعوا ، وخلاصة الاتفاق ان تلغى الامارة ويقوم مقامها قائمقاميتان :

نصرانية وعليها امير مسيحي من غير الشهابيين ، ودرزية وعليها امير درزي .

فولي الامير حيدر اسماعيل اللامي قائمقامية النصارى ، والامير احمد ارسلان قائمقامية الدروز .

هكذا بلغت الدولة العثمانية الغاية التي ارادتها فكان نظام القائمقاميتين هدماً للامارة اللبنانية ، وطعنة في صميم الاستقلال .

عهد القائمقاميتين

الوحدة الوطنية التي رفع فخر الدين منارها كانت الركيزة التي بنى عليها العقيدة اللبنانية بالاستقلال ، وفي سبيله حارب الامير الكبير الدولة « ثلاثاً وثلاثين سنة » .

ولم يكن استشهاده في نهاية الصراع الا ليمهر العقيدة بطابع الدم . وبهدي هذه العقيدة سارت السياسة اللبنانية على عهد من خلف فخر الدين في الامارة من آل معن وشهاب .

وتبين للباب العالي ان سر القوة في لبنان انما هو الوحدة الوطنية فاعتمد محاربة تلك الوحدة بشتى الوسائل ، حتى يصبح لبنان وامتيازاته لقمة سائغة .

وقد سهّل نظام القائمقاميتين اعمال التفرقة يغذيها بالدسائس والاموال عمّال الدولة المحيطون بلبنان ، حتى انفجرت الفتنة الكبرى سنة ١٨٦٠ ، وكان الباب العالي يعتقد ان حوادث تلك السنة تكون قاضية قضاء مبرماً على كيان لبنان الخاص وقواعد استقلاله فتلحقه الدولة بالولاية وتهدم حصن الحرية الذي بناه اللبنانيون بجهودهم وتضحياتهم عبر الاجيال .

على ان الضمير العالمي اهتز للمآسي التي حلت بلبنان فبادرت الدول الاوروبية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر في الشكوى التي قدمها عقلاء اللبنانيين وقد القوا تبعة الحوادث ومسؤوليتها على موظفي الدولة وعماها في سوريا . امام الحملة التي اثارها العواصم الاوروبية ومجالسها النيابية على الآستانة وعماها ، لم ير الباب العالي بداً من السعي لل تهدئة فارسل وزير الخارجية فؤاد باشا الى لبنان واعلن ان مهمته انزال العقاب بمستحققيه واعادة الامن الى نصابه .

بعد الغاء الامارة كان هدف السياسة العثمانية ان تلغي ايضاً نظام القانمقاميتين وتقضي على كيان لبنان وامتيازاته ولحقه بالولايات .
تلك كانت الغاية من اثاره الفتن ونشر الفوضى في لبنان لكن النتيجة جاءت على عكس ما استهدفت تلك السياسة ، فبدلاً من الحاق لبنان بالولاية ادى مؤتمر السفراء الى صيانة الكيان في استقلال داخلي وضعته الدول الكبرى في ضمانتها .
وكانت الدول الاوروبية القاضية : فرنسا ، انجلترا ، روسيا ، النمسا ، بروسيا (المانيا) ، وقد انضمت اليهن ايطاليا .

لبنان الحاضر محط رحال احداث تقلبت على دول اربع : انجلترا ، فرنسا ، تركيا ، روسيا ، طوال اربعة قرون .
فاذا لم تتصل الذكريات بتلك الاحداث ، ولم تربط الاحداث بتطورات تلك الدول ، فلا يستشف من خلايا الذكريات نور .
على متن طائرة تجوب افاق الاجيال تلقى لمحة خاطفة على القمم ومن القمم ، تهبط النفاثة الى مطار الذكريات .

لمحة على العالم

شهد مغيب القرن الخامس عشر حدثاً غير وجه الكون يوم اطلت انجاد العالم الحديد على مراكب كريستوف كولومب ، واقتسم الملك بين اسبانيا والبرتغال . فغزا البلاد تجار الدولتين يحنون فيها ثروات ما خطرت في بال بشر ، ادناها الذهب والحجارة الكريمة . واخذ المستعمرون يحملون الكنوز والمعادن والخيرات الى مدريد عاصمة اسبانيا ، والى لشبونه عاصمة البرتغال .

وهزت الغيرة انجلترا وفرنسا وهولندا ، فراحت كل منها تحتل قطعة في ذلك العالم الفسيح . فاختص الانجليز ببقاع في الشمال بعد ان حطموا عمارة الاسبانيين (١٥٨٨) وسيطروا في البحار .

ونزل الفرنسيون في المنطقة عينها يزاحمون فيها الانجليز . فكانت اميركا الشمالية لانجلترا ، وكندا لفرنسا .
ثم وقعت الواقعة بين الدولتين فانهت باخراج الفرنسيين من كندا ، واستئثار الانجليز بالشمال الاميركي (١٧٦٣) .
وما عثم ان رأى انجليز اميركا ان انجليز لوندرا يستبدون بهم ويستغلون ، فثار ثائرهم وشهرت الحرب بين الفريقين .
وكان الفرنسيون يكمنون الحفيظة على انجلترا انها اجلتهم عن كندا ، فبادروا الى نجدة الثائرين .

لافايت ، روشامبو ، داستنج . تلك اسماء سجلت متن الصداقة الفرنسية الاميركية في القرن الثامن عشر ، فساعد الفرنسيون انجليز اميركا على طرد انجليز لوندرا ، فاستقلت الولايات المتحدة برئاسة واشنطن (٤ تموز ١٧٧٦) .

لم يعم الانجليز على الضيم فاستعاضوا من اميركا الشمالية بالهند حيث وطدوا دعائم الشركة الانجليزية واحلوا التاج محلها واعلنوا الملكية فكتوريا امبراطورة على الهند (١٨٧٧) .
وكان الفرنسيون يتقفون هناك ايضاً آثار انجلترا فأنشأوا شركة الهند (١٦٢٧) وأسسوا الامبراطورية الهندية الشرقية (الهند الصينية الفرنسية) .

بينما انظار اوروبا متجهة الى ذلك العالم الجديد ، كان الفتح العثماني يلعب دوره في العالم القديم ، فدوخ محمد الثاني الامبراطورية البيزنطية ، واحتل عاصمتها سنة ١٤٥٣ ، ومد السلاطين رواق ملكهم على البلقان ، وحملت جيوش بني عثمان راية الهلال الى آسيا فنشرها سليم الاول على مشارف سوريا ومصر (١٥١٦) ودق سليمان الكبير اوتاد خيامه على ابواب فيينا (١٥٢٠-١٥٦٦) .

اسبانيو اميركا الوسطى والجنوبية عن اسبانيا ، كما استقل بورتغالو البرازيل عن البرتغال تخلصاً مما كان يعانيه هؤلاء واولئك من استبداد واستئثار لشبونة ومديرد (١٨٢٠ - ١٨٣٠) .

في الوقت عينه كانت تغلي مراحل البلقان فثار اليونان والصقالبة والرومان على الفاتح التركي . فأسدت إنجلترا وفرنسا وروسيا المعونة الى وطن سقراط وارسطو وافلطون فدمرت عماراتهن العمارة العثمانية المصرية في نافارين سنة ١٨٢٧ واستقلت اليونان . وساعدت روسيا الشعوب الاخرى ، فاستقلت صربيا ورومانيا وبلغاريا والجبل الاسود (١٨٠٤ - ١٨٨٧) .

وقد نتج عن تلك المساعدات توطيد النفوذ الانجليزي في اليونان ، وبسط النفوذ الروسي على البلقان .

وكانت الفتوحات وما يجرّ النصر في اذياله من بذخ وترف قد اوهن عزم السلاطين فخلا الجو للقيصرة في الامبراطورية العثمانية ، فأخذت جيوشهم نفيّ ما تختار من ارض تركيا في جنوبي شرقي اوروبا حتى اشرفت روسيا على ضفاف الدانوب تحديق بالمضيقين ، وتطلع الى الآستانة مرتكز الثقل بين القارتين .

هكذا فتحت ابواب المسألة الشرقية .

ازاء ذلك التوسع تحققه كل من إنجلترا وفرنسا وتركيا في العالمين ، نهضت من الشرق دولة القياصرة ووجهتها البلقان ، بحجة انها تمت الى شعوبها الصقالبة بنسب ، فاجتاحت كاترين الثانية البغدان والافلاق (مولدافيا وفلاخيا) واحتلت كتابها شبه جزيرة القرم ، بعد تدمير البحرية التركية (١٧٧٤) .

في غمرة تلك الاحداث ، هزّ اوروبا دوي صيحة اطلقها الفرنسيون سنة ١٧٨٩ على جنابات الباستيل ، فطاحت الثورة عرش آل بوربون وخشي الملوك على تيجانهم فتحالفوا على فرنسا الجمهورية وفي طليعة الحلفاء إنجلترا .

وقد رأى قادة الثورة ان يحولوا الضغط عن جيوشهم في اوروبا الى جبهة تضرب إنجلترا في الصميم ، فكانت حملة بونابرت على مصر سنة ١٧٩٩ وهدفها الهند عن طريق سوريا .

ولما وصل بونابرت الى ضواحي عكا ارسل الى الامير بشير رسالة بتاريخ ٢ اذار سنة ١٧٩٩ يعده فيها بالاستقلال اذا انضم اليه في محاربة الجزائر فلم ير الامير مصلحة للبنان في تلبية النداء (١) .

ووعت إنجلترا خطر الحملة الفرنسية فارسلت في اعقابها عمارة حربية لمساعدة تركيا ، كما ساعد الفرنسيون الثورة في اميركا . فما وصل بونابرت الى عكا حتى تناولت جيشه مدافع الانجليز وقد سدوا عليه طريق البحر وصمدت الاسوار في وجه القائد الفتى فاضطر الى التراجع . وقد ورد في مذكرات نابوليون انه لو سقطت عكا لكان مشى بجيوشه الى الهند وغير وجه العالم .

تلك المحاولة في تهديد الهند عن طريق لبنان وسوريا فغرت في الشرق بين إنجلترا وفرنسا فوهة بركان لا تزال تتقاذف حممه الاجيال . وكانت شعلة الثورة الكبرى قد اتصل لهيبتها بالعالم الجديد فاستقل

(١) ذكر تفاصيل تلك الحادثة كتابي « في سبيل لبنان » ص ١٦٢ .

تطوّر الاحداث في لبنان

شغل الامارة اللبنانية بيتان : البيت المعني والبيت الشهابي ، وتعاقب الامراء عليها نحو ثلاثمائة واربعين سنة من فخر الدين الاول الى الامير بشير الثالث (١٥٠٠ - ١٨٤٢) .

ولما فتح السلطان سليم سوريا وجد فخر الدين الاول على كرسي الامارة ، فأقره في امارته وجعله مقدماً على الجميع .
في ذلك الزمن لم يكن للطائفية اثر في لبنان . فلما هلك الامير قرقماز بن فخر الدين الاول وخيف على ولديه فخر الدين ويونس من بطش القائد التركي لجأت بهما والدتهما الست نسب الى كسروان ، في صميم البلاد المارونية ، حيث حضنهما الشيخ ابو صقر الخازن في قريته « بلتونة » ، الى ان استعاد فخر الدين اماره ابيه وجده فعيّن مربيه الشيخ ابا صقر مديراً له وعيّن من بعده ولده الشيخ ابا نادر وجعل من اخصائه الشيخ ابا ضاهر حبيش .

ونزع فخر الدين الثاني الى الاستقلال فحارب الدولة العثمانية الجبارة طوال ثلاثين سنة يلتف بلوائه الدروز والنصارى والمسلمون . ولم يحل اختلاف الدين دون محالفته دوق توسكانة وبابا رومية ، وما زال من فتح الى فتح حتى مدّ سلطان امارته من ضواحي حلب في شمالي سوريا الى جبل الكرمل في فلسطين .

ولما انقطعت السلالة المعنية بوفاة الامير احمد المعني سنة ١٦٩٧ ، اجتمع اللبنانيون ، لا تفرق بينهم طائفية ، وقرّ رأيهم على اختيار الامير بشير الشهابي ، وكان ذلك الاختيار مظهر اخلاص للبيت المعني لان صلة النسب كانت تربط الامير الشهابي المختار بالمعنيين وهو ابن اخت الامير احمد بنت الامير ملحم المعني .

وواصل الشهابيون سياسة المعنيين في اتجاه الاستقلال والوطنية تجمع صفوف اللبنانيين على اختلاف المذاهب حول الامير ، وقد كانت بينهم وبين عساكر السلاطين معارك ضارية ابرزها موقعة « عين دارا » (١) حيث انتصر اللبنانيون ، عهد الامير حيدر الشهابي ، على الجيش العثماني انتصاراً ميبناً (١٧١١) .

وظل لبنان على منعته في ظل الامارة ووحدة اللبنانيين ، حتى كان عهد الامير بشير يحدد في عزته عهد فخر الدين .

في تلك الاثناء غم محمد علي فرصة الاضطرابات التي تلت جلاء حملة بونابرت عن مصر ، ففضى على المماليك وبني له عرشاً على انقاض مملكتهم .

فاندفعت إنجلترا الى مساعدة تركيا . فغشت المراكب الانجليزية والتركية هذه السواحل سنة ١٨٤٠ بامرة السر شارل نابيير ، وتدفت الجيوش العثمانية في البر وعلى رأسها السرعسكر سليم باشا . ورأى القائدان الانجليزي والعثماني ان يستميلا الامير بشير اليهما فأرسل اليه كل منهما كتاباً يعده بتثبيت الامارة وجعلها وراثية في بيته اذا هو انحاز الى الدولة على المصريين . فأبت على الامير مروءته ان يتخلى عن حليفه . فاضطر ابراهيم باشا الى اخلاء سوريا والعودة الى مصر .

لكن الدائرة دارت على امير لبنان فاستسلم الى الانجليز — كما كان استسلم قبله سجين جزيرة القديسة هيلانة — فأقلت الامير دارعة انجليزية الى مالطة ولُقب بالمالطي .

ورأت تركيا ان الامارة اللبنانية شوكة شائكة في جنبها وان السبيل الوحيد الى اقتلاعها تحريك نغرة في لبنان تمزقه طوائف وتهدم الامارة . فكانت بدعة القائمقاميتين المسيحية والدرزية ، وتوالت الفن الطائفية عشرين سنة حتى حوادث السنة الستين فأسفرت عن تقسيم البلاد طائفيًا وانضواء كل طائفة تحت لواء غريب . وحسبت تركيا بعد الغائها الامارة

(١) في البقاع .

ان الساعة قد آزفت لضم لبنان الى الولاية . على ان تدخل الدول حال دون تحقيق الهدف كاملاً ، وانتهى الى تسوية بين الدول المدافعة عن لبنان وفي مقدمتها فرنسا ، والدول المنتصرة لتركيا وفي مقدمتها إنجلترا . فمن جهة الغيت الامارة اللبنانية وبترت حدود لبنان الطبيعية . لكن من جهة اخرى حفظ كيان لبنان الممتاز وسن نظامه الاساسي بضمان الدول الكبرى : إنجلترا ، بروسيا ، روسيا ، فرنسا (١) .

ولم يكد بروتوكول لبنان سنة ١٨٦١ يضع هدنة للزحام في هذه البلاد بين إنجلترا وفرنسا حتى عاد الى اشدّه بينهما في مصر وافريقيا — قتال السويس — رغم الجهود التي بذلتها إنجلترا لعرقلة مشروع قتال السويس الفرنسي — وهو الطريق الحديد الى الهند — تحقق المشروع وفتح القنال سنة ١٨٦٩ . فلم تم إنجلترا على الضيم بل تمكنت سنة ١٨٧٥ من مشتري اسهم الحديدوي اسماعيل وقدرها ١٧٧٠٠٠ سهم ففازت باكثرية الاصوات وضمنت السلطة العليا في ادارة الشركة .

ولم تكتف إنجلترا بهذا الفوز فاحتل جيشها وادي النيل سنة ١٨٨٢ بحجة الدفاع عن عرش الحديدوي توفيق ضد ثورة عرابي باشا .

فشوده

وصل القومندان الفرنسي مارشان سنة ١٨٩٨ الى « فشوده » في قلب السودان الانجليزي المصري فراع إنجلترا ان تحتل فرنسا تلك المنطقة الحساسة ف وقعت ازمة بين الدولتين اسفرت عن اجلاء الفرنسيين . وبينما عبد الحميد يرى الشعوب سجداً له كسجود موسى في الحضور ، اذا بصوت يزعم من سلانيك فتهتز قصور يلدز برمتها ، وينشر فتيان الاتراك الدستور العثماني (١٩٠٨) فتخلج الامبراطورية . ان دماً جديداً سينهض « بالرجل المريض » وتستعيد تركيا اجماعها لا

(١) جعلت ايطاليا في مصاف الدول الكبرى وكانت مناسبة لتوقيع سفير ايطاليا على بروتوكول لبنان .

حسب القوم في بشامون كما حسب غيرهم انهم هم الذين سمروا الجيش الفرنسي في البر ثم قذفوا به الى البحر .
وقد تحقق ، بعد الجلاء ، استقلال البلاد التام ، وتداول رئاسة الجمهورية اللبنانية اربعة رؤساء حتى اليوم .

بالفتوحات بل في الحرية والاخاء والمساواة .
وحمل الاثير تموجات الامل والاعتزاز الى هذه البلاد فتزل المشايخ والرهابين الى الشوارع على رأس تظاهرات تنادي بحياة الائتلاف الجديدة في العهد الجديد .

وسرت تلك الروح الى لبنان فقام فيه نفر يطالب بالتنازل عن الامتيازات وضم لبنان الى الامبراطورية الدستورية .
ونشبت الحرب العالمية الاولى وانضمت تركيا الى المانيا والنمسا وعاد الحلفاء الى طرح « المسألة الشرقية » على بساط البحث طامحين الى اقتسام المشرق بينهم ، والعمدتان في ذلك الطموح انجلترا وفرنسا . ونشطت الدولتان الى الدعايات في البلاد العربية ومصر واميركا فاستدرج امير مكة الى صف الحلفاء ووعد الحسين بمملكة عربية واسعة الارحاء والتفت حوله فريق من السوريين واللبنانيين ، ورجع الفرنسيون الى فريق منهم ، والانجليز الى فريق آخر ، على ما كان هيباه التقسيم الطائفي والفتن التي انتابت لبنان وسوريا في منتصف القرن الماضي .
وكانت اميركا قد خرجت عن مبدأ مونرو بالانغزال ، وخاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء ، وتطلعت بدورها الى نصيب في المشرق يرمز الى تضحياتها ، فارسلت بعثة « كرين » للاشتراك في الاستفتاء على الانتدابات .

وكانت فرنسا تطمع بانتداب ينشر العلم المثلث على بقعة تمتد من العريش جنوباً الى جبال طوروس شمالاً .
وفي نتيجة المخابرات والمساومات اقتصر الانتداب في المشرق على فرنسا وانجلترا ، فخصت الاولى بسوريا ولبنان وظفرت انجلترا بحصة الاسد .

اما اميركا فقد اكتفت بانزال شركاتها في البلاد العربية تأميناً لها على منابع البترول .

وظل الزحام بين انجلترا وفرنسا في المشرق حتى وقعت الحرب الكونية الثانية وانتهت بجلاء الفرنسيين عن سوريا ولبنان ١٩٤٣ ، وقد

نظام لبنان الاساسي وقرارات الدول

وضع لبنان في الامبراطورية العثمانية

لما فتح السلطان سليم سوريا سنة ١٥١٦ اقر فخر الدين المعني الاول على امارته في لبنان . وتسلسلت الامارة اللبنانية من المعنيين الى الشهابيين الى ان اقلق استقلالها الباب العالي ، فعمدت الدولة الى اثارة الفتن في لبنان توصلًا الى هدم امارته وضمه الى الولاية . فكانت الاضطرابات التي نزلت بلبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ . وقد تمكنت الدولة خلال تلك المدة من الغاء الامارة اللبنانية ومن قسمة لبنان قائمقاميتين درزية ومسيحية ، فخلقت فيه بدعة الطائفية بعدما كان لبنان قد عاش عهد الامارة وقبلها في وحدة وطنية لا تفريق فيها بين درزي ومسلم ومسيحي .

وأدى استفحال الحوادث الى تدخل اوروبا سنة ١٨٦٠ . وبدلاً من تحقيق هدف الدولة في الحاق لبنان بالولايات ابرمت سنة ١٨٦١ بين الباب العالي وبين فرنسا وانكلترا والتمسا وروسيا وبروسيا معاهدة وضعت استقلال لبنان الداخلي في ضمانتها ، انضمت اليهن ايطاليا سنة ١٨٦٨ فدخلت مصاف الدول الاوروبية الكبرى . واصبح لبنان في ضمانته الدول الست .

هكذا قطعت الضمانة الدولية كل أمل للباب العالي بضم لبنان .

تشكيل اللجنة الدولية

لما تشكلت اللجنة الدولية التي كلفت وضع نظام لبنان ، عيّنت تركيا لتمثيلها في اللجنة فؤاد باشا وقد كان رجلاً من أدهى رجالها . وارسلت انكلترا شاباً من ألمع شبابها اللورد دوفرين .

اما فرنسا فقد اكتفت بترك تمثيلها في اللجنة لقنصلها في بيروت السير بكلاير ، وارسلت الجنرال دي بوفور على رأس الحملة . وقد تبين في ما بعد ان الاثنين لم يكونا على مستوى المهمة .

كانت سياسة فرنسا يومئذ ترمي الى اعادة الامارة اللبنانية الى لبنان ، وعلى رأسها حاكم وطني ، والاعتراف للبنان باقصى ما يمكن من الاستقلال ، وتوسيع حدوده الى سهوله ومدنه البحرية على اساس الخريطة التي وضعتها الحملة الفرنسية .

وكانت سياسة الآستانة تؤيدها انكلترا على نقيض سياسة فرنسا . وبفضل تفوق ممثلي تركيا وانكلترا انحاز الى رأيهما ممثلو روسيا والنمسا وبروسيا ، وعجز النظام عن تحقيق الاماني اللبنانية التي كانت تؤيدها سياسة فرنسا :

فلا أعيدت الامارة .

ولا كان الحاكم لبنانياً .

ولا وطّدت دعائم الاستقلال .

ولا وسّعت الحدود .

بل ان ذلك النظام - على علاقته - لم يسلم من تجاوز المتصرفين ، وهم موظفون مرجعهم الى الآستانة ، فقد عملوا طوال عهد المتصرفية على خرق مواد النظام لمصلحة تركيا ، مما كان يدفع اللبنانيين الى رفع الاحتجاجات ، ويحمل الدول الضامنة على وضع القرارات لدى تعيين كل متصرف ، في شجب المخالفات وفرض احترام النظام وتوسيعه . غير ان النظام كان - على كل حال - دستوراً يصون الكيان اللبناني في استقلاله الداخلي وامتيازاته ، ويؤمن للبنان الضمانة الدولية .

الحاكم العام

مادة ١ - حاكم مسيحي . يتفق عليه وعلى مدته بين الباب العالي والدول الضامنة . ويصدر فرمان بتعيينه قابل العزل . ولكن لا يعزل الا بعد المحاكمة . له كل حقوق السلطة التنفيذية . يحصل الضرائب .

يعيّن الموظفين والقضاة . يدعو مجلس الادارة الى الانعقاد ويرثسه . لكن جرت العادة بتعيين رئيس لبناني . اساء المتصرفون استعمال حق تعيين الموظفين والقضاة فكان المتصرف يعيّن ويعزل بالاستحسان .

ملحوظات

بدلاً من كلمة « حاكم » التي وردت في النص الرسمي الفرنسي استعملت الترجمة الرسمية باللغتين التركية والعربية كلمة « متصرف » . كما اطلقت على لبنان كلمة « متصرفية » ، وذلك تمهيداً على الرأي العام في الامبراطورية العثمانية ان لبنان فيها هو دون « الولاية » لان الولاية كانت منطقة ادارية مقسومة « متصرفيات » . والمتصرفية جزء من الولاية . والمتصرفون تحت امر الوالي ، خلافاً لما نص عليه « النظام » ، وقد فرض ان يكون حاكم لبنان برتبة مشير او وزير وهي رتبة اعلى من رتبة الوالي ، بل اعلى الرتب في الدولة عسكرياً ومدنياً ، ولم يكن للوالي اقل شأن في امور لبنان بوجه من الوجوه ، خلافاً لما توحي به الترجمة .

جنسية الحاكم

كان تعيين الحاكم غريباً عن لبنان بدعة في تاريخه . وقد اعترضت فرنسا على هذه البدعة اعتراضاً شديداً وارسل وزير خارجيتها توفنال الى سفيره في الآستانة دي لا فاليت بتاريخ ٢٨ ايار ١٨٦١ برقية يشدد فيها على ان يكون الحاكم وطنياً . وهذه ترجمتها : « يجب ان تطلب ان يكون حاكم لبنان وطنياً . دافع عن هذا المبدأ حتى النهاية . ولا تتحول عنه الا اذا رأيت انه يتحتم القبول بحل للاشكال . وفي هذه الحال لا ترض بأي حل كان الا اذا ضمنت رسمياً ان الوطنيين لا يكونون محرومين في المستقبل من تقلد منصب الحاكم العام » . لم يؤيد ممثلو الدول طلب ممثل فرنسا فسقط الاقتراح . وكان تعيين « الحاكم » غير لبناني سبباً في ثورة يوسف بك كرم .

توالى على المتصرفية ثماني متصرفين ، من ١٨٦١ الى ١٩١٦ .
ومن غرائب الصدف انه كان يرجع الى الآستانة متصرف ويتوفي
في لبنان متصرف : سافر داود وتوفي فرنكو . سافر رستم وتوفي واصه .
سافر نعوم وتوفي مظفر . سافر يوسف وعزل اوهانس وكان دوره
ان يتوفي في لبنان (١) .

التمثيل النيابي

مادة ٢ - مجلس الادارة - وضع النظام اساس التمثيل النيابي في
لبنان على درجتين : ينتخب الاهالي ، في الدرجة الاولى ، شيوخ القرى
(المختارين) وفي الدرجة الثانية ، ينتخب شيوخ القرى اعضاء مجلس
الادارة .

على ان انتخاب شيوخ القرى لم يكن يجري - تنفيذاً لمبدأ الدرجتين -
كلما انتهت مدة مجلس الادارة او حل المجلس . بل كان يبقى شيوخ
القرى الى أجل غير مسمى ، لا تنتهي مدتهم الا بالوفاة او بالعزل ،
فكان ينفسح امامهم المجال لانتخاب مجلس الادارة اكثر من مرة .
وفي كل مرة يوحى اليهم المتصرف بكلمة السر ، ويعرفون ان كل من
خرج عن كلمة السر ، يخرج من المشيخة .

عدد الاعضاء

جعل النظام عدد اعضاء المجلس اثني عشر عضواً ، من مختلف
الطوائف : موارنة ٤ ، دروز ٣ ، ارثوذكس ٢ ، مسلم ١ ، كاثوليك ١ .
وأنشأ بروتوكول اوهانس باشا عضواً جديداً مارونياً عن دير
القمر وانتخب داود عمون ، فصار عدد المجلس ثلاثة عشر عضواً .

داود باشا من ١٨٦١ - ١٨٦٨	فرنكو باشا من ١٨٦٨ - ١٨٧٣
رستم باشا من ١٨٧٣ - ١٨٨٣	واصه باشا من ١٨٨٣ - ١٨٩٢
نعوم باشا من ١٨٩٢ - ١٩٠٢	مظفر باشا من ١٩٠٢ - ١٩٠٧
يوسف باشا من ١٩٠٧ - ١٩١٢	اوهانس باشا من ١٩١٢ - ١٩١٦

صلاحيات المجلس

كان لمجلس الادارة الرأي الفصل في الشؤون المالية . وفي شؤون
القضاة وفي الترخيص أو الرفض للعساكر العثمانية بدخول لبنان . وكان
للمجلس رأي استشاري في المسائل الاخرى التي يطرحها عليه الحاكم .

القضاء

مادة ٦ - جعل النظام القضاء في لبنان مستقلاً . يتولاها قضاة
لبنانيون . اما الدعاوى التجارية فقد جعلها النظام من اختصاص محكمة
بيروت التجارية . وعدل بروتوكول اوهانس باشا المادة فجعل الدعاوى
التجارية بين اللبنانيين من اختصاص المحاكم اللبنانية .
واعطت البروتوكولات القضاة الحصانة القضائية فلا يعزل القاضي
الا بعد تحقيق يقوم به مجلس الادارة .

الجندية

مادة ١٤ - صوناً للاستقلال الداخلي في لبنان حصر النظام شؤون
المحافظة على الامن بالجندية اللبنانية . وحظر على الجيش العثماني الدخول
الى لبنان الا اذا وقعت ظروف غير عادية . ففي هذه الحالة اجاز النظام
للحاكم ان يستعين بعساكر الدولة - شرط موافقة مجلس الادارة . وفي
هذا الظرف . يكون قائد هذه العساكر تحت امرة حاكم لبنان طول
المدة التي يقضيها فيه .

تضييق الحدود

مادة ٣ - شذب النظام الحدود فخلق لبنان في الجبل مقسوماً سبع
قائمقاميات : قائمقامية البترون وتشمل منطقة بشري واهدن وزغرنا
والزاوية (دون القلمون وطرابلس وعكار) .
قائمقامية الكورة . قائمقامية كسروان ، قائمقامية المتن ، دون

بيروت . قائمقامية الشوف . قائمقامية جزين (دون صيدا وصور وجبل عامل وحاصبيا وراشيا) . قائمقامية زحلة (دون سهل البقاع) .

حسنت النظام وسيئاته

الحسنات

حفظ النظام للبنان كياناً واستقلاله الداخلي .
كل الموظفين لبنانيون في الإدارة . في القضاء . في الجندية . عدا الحاكم العام . مع الاحتفاظ بحق تعيينه لبنانياً .
لا خدمة عسكرية .
لا ضرائب تفرض . ولا زيادات عليها .
حال النظام دون المحاولات في تركيا لادغام لبنان في الولايات .
منح النظام لبنان الضمانة الدولية .

السيئات

حصر النظام لبنان في جباله . فافقر ابناؤه فاضطروا الى الهجرة .
فجرفتهم عشرات الوف حتى كاد عدد المهاجرين يوازي عدد المقيمين .
وحرم النظام الموظفين كل ضمانات . فجعل الموظف آلة في يد المتصرف .
واعتمد النظام اساس الطائفية في النيابة والوظائف فاطفئت الشعلة الوطنية في صدور اللبنانيين . واصبحت النعرة الطائفية - وما تزال - اداة لزعزعة اركان الاستقلال .

الاقطاعات في العهد العثماني وقبله

الشهابيون : مالك الملقب شهاب من سلالة مرة بن كعب .
المعيون : المقدم مراد ابن المقدم محمد الذي امره الامير حيدر الشهابي من بني فوارس احدى الطوائف العشر التي قدمت من الجبل الاعلى الى لبنان . دخلوا لبنان قبل سنة ١٦٥٢ .
الخوازنة : ينتسبون الى الشدياق سركيس . سنة ١٥٤٥ دخل سركيس من جاج الى الفتوح ونزل في البوار .
الحبيشية : ينتسبون الى الشيخ حبيش . سنة ١٥١٥ ، بعد ان قتل السلطان سليم الملك قانصوه قدم حبيش الى غزير .
الظاهر : ينتسبون الى الشدياق بطرس الزيري . سنة ١٦٦٠ .
الصالح : الحوري صالح - سنة ١٧٠٠ قدم صالح من كسروان الى رشميا .
الدحداح : ينتسبون الى جرجس الدحداح . سنة ١٣٧٥ توفي غزال بلا عقب . ورثته ابنته زوجة جرجي الدحداح الملقب بالشدياق .
الشدياق : عواد - السمعاني - خاطر .
تنوخ : تنوخ بن تميم بن النعمان بن المنذر بن امرئ القيس المحرق (قيسي)
علم الدين : علم الدين تبرأ من آل تنوخ وصار اميراً على اليمن سنة ١٣٠١ . انعم عليه السلطان مراد بولاية الشوف . انقطعت السلالة التنوخية سنة ١٦٣٣ .
ارسلان : ارسلان بن مالك ... الملك المنذر - اللخمي .
جنبلات : جان بولاد الكردي الايوبي . سنة ١٦٣٠ حضر جان بولاد

من بلاد حلب الى بيروت لما بينه وبين آل معن من صداقة .
قاسم عماد : عماد رحل من العمادية قرب الموصل الى الجبل الاعلى .
ثم العرقوب .

نكد : ينتسبون الى قبيلة عرب الحجاز . سنة ١١٢٠ حضروا
الى الشوف وتقربوا من معن الايوبي .

تلحوق : ينتسبون الى قبيلة العرب - بني عزام - عرب الجزيرة
اتوا مع الامير معن الى الشام ، ثم الى حوران ثم الى وادي
التيه ، سنة ١١٤٤ الى بيروت . ثم الى الشويفات
وكفرشما ثم الى حومال .

معن : بن ربيعة الايوبي من ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن
عدنان المنتسبة اليه العرب المستعربة . سنة ١١٢٠ قدم صقر
الى الشوف .

بنو عساف : تركمان .

بنو سيف : اكراد .

حمادية : حمادة العجمي . له ولدان سرحال واحمد . ديب -
اود ديب تولوا مقاطعة الضنية . زوج ابنته لمقدمي جاج
المسلمين اللذين تولوا بلاد جبيل ضد الامير عساف والي
غزير .

الامير عساف استدعى احمد وديب وقال لهما : تقتلان مقدمي
جاج فتحلا محلهم فأبيا . اخبراً سرحال . سرحال رضي وارضى اخويه .
توجهوا جميعاً الى جاج . قتلوا المقدمين واتوا برأسيهما الى غزير .
سرحال تولى على بلاد جبيل .

لبنان الاماري

استقلال لبنان منذ الفتح العثماني

البيت المعني ١٥٤٥ - ١٦٩٧

فخر الدين الاول اقره السلطان سليم الفاتح على الامارة واطلق
عليه لقب سلطان البر سنة ١٥١٦ - توفي فخر الدين الاول سنة ١٥٤٥

قرقماز بن فخر الدين
فخر الدين الثاني الكبير ابن قرقماز
ملحم بن يونس بن قرقماز
احمد بن ملحم
١٥٨٥ - ١٥٨٥
١٦٣٥ - ١٦٣٥
١٦٥٨ - ١٦٥٨
١٦٩٧ - ١٦٩٧

وبه انقطعت السلالة المعنية

البيت الشهابي ١٦٩٧ - ١٨٤١

بشير شهاب ابن اخت الامير احمد المعني
حيدر موسى شهاب ابن بنت الامير احمد المعني
ملحم بن حيدر
الامير ان احمد ومنصور معاً اخوا الامير ملحم
الامير منصور وحده
يوسف بن ملحم
بشير الثاني الكبير
١٧٠٦ - ١٦٩٧
١٧٣٢ - ١٧٠٦
١٧٣٢ - ١٧٥٤
١٧٥٤ - ١٧٦٢
١٧٦٢ - ١٧٧٠
١٧٧٠ - ١٧٨٨
١٧٨٨ - ١٨٤٠

خلال فترات متقطعة تولى فيها امراء شهابيون آخرون

بشير الثالث الصغير

١٨٤٠ - ١٨٤١

فترة انتقال ١٨٤١ - ١٨٤٢

عمر باش النمساوي

١٨٤١ - ١٨٤٢

عهد القائمقاميتين ١٨٤٣ - ١٨٦١

قائمقامية الدروز

قائمقامية النصارى

١٨٤٣-١٨٥٤	احمد ارسلان ١٨٤٣-١٨٤٤
١٨٥٤-١٨٥٩	امين ارسلان ١٨٤٤-١٨٥٩
١٨٥٩-١٨٦٠	محمد ارسلان ١٨٥٩-١٨٦٠
١٨٦٠-١٨٦١	

حيدر اسماعيل ابي اللمع
بشير احمد ابي اللمع
حسن ابي اللمع
يوسف بك كرم

لبنان في القانون الدولي العام ١٨٦١ - ١٩٠٥

١٨٦١ - ١٨٦٨	داود باشا
١٨٦٨ - ١٨٧٣	نصري فرنكو باشا
١٨٧٣ - ١٨٨٣	رستم باشا
١٨٨٣ - ١٨٩٢	واصف باشا
١٨٩٢ - ١٩٠٢	نعوم باشا
١٩٠٢ - ١٩٠٧	مظفر باشا
١٩٠٧ - ١٩١٢	يوسف فرنكو باشا
١٩١٢ - ١٩١٥	اوهانس باشا

الاحتلال التركي ١٩١٥ - ١٩١٨

علي منيف بك
اسماعيل حقي بك

ممتاز بك

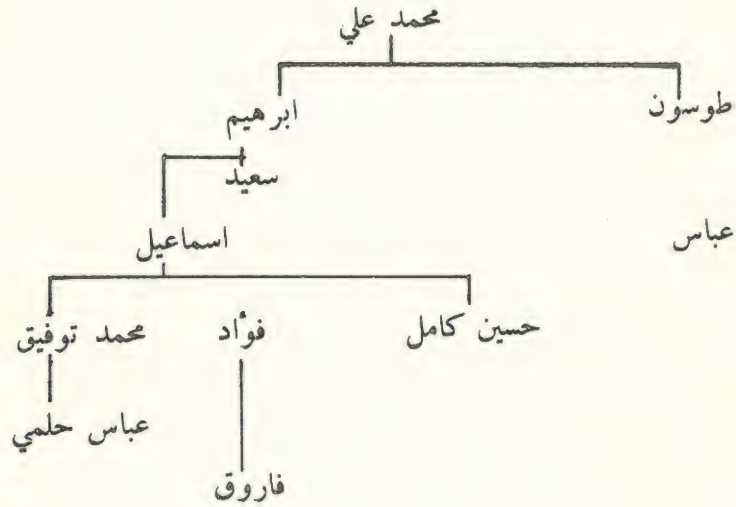
من تموز ١٩١٨ - ٣٠ ايلول ١٩١٨

سلاطين تركيا

١٢٩٦ - ١٣٤٣	عثمان الاول
١٣٢٣ - ١٣٦٠	اورخان
١٣٦٠ - ١٣٨٨	مراد الاول
١٣٨٨ - ١٤٠١	بايزيد
١٤٠١ - ١٤٠٩	محمد الاول
١٤٠٩ - ١٤٥١	مراد الثاني
١٤٥١ - ١٤٥٣	محمد الثاني
١٤٥٣ - ١٤٨١	بايزيد الثاني
١٤٨١ - ١٥١٣	سليم الاول
١٥١٣ - ١٥٢٢	سليمان بن سليم
١٥٢٢ - ١٥٦٦	سليم الثاني
١٥٦٦ - ١٥٧٦	مراد الثالث
١٥٧٦ - ١٥٩٤	محمد الثالث
١٥٩٤ - ١٦٠٣	محمد الاول
١٦٠٣ - ١٦١٧	مصطفى اخو السلطان احمد
١٦١٧ - ١٦٢١	عثمان الثاني ابن السلطان احمد
١٦٢١ - ١٦٢٣	مصطفى
١٦٢٣ - ١٦٣٩	مراد الرابع ابن احمد
١٦٣٩ - ١٦٤٨	ابراهيم ابن السلطان احمد (اخو مراد)
١٦٤٨ - ١٦٤٨	محمد الرابع ابن ابراهيم

ابن سليم الثاني
ابن سليم الثاني
ابن محمد الثاني
خلع بعد ٣ اشهر
خلع ورجع مصطفى
نزل عن السلطنة
قتل
(حكم ٤١ سنة) خلع

١٨٣١ ارسل حملة على سوريا بقيادة ابنه وانتزعتها من العثمانيين.
ابراهيم باشا في سوريا ١٨٣١ - ١٨٤٠



٢١ سليمان الثاني	١٦٤٨	(٣ سنين)
ابن ابراهيم		
٢٢ احمد الثاني	١٦٩٠	(٤ سنين)
ابن ابراهيم		
٢٣ مصطفى الثاني	١٦٩٠	(٨ سنين) خلع
ابن محمد		
٢٤ احمد الثالث ابن	١٧٠٣	تنازل بعد ٢٨ سنة
محمد الثاني		
٢٥ محمد الاول ابن	١٧٣١	(٢٥ سنة)
مصطفى الثاني		
٢٦ عثمان الثالث	١٧٥٤	
اخو محمود		
٢٧ مصطفى الثالث	١٧٥٨	(٣ سنين)
٢٨ عبد الحميد الاول	١٧٧٣	
٢٩ سليم الثالث ابن	١٧٨٩-١٨٠٧	
مصطفى		
٣٠ محمود الثاني	١٨٠٨-١٨٣٩	
٣١ عبد المجيد	١٨٣٩-١٨٦١	
٣٢ عبد العزيز	١٨٦٠	
٣٣ عبد الحميد الثاني	١٨٧٦	
٣٤ محمد الخامس	١٩١٨	

سلالة محمد علي

ضابط الباني الجنس تركي اللسان كان في الجيش العثماني الذي
اجلى نابليون عن مصر .
حلم بانشاء امبراطورية عربية عاصمتها القاهرة ، سحق الجيوش
الوهابية .

تعديل نظام جبل لبنان

لما كان منصب متصرف جبل لبنان قد اصبحت خالياً بانتهاء مدة ولاية يوسف باشا تعطف جلالة السلطان بان سمي لهذا المنصب اوخانس بك قيوجيان مستشار نظارة الخارجية فاجتمع ممثلو الدول الموقعات لنظامات جبل لبنان الاساسية والبروتوكولات المرتبطة بها واثتمروا مع ناظر الخارجية فاجمعوا على ان يقرروا في هذا البروتوكول الاتفاق السابق حصوله بينهم وبين الباب العالي بمناسبة هذا التعيين وتأيد القرار الذي يحدد مدة ولاية الحاكم الى منقضى خمس سنوات تبتدىء من تاريخ توقيع هذا البروتوكول . وايضاً فانهم قد اجمعوا ان يضيفوا على النظامات والبروتوكولات المشار اليها المقررات الاتي ببيانها :

اولاً - قياساً على قاعدة الانتخاب الجاري التعامل الحالي بها في زحلة يجري انتخاب اعضاء مجلس الادارة في الاقضية من قبل شيوخ القرى الذين يضاف اليهم في القرى التي تعد مئة مكلف واكثر مندوب واحد عن كل مئة مكلف .

على ان عضو مجلس الادارة عن زحلة يبقى انتخابه كما كان قبلاً من قبل مندوبية كل منهم ينوب عن خمسين مكلفاً .

اما عدد اعضاء مجلس الادارة المنتخبين عن كل قضاء وتنسيبهم بحسب الطوائف الممثلة في قوام هيئة المجلس فكلاهما لا تغيير فيه . الا ان اهالي مديرية دير القمر المحرومين حتى الان من حق النيابة في المجلس هم مكلفون ان يبعثوا اليه عضواً من طائفتهم . ومن جهة اخرى فان العضو الدرزي في المجلس المنتخب حتى الان عن جزين

يكون انتخابه في الشوف .

ثانياً — ان عضو مجلس الادارة متى تم انتخابه لا تكف يده مطلقاً من قبل الحاكم بداعي خطأ او تجاوز او تقصير في واجبات وظيفته الادارية ما لم يسبق اجراء التحقيق وابلاغ نتائجه الى مجلس الادارة وموافقة على ذلك .

ثالثاً — ان الميزانية التي تقدر فيها الواردات والمصاريف يضعها الحاكم بمعاونة مجلس الادارة وتنظم وتنشر قبل ابتداء السنة المخصصة هي لها بثلاثة اشهر .

رابعاً — ان المتصرف المعين الان يدرس امر اعادة النظر في اجراء المساحة والاحصاء والضرائب المتنوعة الجارية جبايتها ويبادر ايضاً لتفحص المسائل الثانوية كمسألة الاراضي الخراجية والاميرية التي يراد ادخالها في نطاق القاعدة العمومية . وبناء على المعلومات المكتسبة يقدم مقترحاته الى الباب العالي قبل انقضاء مدة ولايته بستة اشهر على الكثير ليعاد النظر باتفاق الباب العالي مع الدول في المادة الخامسة عشرة من النظام الاساسي المورخ في ٦ ايلول سنة ١٨٦٤ وبهذه المناسبة يجري تصفية حسابات السنين السابقة بصورة نهائية .

خامساً — في المواد التجارية المتكونة بين متداعية كلهم لبنانيون يكون لمحاكم الجبل صلاحية ان تراها بداية واستئنافاً .

سادساً — ان عدد افراد البوليس (الجندرية) المنصوص عليه في المادة الرابعة عشرة من نظام سنة ١٨٦٤ يصير الفا ومائتي رجل ويعهد بامر تدريبهم كل المدة اللازمة الى احد الضباط المستخدمين في تركيا لتنظيم الجندرية فيها . اما زيادة النفقات الناشئة عن ذلك فتجري تسويتها بحيث يكون التثقل على ميزانية الدول العمومية ، خفيفاً بقدر الامكان .

الوضع الدولي قبل الحرب

الفتح العثماني

حالف النصر سلاطين بني عثمان ففتح محمد الثاني القسطنطينية سنة ١٤٥٣ واستولى سليم الاول على سوريا ولبنان ومصر سنة ١٥١٦ . ومدّ سليمان الكبير رواق السلطنة حتى ابواب فيينا (١٥٣٠-١٥٦٦) فبلغت الامبراطورية العثمانية من القوة والمنعة شأواً حمل دول اوروبا على التسابق الى التقرب من الباب العالي ، ولم يعد لاحدا من مطمع في أية أرض يخفق عليها علم الهلال فحوّلت اوروبا انظارها الى بقاء أخرى .

الصراع بين انكلترا وفرنسا

بعد اكتشاف العالم الحديد واقتسامه بين اسبانيا والبرتغال في اوائل القرن السادس عشر ، حملت الغيرة انكلترا وفرنسا الى تلك القارة : احتلت فرنسا كندا ، واحتلت انكلترا اميركا الشمالية .

وفي سنة ١٧٦٣ أخرجت انكلترا فرنسا من كندا ، فقابلتها فرنسا بأن ساعدت الثورة في أميركا ، ومدّت الثوار بالعتاد والرجال . فاستقلت اميركا واجلت الانكليز سنة ١٧٦٦ .

وكان للدولتين مطامع في الهند فأنشأت انكلترا فيها امبراطوريتها ، وأنشأت فرنسا الهند الصينية الفرنسية .

ولم يلبث ان انتقل الصراع الى افريقيا .

فاحتل بونابرت مصر سنة ١٧٩٩ ، وقطع الصحراء الى عكا في طريقه الى الهند الانكليزية ، فلاحقت به الاساطيل البريطانية ودمرت

العمارة الفرنسية في أبو قير قرب الاسكندرية . فاضطر بونابرت الى رفع الحصار عن عكا ، ورجع الى مصر ، ومنها الى فرنسا واخفقت الحملة .

ولما استقر الحكم بمحمد علي في مصر امتدّ طموحه الى عاصمة السلطنة . فساعدت فرنسا ابراهيم باشا على احتلال سوريا سنة ١٨٣١ في طريقه الى الاستانة .

ولكن بعد ان احتل الجيش الفرنسي الجزائر سنة ١٨٣٧ ، وتبين ان محمد علي يدور في فلك السياسة الفرنسية ، رأت انكلترا ان اتساع الرقعة التي تشغلها فرنسا في افريقيا ، وعلى سواحل المتوسط لا يتفق ومصالح الامبراطورية ، على ما صرح به اللورد بلمرستون للمسيو غيزو في مقابلة ٤ آذار سنة ١٨٤٠ - قال بلمرستون : « لا شك في ان فرنسا ترى بعين الارتياح قيام دولة جديدة نشيطة مستقلة في مصر وفي سوريا . وتكون تلك الدولة حليفة لها ... ان لكم السيطرة على الجزائر فلا يبقى ما يعترض بينكم وبين مصر ، وهي حليفتكم إلا تونس وطرابلس وهما أضعف من ان تقفا في وجهكم . فتصبح والحالة هذه كل سواحل افريقيا وقسم من سواحل آسيا على البحر المتوسط من مراکش الى خليج الاسكندرونة في قبضتكم وتحت سيطرتكم . ان ذلك لا يمكن ان يوافقنا » (١).

وفي نطاق هذا الاتجاه قام الاسطول البريطاني بمساعدة تركيا ، واضطر ابراهيم باشا الى الجلاء عن سوريا ولبنان والرجوع الى بلاده سنة ١٨٤١ .

على ان فرنسا لم تتخلّ عن سياستها في افريقيا فاحتلت تونس سنة ١٨٦١ ، وفتحت قنال السويس طريقاً أخرى الى الهند الانكليزية سنة ١٨٦٩ .

وكانت ردة الفعل في انكلترا ان اشترت اسهم القنال سنة ١٨٧٥ ،

(١) مجموعة البارون ده تستا ص ٥٢٤ .

واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ بحجة الدفاع عن الخديوي توفيق في ثورة عرابي .

حاولت فرنسا ان تلف الانكليز في مصر باحتلال فشوده (١٨٩٨) ، فصدتها انكلترا وأجبرت الكابيتين مرشان على الانسحاب ، وكانت فرنسا قد تضعضعت على أثر انكسارها سنة ١٨٧٠ .

أما كيف تهادن الصراع وحل التحالف بين الدولتين محل الزحام ، فمرجهه الى ظهور خطرين يهددان انكلترا وفرنسا معاً : خطر روسيا ، وخطر المانيا .

خطر روسيا

في مستهل القرن الثامن عشر تحركت الامبراطورية الروسية واتجهت جيوشها نحو البلقان في السلطنة العثمانية ، واحتلت مقاطعتي البغدان والافلاق (مولدافيا وفلاخيا) سنة ١٨٢٩ فتبين ان الامبراطورية العثمانية ، بعد عظمتها السابقة ، قد دخلت في دور الانحطاط ، وظهرت « المسألة الشرقية » الى الوجود .

وخشيت فرنسا وانكلترا ان يصل التقدم الروسي الى الاستانة والى ولايات السلطنة في اوروبا ويسيطر على مضيق الدردنيل فتنتفع لروسيا ابواب البحر المتوسط ، وهو خطر أقلق الدولتين ، وساقهما الى التحالف في حرب « القرم » لمساعدة تركيا على روسيا (١٨٥٦) .

خطر المانيا

ما ازيل شبح الخطر الروسي حتى ظهر خطر اشد منه وادهى : فبعد ان انتصر الالمان على فرنسا ١٨٧٠ ، اصبحت المانيا اقوى دولة برية في اوروبا ، فحملها الطموح الى منازعة انكلترا في السيطرة على البحر ، وفي تهديد طرق الهند .

وفي تلك الاثناء كانت الامبراطورية العثمانية قد تفككت عراها في استقلال دول البلقان ، وفي الحرب ضد روسيا ، فغنمت المانيا

الفرصة وتغلغت سياستها في الاستانة بمظهر الدفاع عن عرش السلاطين ،
فرار الامبراطور غليوم السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٨ واعلن نفسه
حامى حى الاسلام ، ونال امتياز سكة حديد برلين بيزنطية بغداد ،
(ب.ب.ب.ب.) وسيطرت على الجيش التركي بعثتا الجنرال ليما فون
سندرس والمارشال فون درجولتز ، وقال احد السياسيين الانكليز
ان كل مئة كيلومتر من سكة حديد بغداد تمتد نحو خليج العجم تعادل
طراداً المانيا لكسر شوكة انكلترا .

وتصدت المانيا أيضاً لمستعمرات فرنسا في افريقيا .

هكذا جمعت تلك الاحداث بين انكلترا وفرنسا ووضعت حداً
— ولو مؤقتاً — لنزاعهما القديم ، وانشئت جبهة انكلترا فرنسا تجاه جبهة
المانيا وحليفاتها النمسا ، فلم يكن بدءاً من حرب تفصل بين الجبهتين .
فجاء مقتل الارشيدوق فرنسوا فردينند (٢٨-٦-١٩١٤) في
سراجفو صربيا شرارة أشعلت البارود الناشف ، ف وقعت الحرب ،
ومن اهدافها الكبرى تصفية « المسألة الشرقية » ، واقتسام « التركة »
وبلادنا رقعة فيها ، ومطمح للظافرين .
فما ان اسفرت الحرب عن انتصار الحلفاء ، حتى استقل شريف
مكة بالحجاز ، وعهد بالانتداب لانكلترا على فلسطين والاردن والعراق ،
ولفرنسا على سوريا ولبنان ، وتوطدت اركان الاحتلال الانكليزي
في مصر .

عودة الصراع في المشرق

لم يطل الزمان حتى عاد الزحام الحفي بين الحليفتين .
فأسعد سوريا ولبنان ان يحلو الجيش الفرنسي ويتمتع كل منهما
بنعمة الاستقلال التام سنة ١٩٤٦ ، بمساعدة بعثة الجنرال سبيرس .
فلم تحزن انكلترا لفرنسا .
ثم طوي علم (الاونيون جاك) في فلسطين والاردن والعراق
ووادي النيل باشراف الولايات المتحدة ، فلم تحزن فرنسا لانكلترا .

لبنان في القانون الدولي العام

١٨٦٠-١٩١٨

تدخلت اوروبا في شؤون لبنان على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ .
فاجتمع سفراء انكلترا وفرنسا وبروسيا والنمسا مع وزير خارجية تركيا
في الاستانة . وبعد مباحثات معقدة تقرر جعل لبنان حكومة حائزة على
استقلال داخلي بحماية الدول الخمس الكبرى فوضع « دستور لبنان »
وصدق عليه سفراء الدول ووزير خارجية تركيا في بروتوكول تاريخه
٩ حزيران سنة ١٨٦١ . ثم تعدل بمقتضى بروتوكول ٦ ايلول سنة
١٨٦٤ . وخلاصة الدستور الموضوع ان الحكم في لبنان يشكل على
الوجه الآتي :

— حاكم مسيحي يعينه الباب العالي بموافقة الدول لمدة محدودة .
— مجلس ادارة منتخب على درجتين مؤلف من اثني عشر عضواً
يمثلون المناطق على اساس الطوائف ، لمدة ست سنوات يجري تجديده
بالثلاث كل سنتين .

— المحاكم : تشكل على اساس الطوائف .
المالية مستقلة على اساس موازنة محدودة . واذا ظهر عجز في
الموازنة تعهدت الدولة بسده .

التقسيم الاداري : سبع قانمقاميات — الكورة — البترون — كسروان
— المتن — الشوف — زحلة — جزين .

على هذا الاساس حفظ لبنان استقلاله الداخلي التام . وقطع اعتراف
الدول الكبرى بذلك الاستقلال الطريق على الباب العالي في محاولة ضم
لبنان الى الولايات المجاورة في نطاق الدولة .

على ان النظام الجديد لم يحقق كل الأمل الذي كان معقوداً عليه .

فالنظام لم يوجب إعادة الامارة اللبنانية ، كما لم ينص على وجوب ابقاء الحاكم لبنانياً ، بل ترك الباب مفتوحاً من هذه الجهة بشكل يجيز تعيين الحاكم لبنانياً او غير لبناني . ثم اقتضى النظام بان يكون الحاكم مسيحياً . وقصر النظام عن تحقيق الوحدة الجغرافية للبنان . فاقطع بيروت وسهل البقاع والمعلقة شرقاً ولم يدخل في الحدود الطبيعية عكار وطرابلس شمالاً ، وجبل عامل وصور وصيدا جنوباً .

ولم تحف نواقص « النظام » على لبنان ، فسرت فيه موجة استياء شديدة ، ادت الى ثورة يوسف بك كرم المعروف ببطل لبنان ، وكان هدف الثورة الاول الاحتجاج على تعيين حاكم اجنبي والمطالبة بالحاكم الوطني ، جرياً على تقاليد ترجع الى ما قبل الفتح العثماني . وما ثورة كرم إلا حلقة في سلسلة التضحيات التي قدمها لبنان على مذبح الاستقلال طيلة اجيال . ونكتفي بسرود الموجز التالي عن تلك الحركة الوطنية التي لا يزال صداها يتردد في صدور اللبنانيين .

يوسف كرم (١٨٢٣ - ١٨٨٩)

إنه سليل اسرة كانت لها منزلتها في لبنان الشمالي فكان والده حاكماً لقطاعية اهدن (مسقط رأسه) فنشأ على الوطنية الصادقة وعلى تحمل المسؤولية وتحدي المخاطر . تولى الحاكمية وهو في الثالثة والعشرين بعد وفاة أبيه ثم رقي الى وكيل قائمقامية النصارى ومركزها جونية بعد حوادث سنة ١٨٦٠ . فحاول ترسيخ دعائم الأمن في المنطقة وإعادة الوئام بين المشايخ والفلاحين على أثر ثورة طانيوس شاهين حرصاً على الاستقرار . الا انه لم يبرز كقائد لبناني الا بعد تعيين حاكم اجنبي على لبنان استناداً الى النظام الجديد وعزله من منصبه .

تعاون يوسف كرم والبطريك بولس مسعد على محاربة المتصرف الاجنبي داود باشا بعد ان تهادى هذا في الجور ورفع الضرائب . وعبئاً حاولت السلطة استرضاءه بكل وسيلة لكي يهادنها فتدخل الباب العالي في الأمر واستقدم يوسف كرم وأقنعه بالتريث وآمله بعودة الحكم

للوطنيين فاقنع ووثق بالوعد ورضي بان يعيش قرب ازمير بانتظار الفرج . لكن ظنه خاب تماماً عندما جددت الولاية لداود باشا . فعاد الى بلاده يحمل سيف النعمة على المتصرف انطلاقاً من زغرنا واشترك مع رجاله الابطال على قلة عددهم في عدة مواقع مع الجيش العثماني أثارت إعجاب اللبنانيين ودهشة الاستانة ، الى ان تدخل القنصل الفرنسي ووجه اليه دعوة الى فرنسا . ولم يكن بإمكان حفنة من الرجال الوقوف بوجه السلطة العثمانية حتى النهاية . الا انها أظهرت ، على كل حال ، بطولة نادرة كرسست استمرار التوق اللبناني الى التحرر .

وقد تعاقب على لبنان من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٩١٥ ثمانية حكام اجانب عنه : داود ، فرنكو ، رستم ، واصه ، نعوم ، مظفر ، يوسف ، اوهانس .

وكان لدى تعيين كل حاكم يجتمع سفراء الدول في وزارة الخارجية في الاستانة فيستعرضون مع الوزير اسماء المرشحين . ولا يعين الحاكم الا باجماع الآراء .

وكان اللبنانيون يعلقون الاهمية الكبرى على انتخاب مجلس الادارة ، وهو مجلسهم النيابي ، يوم لم يكن في معظم دول العالم مجالس نيابية . وكان الانتخاب على درجتين . ينتخب الأهالي مشايخ القرى في الدرجة الاولى وينتخب مشايخ القرى اعضاء المجلس في الدرجة الثانية . وكان أقل تدخل للحكومة في الانتخابات يثير السخط والاحتجاج ، على ما جرى على عهد واصه باشا (١٨٨٣-١٨٩٢) مما أدى الى وضع نص خاص في بروتوكول تعيين نعوم باشا (١٥ آب سنة ١٨٩٢) يقضي بصيانة حرمة الانتخاب موصياً : « بان تجري انتخابات مجلس الادارة بكل ضمانات الاستقلال المرغوبة وبان تحترم حقوق هذه الهيئة » .

وكانت تراوح مدة الحاكم بين عشر وخمس سنوات . وظلت الحال على هذا المنوال حتى اعلان الحرب العالمية الاولى . فغضمت حكومة الاستانة الفرصة السانحة لتحقيق الهدف القديم الرامي الى إلغاء استقلال لبنان ، فنشرت في كانون الثاني سنة ١٩١٧ مذكرة رسمية

الوجه الآخر لتاريخ لبنان : الوجه الحضاري . وهو
الوجه الحقيقي للبنان منذ فجر التاريخ حتى الآن . فتاريخ
هذا البلد ليس تاريخ فتوحات وانتصارات عسكرية بل
هو تاريخ التقدم الانساني منذ ان اكتشف الانسان الفينيقي
الابجدية وانشاء المستعمرات الحضارية والتجارية في البحر
المتوسط وخارجه .

يوسف السودا مفكر ومناضل وطني يعود بنا في هذه
الدراسة الى جذور حضارة الانسان على هذه الشواطئ
وينقلنا عبر اجيال طوال الى لبنان الحديث .

